استراتيجية الفتوحات الإسلامية

القادسية

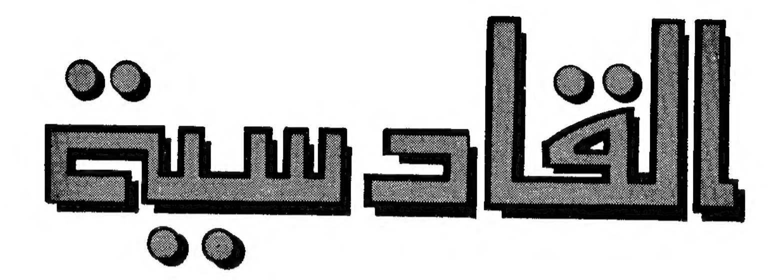


أحمد عادل كمال



استراتيجية الفتوحات الإسلامية

(٢)



احمد عادل كمال

دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م
الطبعة التاسعة : ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

© دار النفائس
العنوان: شارع فردان
بناية الصباح وصفي الدين
هاتف: ٨١٠١٩٤-٣٣٢٩٣٣
برقياً: دانفايسكو - ص.ب ١١/٦٣٤٧
بيروت - لبنان

الإهـــداء

إلى كل مخلص لله يعمل لإنقاذ هذه الأمة

ممـــا هي فيه ...



تقـــديم

ليس أسعد لقلب كاتب من أن يحس بالتجاوب بين قرائـه وبين ما يكتب . ولقد حدث هـــذا منذ اللحظات الأولى التي وصل فيها كتابنا « الطريق الى المدائن » الى أيدي القراء . كانت تسعدني كثيراً تلك الساعات الطوال الـتي شغلتها مناقشاتهم حول « الطريق الى المدائن » وكذلك كتابات الذين قرّظوه أو قدّموه الى قراء العربية على صفحات الجرائد والمجلات أو على موجات الاذاعات العربية او في نشرات بعض الجيوش العربيـة الى ضباطهـا ، فأفاضوا من المديح والثناء ما أسأل الله أن يكون مستحقاً له .

ولقـــد تناول « الطريق الى المدائن » من فتح العراق عامي ١٢ و ١٣ هـ. فشمل حملة خالد بن الوليد وحملة أبي عبيد بن مسعود الثقفي وحملة المثنى بن حارثة الشيباني... ووقفنا من تلك الأحداث على قرار المثنى بالانسحاب من جميع أرض العراق بعد أن تم له اكتساحه اثر معركة البويب للأسباب التي أوضحناها . وهنا في هذا الكتاب « القادسية » نستطرد من حيث وقفنا هناك، فهو استكمال

متصل لأحداث التاريخ الحربي وتخطيطات الفتح الاسلامي للعراق الـتي بدأناها في « الطريق الى المدائن » . كان « الطريق الى المدائن » ثلاثة أجزاء صدرت في مجلد واحد شغلت المقدمات الجزء الأول منها،وما « القادسية » إلا الجزء الرابع من سفر هذا التاريخ العظيم . ولذلك فلن نجـــد هنا مقدمات جديدة ، وكل ما نشير اليه في هذا الشأن أن المنهج واحد في الكتابين .

هـــذا التاريخ نقدمه الى أمتنا في وقت هي أشد مـا تكون حاجة اليه ، فإننا في صراعنا المعاصر لا نبـــدأ من فراغ ، وليس على سطح الأرض اليوم لا في أمريكا ولا في أوربا ولا في روسيا ولا في غيرها أمة لها ما للمسلمين من جذور عميقة في التاريخ وفي الأصول الحضارية الصالحة وفي منهج الحيـاة ... كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . ولئن أتى على هـــذه الأمة خريف أسقط ما عليها من ورق ولم يرَ الراؤون عليهـا ما اعتادوا من أطايب الثمر ، وأقبل صبيان التاريخ يتقافزون على فروعها ويقتطعون منهـا ، فإن من طبائع الامور الخاضعة لسنة الله أن تمدها جذورها من جديد بما سبق أن أمدتها به من قبل فتعود مثمرة مورقة تستظل البشرية بظلها ، ولن يصلح شأن هذه الامة إلا بـما صلح به أولها .

« القادسية » نقدمه شاكرين لكل من استجاب لدراسته مخلصاً لله ، ولكل قارىء زودنا بتوجيه أو إرشاد أو نقد .

والله الموفق والمستعان .. هو يقول الحق .. وهو يهدي السبيل .

أحمد عادل كمال

الباب الأول

القادسية في التاريخ

المعارك الحاسمة :

يترك الإنسان بصماته على ما يضع أصابعه عليه من أشياء فتبقى هذه البصمات كثيراً أو قليلاً حتى يزيلها الناس أو يعفي عليها الزمن . ومن المعارك مـا يضع بصماته على سطح الأرض فتبقى آثارها على التاريخ ما بقي كوكبنا لأنها لم تكن ذات أثر محـــدود يذوب مع الزمن أو لم تكن فعلاً ينقضه رد فعل في الأجل المناسب ، وإنما كانت فعلاً اكتسب من استطراده المحتوم ما استحال معه إيقافه أو إزالة آثاره .

وعلى ذلك يعتبرون معركة واترلو من المعارك الحاسمة في تاريخ العالم ، فلو ظل نابليون بونابرت يوالي انتصاراته لما استطاع أحد أن يتصور خريطة العالم اليوم . ويعتبرون معركة ستالينجراد معركة حاسمة استطاعت عندها روسيا البلشفية أن توقف تقـدم هتلر ، ولولا ذاك لتمّ له غزو روسيا ولبادت الشيوعية وارتفعت على أنقاضها النازية. ويعتبرون معركة العلمين من المعارك الحاسمة ،فلولا أن انتصر الانجليز فيها لدخلت القوات الالمانية مصر واخترقت الشرق الأوسط وانقلب ميزان الموارد والقوى في الحرب العالمية الثانية لصالح المانيا . ولا يعتبرون سقوط فرنسا وباريس تحت أقدام هتلر من المعارك الحاسمة لأنها لم يكن لها ذلك الأثر الممتد مع التاريخ .

وليس أغنى من التاريخ الإسلامي بالمعارك الحاسمة ، ليس فقط بعدد تلك المعارك على مداه ، ولكن بمقدار ما صاحبها من أثر وحسم . وليس على سبيل الحصر أن نذكر أن صلاح الدين استطاع في حطين أن يضع نهاية للنفوذ الصليبي في الشرق الأوسط فتعود الموجات الصليبية من حيث أتت وتستمر الحضارة الإسلامية تؤدي دورها لقرون أخرى. واستطاع «قُطز» أن يقهر التتار في عين جالوت فيوقف المد المغولي المخرب بعد أن اكتسح الشرق كله حتى بلغ حدود مصر الشرقية ، ثم يرتد مرة أخرى من حيث جاء في هزائم متلاحقة .

القادسية معركة حاسمة :

ولا شك أن القادسية – وتقاربها اليرموك – تقع على قمة قائمة المعارك الحاسمة في تاريخ العالم ، فهي التي انفتحت على آثارها أبواب العراق ، ومن وراء العراق فارس كلها ، وهي التي من عندها استطرد نصر المسلمين ، فاستطرد معه السقوط الساساني من الناحيتين الحربية والسياسية ، والسقوط المجوسي من الناحية الدينية العقائدية . ومن هنا انساح دين الإسلام في العالم شرقاً وغرباً ، ولولا ذلك لظل محصوراً في جزيرة العرب لا يتعدى القبائل الضاربة في صحاريها وحواضرها القليلة . كان الإسلام جديداً ، فهو ما زال في فتوته ، فإن لم يكسب المسلمون إنجازاتهم حينذاك ، ودينهم حي في قلوبهم يصرّف أعمالهم لأدرك أمتهم الهرم والشيخوخة ولظلت السيطرة على العالم لجيرانهم من الفرس والروم من دونهم ، ولأمكن حينذاك – ولو من الناحية التصورية البحتة للتاريخ – أن ينحسر ظل الإسلام فيضمر حيث حصره أصحابه ،لولا أن الإسلام يفرض على المسلمين مجاهدة أعدائهم ومناجزتهم حتى يتم النصر عليهم .

في القادسية كسر المسلمون شوكة المجوس كسراً لم ينجبر بعدها أبداً . فيها ألقى الفرس بكل طاقاتهم من سلاح وعتاد وأفيال كثيرة وأعداد ضخمة من الجند ، وبقيادة تمثلت في أحكم رجالهم وأشهرهم في الحرب والسياسة . وألقى المسلمون أيضاً بكل إمكانياتهم من وجوه المسلمين وغررهم ، وبقيادة تمثلت في

صحابي رسول الله ﷺ ، وواحد من السابقين الأوائل إلى الإسلام وأحد الستة المرشحين للخلافة بعد عمر ، سعد بن أبي وقاص ، كما نزلوا إلى مواجهة أعداء الفرس وأفيالهم وعدتهم بسلاحهم الذي اختصوا به على عدوهم ... الإيمان بكل ما يُفرغه على أصحابه من صلابة وصبر وكفاءة. بهذا استحقت القادسية مكانها، بل مكانتها على قمة المعارك الحاسمة في تاريخ البشر .

من يقود الحملة

هل يقودها عمر

توافد الناس من أنحاء شبه الجزيرة، فأنزلهم عمر على ماء (في مكان فيه ماء) يدعى صِرّار بالقرب من المدينة على طريق نجد نحو العراق ، فعسكروا به وخرج عمر معهم . وجعل على مقدمته طلحة بن عبيد الله وقدمه إلى ماء بعد صرار اسمه الأعوص. وجعل على الميمنة الزبير بن العوام وعلى الميسرة عبد الرحمن ابن عوف . كان ذلك في أول محرم ١٤ هـ . (٢٤ شباط ٦٣٥ م) ، ولا يدري الناس ما إذا كان أمير المؤمنين قد اعتزم الخروج بنفسه على رأس هذا الجمع أو أنه سيبقى في المدينة ويبعث رجلاً غيره . وكان عثمان بن عفان رديف عمر [والرديف عند العرب هو نائب الرئيس والرجل الذي يرجونه بعده] ، كما كان عبد الرحمن بن عوف من كبار الصحابة ذوي المكانة في الدولة وعند عمر ، فكان الناس إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شيء أوفدوا اليه عثمان أو عبد الرحمن ، فإذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب .

وسأل عثمانُ عمرَ عما يريد ، فلم يجب عمر وإنما نادى « الصلاة جامعة » فاجتمع الناس اليه فأخبرهم الخبر واستشارهم في الأمر لينظر ما يقولون ، ولم يكن قد استشار في شيء مما كان قبلها .

قال العامة : « سِرْ وسر بنا معك » .

فدخل في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه في رفق ، فقال :
« استعدوا وأعدُّوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك [1] » .

ثم بعث إلى علي بن أبي طالب وكان قد استخلفه على المدينة فأتاه ، وأرسل إلى طلحة وإلى الزبير وإلى عبدالرحمن بن عوف فجاؤوا اليه وعرض عليهم الأمر فقال : « أحضروني الرأي فإني سائر » .

فكان طلحة وعلي بن أبي طالب ممن تابع الناس على رأيهم ورأى خروج عمر.

وكان العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف ممن نهاه .

روى عبد الرحمن ما كان في ذلك الشأن فقال :

« ما فديت أحداً بأبي وأُمي بعد النبي ﷺ قبل يومئذ ولا بعده ، فقلت بأبي وأُمي اجعل عَجُزَها بي [يعني اجعلني آخر من تبعث] وأقم وابعث جنداً ، فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد ، فإنه إن يُهزم جيشك ليس كهزيمتك . وإنك إن تُقتل أو تُهزم في أنف الأمر خشيت ألا يكبّر المسلمون وأن لا يشهدوا ألا إله إلا الله أبدا » .

فاجتمعوا جميعاً وأجمع ملؤهم على أن يقيم بالمدينة ويبعث رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ، ويمدّه بالجنود ، فإن كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون ، وإلا أعاد رجلاً ثانياً وندب جنداً آخر وفي ذلك ما يغيظ العدو ويرعوي المسلمون [عن ردة ثانية] ويجيء نصر الله بإنجاز موعوده .

العدول عن ذلك

ومرة أخرى نادى عمر : « الصلاة جامعة » فاجتمع الناس اليه فقام فيهم فقال : « إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله فألّف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره ،

---

(١) الطبري ٣ – ٤٨٠ عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم. فتوح البلدان ٢٣٢ .

وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم بين ذوي الرأي منهم. فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم، ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم.

يا أيها الناس، إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً، وقد أحضرت هذا الأمر من قدّمت ومن خلفت». [يعني طلحة وعلياً].

لم تكن فكرة خروج عمر إلى العراق جديدة تُثار لأول مرة، فقد مرّ بنا قول أبي بكر: «... ووددت أني كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام، كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يديّ كلتاهما في سبيل الله»، ومدّ يديه. غير أنّ أبا بكر ودّ لو أنه بعث عمر إلى العراق إذ لم يكن عمر أميراً للمؤمنين، أمّا وقد صار كذلك فإن الأمر يختلف. نعم لقد كان رسول الله ﷺ يقود بنفسه جيوش المسلمين، وكذلك فعل أبو بكر في قتال ردة عبس وذبيان. ولكن ليست هذه كتلك. لقد كانت غزوات الرسول وقتال عبس وذبيان يدور على أرض هي عقر دار الإسلام والمسلمين، فالأمر يحتاج إلى الاستماتة وإلى حشد كل طاقة من صفوف الجند كانت أو في مكان القيادة. فإذا نظرنا إلى شخص الخليفة من زاوية أن المصلحة تقضي صيانته حفظاً لوحدة الأمة وهيبتها وقيادتها، فإننا نجد أن بقاءه بالمدينة لم يكن ليكفل ذلك والمعركة على أبوابها، فكان من الأجدى إذن أن يخرج على رأس جنده. ومع ذلك فقد ارتفعت أصوات تطلب من أبي بكر في قتال عبس وذبيان أن يبقى بالمدينة [1]. فضلاً

---

(١) الطبري ٣ – ٢٤٧ عن السري عن شعيب عن سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد. هذا ونود الاشارة هنا إلى ان سلسلة رواة «السري عن شعيب عن سيف» سوف تتكرر كثيراً، لذلك آثرنا أن نرمز لها بالحروف س ش س على النهج الذي أخذنا به في «الطريق إلى المدائن».

عن ذلك فقد كانت جميع هذه المعارك قصيرة الأجل لا تمتد كثيراً مع الأيام، أما الفتوح فإنها تمتد سنة بعد أخرى مما لا يتيسر معه الاستغناء عن شخص الخليفة بعيداً عن تصريف كافة شؤون الدولة . الصالح الحربي إذاً هو الذي حدا بالحاكم أن يخرج على رأس جيشه . والصالح الحربي هنا هو الذي يطلب من عمر أن يبقى بالمدينة . وبهذا أخذ أبو بكر إذ لم يخرج في سائر حروب الردة التي ابتعدت عن المدينة ولا في الفتوح .

قائد الحملة

انتهى عمر إلى أن يبقى بالمدينة وأن يبعث قائداً سواه . وبقي عليه أن يختار ذلك القائد ، فعرض على علي بن أبي طالب أن يقود [1] الحملة ولكن علياً أبى . وراح عمر يتداول الأمر مع مستشاريه ويقول لهم :

« أشيروا عليّ برجل » .

وفيما هم يرتادون الرجال إذ جاءه كتاب من سعد بن أبي وقاص ، وكان أبو بكر قد استعمله على صدقات هوازن بنجد وأقره عمر وكتب اليه فيمن كتب اليهم من العمال حين أعلن النفير أن ينتخب أهل الخيل والسلاح ممن له رأي ونجدة . فرجع اليه جواب سعد بمن اجتمع له من الناس ، وقال فيه :

« إني قد انتخبت لك ألف فارس مُؤدٍ[2] كلهم له نجدة ورأي وصاحب حيطة [احتياط وحذر، لا يؤخذ على غرة] يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم . إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم فشأنك بهم » .

قال عبد الرحمن بن عوف : « وجدته » .

قال عمر : « فمن ؟ » .

قالوا : « الأسد عادياً » .

قال : « من ؟ » .

---

(١) فتوح البلدان ٢٣٢ .

(٢) مؤد معجز — آده أعجزه . ومنها « ولا يؤوده حفظهما » .

قال عبد الرحمن : « الأسد في براثنه [١] سعد بن مالك » .

وانتهى عمر الى قولهم [٢] ، فكان وصول خطاب سعد في هـذا الوقت هو الذي وضع اسمه أمام أمير المؤمنين ومستشاريه وذكـّرهم به .

سعد بن ابي وقاص

هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم وفاة . وأحـد الستة الذين جعل عمر الخلافة من بعده شورى بينهم لأن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راض . أول من رمى من المسلمين بسهم في سبيل الله ، وأحـد الفرسان الشجعان من قريش الذين كانوا يحرسون رسول الله في مغازيه .

هو بطل القادسية الذي فتح العراق وبعضاً من أرض فارس ، وهو الذي كوّف الكوفة وأنشأ بها أول قاعدة حربية كبرى للمسلمين ، فكانت بعد ذلك حاضرة العلوم والمعارف الاسلامية تشعها الى سائر بقاع الأرض ، وإليها ينتسب الخط العربي الكوفي المشهور بجماله وزخرفه وسحنته العربية الصرفة . كان سعد قصير القامة ممتلىء الجسم قوى البنية .

كان سعد مجاب الدعوة مشهوراً بذلك،يخاف الناس دعوته ويرجونها لاشتهار إجابتها عندهم . كان من أهدأ القادة المشهورين أعصاباً وأكثرهم رزانة وأبعدهم عن الخطأ في الحرب . كما كان من الرماة المسددين الذين لا يطيش لهم سهم. وكان من أحدّ الناس بصراً ، رأى ذات يوم شيئاً يتحرك عن بعد فقال لمن معه : « ترون شيئاً ؟ »

---

(١) البراثن للسباع والطير كالأصابع للانسان ، والمخلب ظفر البرثن . (مختار الصحاح) .

(٢) الطبري ٣ - ٤٨٢ س ش س عن محمد بن اسحق عن صالح بن كيسان عن عمر بن عبد العزيز . و س ش س عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد .
ابن الأثير ٢ - ١٧٢ .

قالوا : « نرى شيئاً كالطائر » .

قال : « أرى راكباً على بعير » .

فكان كما قال وجاء عم سعد بعد قليل على بختي (بعير) .

وكان سعد طيب النفس نقي السريرة . قال : « لا أجد في نفسي سوءاً لأحد من المسلمين ولا أنوي له شراً ولا أقوله » .

وكان رسول الله ﷺ يفاخر به ويقول :

« هذا خالي فليرني امرؤ خاله » .

وسعد قرشي ، وُلد ونشأ في مكة . وهو ابن أبي وقاص [واسمه مالك] ابن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب .

إسلامه

كان سعد قد بلغ السابعة عشر أو التاسعة عشر حين دعاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه [٣٨ سنة] إلى الإسلام وعرضه عليه . وحين أسلم سعد لم يكن سبقه إلى الإسلام سوى أبو بكر وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة وخديجة بنت خويلد ، وقيل إنه كان سابع سبعة في إسلامه بعد ستة . كان سعد حينذاك يشتغل ببري النبال بمكة وقد انعكست عليه آثار مهنته فكان من أشد الناس إجادة للرمي . وقد لا يكون من قبيل المصادفة أن يروي سعد عن النبي ﷺ قوله : « عليكم بالرمي فإنه من خير لهوكم » . [الطبراني في الأوسط — البزار] .

وكان أخوه عامر ممن أسلم وهاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة حين اشتد البلاء بالمسلمين في مكة ، في حين آثر سعد أن يبقى مع رسول الله ﷺ ومن بقي معه يحتمل الاضطهاد والعذاب . وقررت قريش مقاطعة المسلمين واعتقالهم ، فحصروهم في شعب أبي طالب من شعاب مكة ، لا يبيعونهم ولا يشترون منهم ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ويمنعونهم من الخروج من الشعب كما يمنعون الناس من الدخول اليهم ، وكانوا رجالاً ونساءً وأطفالاً حتى نفد زادهم وسعد

معهم يعضّه الجوع بنابه كما يعضّهم ، ومكثوا على ذلك ثلاثين شهراً حتى أكلوا أوراق الشجر .

هجرته وجهاده

وراح المسلمون يهاجرون فخرج سعد مهاجراً من مكة إلى المدينــة مع بلال وعمار بن ياسر . ومن يثرب بعث النبي ﷺ سرية عليها عبيــدة بن الحارث في ثمانين راكباً من المهاجرين ، فكان فيهم سعد وعتبة بن غزوان والمقداد بن عمرو ، خرجوا إلى ماء بالحجاز حتى إذا رأوا جمعاً من قريش رمــاهم سعد بسهم فكان ذلك أول سهم أطلق في الإسلام .

وشهد سعد غزوة بدر مع المسلمين واستطاع يومها أن يأسر اثنين من قريش. ثم دار العام وكانت غزوة أُحد فكان سعد من الذين ثبتوا في بسالة يدفع عن رسول الله ﷺ حين دارت الدائرة على المسلمين وجعــل يمطر المشركين بسهامه والنبي يقول له :

« إرمِ أيها الفتى الحزور فداك أبي وأمي » .

وُكسرت قوس سعد من طول ما رمى بهــا فأعطاه النبي قوساً أخرى ودعا له فقال : « اللهم سدِّدْ رميَته وأجِبْ دعوته » .

وبلغ ما أطلقه سعد يوم أُحد ألف سهم .

وقام اليهود بتكتيل قريش وسائر القبائل ضد المسلمين ، وزحفت هــذه الأحزاب تريد المدينة بقوة تزيد كثيراً عمــا يستطيع المسلمون مواجهته ، فأشار سلمان الفارسي بتحصين المدينــة بخندق ، فحفره المسلمون في الجانب المكشوف منها وسعد معهم . ويومهــا تنبأً رسول الله بفتح الحيرة والمدائن وقصور الروم وقصور صنعاء . لم يكن أحد يومذاك يدري أن قصور الحيرة ومدائن كسرى سوف يفتحها بعد سنوات قليلة رجال ممن يهاجم المدينة وممن يدافعون عنها الآن على السواء ، يقودهم واحد منهم يضرب بالمعول ويحمل التراب على كتفه اسمه سعد بن أبي وقاص . وبلغت الأحزاب المدينة وحاولت اقتحام الخندق فعجزت

عن ذلك ووقفت تجـــاهه تحاصره . وكان سعد وبعض المسلمين يخرجون مراراً للمبــارزة حتى يئست القبــائل وتعبت من برد الشتاء فانفضّت عن مقصدها وانصرفت .

وشهد سعد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . فلمـــا توفي الرسول ووُلـّي أبو بكر الخلافة وارتدّ من العرب مَن ارتدّ ووقف الصدّيق بإيمانه الذي يعدل إيمان أمة يتمسك بكل ما جاء به الاسلام، كان سعد من كبار الصحابة الأبطال الذين اعتمد عليهم في حراسة المدينة مع علي وطلحة وسائر أصحابهم. فلما كانت الليلة الثالثة تجمعت بعض القبائل في شمال المدينة تريد مهاجمتها . ورأى أبو بكر أن يباغتها فوراً وفي نفس الليلة مستخدماً مبدأ أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، فتحرك مع الصحابة وسعد معهم فهزموا تلك الجموع وفرّقوا تجمّعهـا . وقضى أبو بكر على الردّة بعد حروب طاحنة ثم استعمل سعداً على صدقات هوازن ، واستعمله عمر عليها أيضاً بعد أبي بكر .

سعد بين القادة

والآن تحتاج هذه الجيوش لفتح العراق إلى قائد صحابي جليل يكون وهو يقودها بديلاً عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فاختير سعد بن أبي وقاص. قد نرى منهجه في الحرب والقتـــال خلاف ما عهدنا من خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة ، وفي كل خير ، تماماً كما نلمس الفوارق الشخصية بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ولا عجب في ذلك فليس للإسلام قالب واحد جامد في شؤون الدنيا يصب فيه الناس جميعاً فيخرجوا منه صورة واحدة متكررة، وإن علماء النفس اليوم يقررون أن كل شخص فرد مفرد في ذاته ، وحيد نسجه وأن من المحال أن يتكرر الشخص بكافة جملته وتفصيله تماماً، كما وأنه من المحال أن تكرر البصمات فلا بد من فوارق. هذا خلق الله وهكذا إعجازه فيه وما كان لدين الله أن يناقضه، وحسبه ما يدخله على الفرد من صقل كما يصقل النحّات الحجر، فإذا هو من آيات الجمال رخاماً كان أو جرانيتاً أو مرمراً أو بازلتاً . وسعد نموذج من نماذج القائد

المسلم ، وسوف نلمس تلك الفوارق مع الصفحات التالية ... صفحات تاريخنا الوضاء .

كان من دأب عمر أن يسأل من يفد عليه عمن وراءه . فجاء عمرو [١] بن معدي كرب يوماً من العراق فسأله عمر عن سعد فقال عمرو :

« متواضع في خبائه ، عربي في نمرته [٢] ، أسد في تاموره [٣] ، يعدل في القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد في السرية ، يعطف علينا عطف الأم البرة ، وينقل الينا حقنا نقل الذرة » [٤] .

وقدم جرير بن عبد الله البجلي فسأله : « كيف تركت سعداً في ولايته » .

قال جرير [٥] : « أكرم الناس مقدرة وأحسنهم معذرة واقلهم قسوة ، وهو لهم كالأم البرة يجمع لهم كما تجمع الذرة مع أنه ميمون الأثر مرزوق الظفر ، أشد الناس عند البأس وأحب قريش إلى الناس » .

قال : « فأخبرني عن حال الناس » .

قال : « هم كسهام الجعبة منهم القائم الرائش ومنهم العصل الطائش ، وابن وقاص ثقافها ، يغمز عصلها ويقيم ميلها والله أعلم بالسرائر يا عمر » [٦] .

وكان سعد يهتم بقيافته يلبس أفخر الثياب ذواقة في ملبسه ومأكله ومشربه ، يخضب شعره بالسواد ويلبس في إصبعه خاتماً ، يحب الطيب . وكان راجح العقل بعيد النظر متين الخلق عفّ اليد واللسان برّاً بأهله وفياً لأصحابه ، أحب الناس للناس وأرفقهم بهم [٧] ، وإن كانت فيه حدة ويغضب لله . وكان سعد أحدّ

---

(١) أسد الغابة .
(٢) النمرة كساء في خطوط بيض وسود تلبسه العرب .
(٣) عرينه .
(٤) الذرة أصغر النمل وجمعه ذر .
(٥) الاصابة – قادة الفتح العربي للعراق ٢٤٦ .
(٦) عصل الشيء اعوج في صلابة ، وعصل السهم التوى في الرمي وأبطأ (المنجد) .
(٧) ابن سعد .

الناس بصراً ، أسمر أفطس قصيراً دحداحاً غليظاً ذا هامة [كبير الرأس] ، غليظ الأصابع أشعر . تزوج اثنتي عشرة امرأة خلال حياته كان منهن بعض السراري ، أعقب منهن سبعة عشر ذكراً وثماني عشرة انثى ، وترك يوم وفاته ربع مليون من الدراهم . [حوالي ٢١٨٠٠ جنيهاً مصرياً] . لقد روى سعد أحاديثاً عن رسول الله ﷺ كانت حياته صورة منها ، قال: « أربع من السعادة المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء : الجار السوء ، والمرأة السوء ، والمركب السوء ، والمسكن الضيق »[١] . وقال: « إن الله تعالى طيب يحب الطيِّب نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود [٢] » . وقال : « إن الله تعالى يحب العبد التقي الغني الخفي » [٣] .

موعظة

أرسل عمر إلى سعد فقدم عليه فأمّره على حرب العراق وأوصاه فقال : « يا سعد بني وهيب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن . فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر . هذه عظتي إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين » .

ووصية

ولما حان الرحيل وأراد عمر أن يبعثه دعاه وقال له :

---

(١) ابن حبان في صحيحه .

(٢) الترمذي .

(٣) مسلم ، وأحمد في مسنده .

« إني قـد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يُخلص منه إلا الحق فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به . واعلم أن لكل عادة عتاداً ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله . واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين ، في طاعته واجتناب معصيته . وإنمـا أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة .

وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس ، فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبداً حبّبه وإذا أبغض عبداً بغّضه فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك » .

رحيل الحملة

١٣ شعبان ١٤ هـ – أول اكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٥ م

التجمع

بعث عمر سعداً فيمن اجتمع اليه بالمدينة من نفير المسلمين ، فخرج من صرار قاصداً العراق في أربعة آلاف .

١٠٠٠ من قيس عيلان . عليهم بشر بن عبد الله الهلالي .

٣٠٠٠ ممن قدم عليه من اليمن والسَّرَاة . وعلى أهل السروات حميضة بن النعمان بن حميضة البارقي ، وهم بارق وألمع وغامد وسائر إخوتهم ، كانوا سبعمائة من أهل السراة وألفين وثلاثمائة من أهل اليمن . منهم النخع بن عمر وعليهم أرطاة بن كعب النخعي ، فيهم ستمائة من حضرموت والصَّدِف عليهم شداد بن ضمعج ، وألف وثلاثمائة من مِذْحَج على ثلاثة رؤساء ، عمرو بن معدي كرب على مُنَبِّه ، وأبو سبرة بن ذُوَيْب على جعفى ومن في حلف جعفى من إخوة جَزْءٍ وزبيد وأنس الله ومن كان مثلهم ، ويزيد بن الحارث الصُّدَائي على صُداء وَجَنْب ومُسْلِيَة [١] .

---

(١) الطبري ٣ / ٤٨٤ س ش س عن محمد وطلحة والمستنير وحنش النخعي .
« ٣ / ٤٨٥ و س ش س عن عبيدة عن ابراهيم .

سوف تكون لمعرفة القبائل أهميته في متابعة تحركات هذه الحملة ، ونوصي بالرجوع الى الباب الثاني من الجزء الأول من كتاب « الطريق الى المدائن » « العرب وشبه جزيرتهم » .

حوار مع عمر

وأتاهم عمر في معسكرهم فقال :

« إن الشرف فيكم يا معشر النخع لمتربّع[1] ، سيروا مع سعد[2] إلى إخوانكم من أهل العراق » .

وأرادهم جميعاً أن يتجهوا إلى العراق فأبوا إلا الشام. وأصرّ عمر على ذهابهم إلى العراق، ثم قسمهم فأمضى نصفهم نحو العراق فكانوا أربعة آلاف، وأمضى النصف الثاني إلى الشام . هـذا وقد ازداد عدد النخع حتى بلغ ألفين وخمسمائة عليهم أرطاة[3] بن كعب بن شراحيل النخعي .

عن جرير بن عبد الله قال : « كان أهل اليمن ينزعون إلى الشام وكانت مضر تنزع إلى العراق » ، فقـال عمر : « أرحامكم أرسخ من أرحامنا ! ما بال مضر لا تذكر أسلافها من أهل الشام » [4] .

وقال محمـد بن حذيفة بن اليمان : « لم يكن أحد من العرب أجرأ على فارس من ربيعة ، فكان المسلمون يسمونهم ربيعة الأسد وربيعـة الفُرْس ، وكانت العرب في جاهليتها تسمي فارس الأسد والروم الأسد » [5] .

---

(١) الربع : النماء والزيادة ، فيكون متربع بمعنى زائد . وفي الإصابة : « متربعاً » بمعنى ساكن فيكم من الربع وهي الدار .

(٢) الطبري ٣ / ٤٨٤ س ش س عن حنش بن الحارث النخعي عن أبيه . الإصابة ٧٢ — مادة حنش .

(٣) كان أرطاة قد وفد على النبي مع أخيه قيس بن كعب وكانا من أجمل أهل زمانهما وأنطقه، فدعاهما الى الاسلام فأسلما ، فدعا لهما بخير وكتب لأرطاة كتاباً وعقد له لواء كان هو اللواء الذي شهدوا به القادسية بعد ذلك .

(٤) الطبري ٣/٤٨٧ س ش س عن عبد الملك بن عمير عن زياد عن جرير .

(٥) « « « « « عن أبي سعد بن المرزبان عمن حدثه عن محمد بن حذيفة ابن اليمان .

وشيعهم عمر فمشى معهم من صرار الى الأعوص ثم قام فيهم خطيباً فقال :

« إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال وصرف لكم القول ليحيي بها القلوب فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله . من علم شيئاً فلينتفع به .

وإن للعدل أمارات وتباشير ،فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهين واللين وأما التباشير فالرحمة .

وقد جعل الله لكل أمر باباً ، ويسّر لكل باب مفتاحاً . فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد والاعتبار . ذكر الموت بتذكر الأموات والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قِبَله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع في ذلك أحداً ، واكتف بما يكفيك من الكفاف فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء .

إني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد . وإن الله قد ألزمني رفع الدعاء عنه ، فانهوا شكاتكم الينا . فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غير مُتَعْتَع » (غير منقوص) .

ثم أمر سعداً بالسير وقال له :

« إذا انتهيت إلى زرود فانزل بها وتفرقوا فيما حولها ، واندب من حولك منهم ، وانتخب أهل النجدة والرأي والقوة والعدة [١] » .

ووقف عمر والمسلمون يخرجون من الأعوص يمرون من أمامه ،فمرت السكون أول كِنْدَة مع الحصين بن نمير السكوني ومعاوية بن خديج في أربعمائة فاستعرضهم فإذا فيهم فتية دُلم سِباط (طوال) مع معاوية بن خديج فظل يعرض عنهم حتى قيل له : « ما لك ولهؤلاء ؟ » قال : « إني عنهم لمتردد ، وما مرّ بي قوم من العرب أكره إليّ منهم » . ثم أمضاهم فكان كثيراً ما يتذكرهم بعد ذلك

---

(١) الطبري ٣/٤٨٥ س ش س عن محمد وطلحة وسهل عن القاسم .

بالكراهية ويتعجب النــاس من رأي عمر . فكان منهم سودان بن حمران ممن قتل عثمان بن عفان، وكان منهم حليفهم خالد بن مُلْجِم قتل علي بن أبي طالب، وكان منهم معاوية بن خديج وهو الذي نهض في قوم منهم زمن الفتنة الكبرى يتبع قتلة عثمان يقتلهم وكان منهم قوم يَقْرُون قتلة[1] عثمان، وكان منهم حصين ابن نمير السكوني مع جند الشام الذين حاصروا عبد الله بن الزبير بن العوام عــام ٦٤ هـ. بالكعبة فأحرقوها .

المسير

وسار سعد بهذا الجيش على طريق المدينة ـ الحيرة مجتازاً أرض نجد حتى نزل زرود على مسافة ٥٨٥ كيلو متر من المدينــة ، وهي أرض منبسطة رمالها حمراء غير متماسكة إذ تقع على الامتداد الطبيعي للنفوذ ، وسميت بذلك لأنهـا تزدرد الماء ، وبها آبار ماء ليست بالعذبة ، وهي على مسيرة يوم من فيد [2] . وتذكر رواية [3] أن سعداً نزل زرود في أول الشتاء ، وتقديرنا أنه نزلها في حوالي ٢٧ شعبان ١٤ هـ. ١٥ اكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٥ م. على أساس سوف نذكره في فصل تالٍ إن شاء الله .

حشود أخر

وبعد خروج سعد جاءت إمدادات أخرى ، فأمده عمر بألفي يماني وألفي نجدي مؤدٍ من غطفان وسائر قيس . فقدم سعد زرود بمن معه ، وقدمت من ورائه هذه الجموع ففرقها فيما حول زرود من مياه بني تميم وأسد . وفي انتظار أمر عمر بالتقدم ووفود مزيد من التعزيزات راح سعد يحشد ممن حوله ، فجمع ثلاثة آلاف من تميم وألفاً من الرباب وثلاثة آلاف من أسد . ولم تكن زرود

---

(١) الطبري ٣ / ٤٨٧ س ش س عن محمد بن سوقة عن رجل .

(٢) ابن بطوطة ١٣٤ – وقدامة بن جعفر ١٨٦ وقال زرود هي الخزيمية .

(٣) الطبري ٣ / ٤٨٦ س ش س عن محمد وطلحة عن ماهان وزياد بإسناده .

لتحتملهم بالإضافة إلى من فيهـــا ، فأمرهم سعد أن ينزلوا حدود أرضهم بين الحَـزْن[1] والبسيطة ، فأقاموا هنالك بين سعد بن أبي وقاص والمثنى بن حارثة. وفيما يذكر البلاذري أن سعداً أقام بالثعلبية [والثعلبية قريبة من زرود ، تبعد عنها ٥٩ كيلو متراً] ثلاثة أشهر حتى لحق [٢] به أصحابه .

وبذل عمر في الحشد لهذه الحرب كل ما استطاع من جهد ، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا شرف في قومه ولا ذا سطوة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رمى به الفرس ، فرماهم بوجوه الناس ، وغررهم ودررهم وهو يقول : « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » [٣] .

وجاء المسلمون بأثقالهم ، جرأهم على ذلك توطئة الحملات السابقة من خالد بن الوليد والمثنى [٤] بن حارثة ، فلاقوا بعد ذلك بأساً شديداً .

كان المثنى حينذاك في شراف ينتظر قدوم سعد . وكان معه ستة آلاف من بكر بن وائل وألفان من سائر ربيعة وألفان من بجيلة عليهم جرير بن عبد الله ، وألفان من قضاعة وطيء ممن انضم اليه . على طيء عدي بن حاتم وعلى قضاعة عمرو بن وبرة .

في ذمة الله المثنى بن حارثة

وفي موقف الترقب هذا ، سعد ينتظر أن يقدم عليه المثنى أو أن يأتي أمر

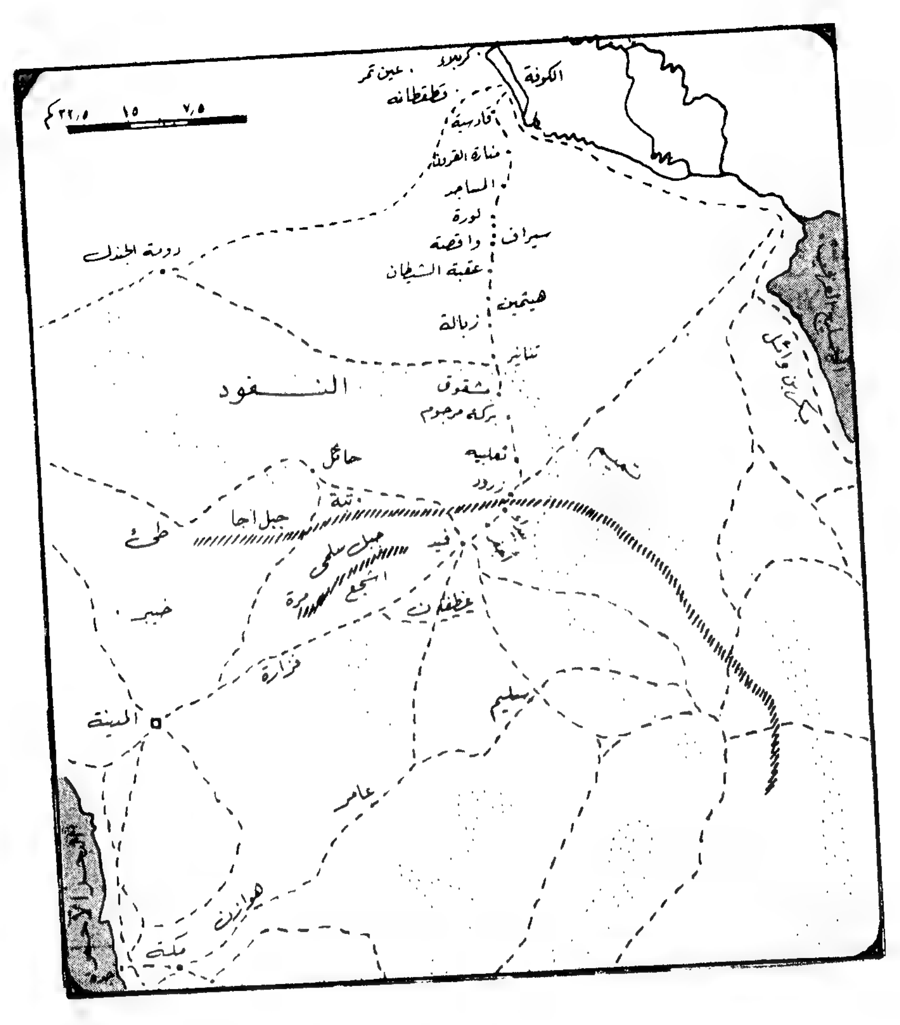
---

(١) الحزن بين نجـــد والعراق ، موضع مربع في بلاد بني أسد تربع فيه العرب لكثرة رياضه . وحزن يربوع قرب فيد من جهة الكوفة وهو من أجل مرابع العرب فيه قيعان ، وهي أطيب البادية منظراً وأجلى موضع في طريق البصرة وهو مائل من طريق الكوفة إلى مكة (معجم البلدان) . والبسيطة موضع بين الكوفة وحزن بني يربوع وقيل بين العذيب والقاع (وهي مسافة ٢٤٥ كيلومتراً) وهي أرض مستوية ليس بها ماء (معجم البلدان) .

(٢) فتوح البلدان ٣٣ ٦ .

(٣) الطبري ٤٨٧/٣ س ش س عن طلحة عن ماهان .
ابن الأثير ١٧٣/٢ .

(٤) الطبري ٣ / ٥٨١ س ش س عن عطية وهو ابن الحارث عمن أدرك ذلك .



خريطة رقم (١) منطقة التحركات

عمر بالتقدم ، والمثنى في سيراف ينتظر قدوم سعد ، مرض المثنى مرضاً خطيراً
يقول الرواة إن الجراحة التي جرحها يوم الجسر انتقضت عليه ، ولكن أطباء
اليوم يرفضون ذلك التشخيص وقد مضى على يوم الجسر عام كامل . واستشعر

المثنى دنو أجله واشتد [1] وجعه فحمل إلى قومه واستخلف على من معه بشير ابن الخصاصية ، وكان معه وجوه أهل العراق ، ومع سعد وفود أهل العراق فيهم فرات بن حيان وعتيبة بن النهاس العجليان أعادهما عمر معه الى العراق [2] [وكان قد استدعاهما بعد غارة صفين للتحقيق معهما] . وطلب المثنى أخاه المعنى وأفضى اليه بوصيته وأمره أن يعجل بها إلى سعد. ثم أسلم المثنى الروح الى بارئها فانطفأ السراج المضيء وأفَلَت هذه الشمس المشرقة التي ملأت فتوح العراق نوراً ودفئاً .

ولم يستطع المعنى أن يخرج بهذه الوصية من فوره الى سعد، إذ أن آزاذمرد ابن آزاذبه بعث عميلاً من عملائه العرب يدعى قابوس بن قابوس بن المنذر الى القادسية ، وقال له : « ادع العرب وأنت على من أجابك وكن كما كان أبوك » . ونزل قابوس القادسية وكاتب العرب من بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان بن المنذر يكاتبهم به من المقاربة والوعيد والترغيب والترهيب . وعلم المعنى بما يجري وقد فرغ من توسيد أخيه العظيم المثنى في لحده، فخرج ليلاً من ذي قار مع بعض فرسانه إلى القادسية حيث بيَّت قابوس ومن معه فكبسهم وفرغ منهم ثم عاد الى ذي قار حيث أخذ معه سلمى بنت خصفة التيمية (تيم اللات) أرملة المثنى وخرج الى سعد [3] .

ولد المثنى بالبادية وعاش في البادية ومات في البادية وطواه لحدٌ تحت رمال البادية غازياً للدنيا بسيفه عزوفاً عنها بقلبه . وما أشبه لحظات المثنى الأخيرة باللحظات الأخيرة للخليفة أبي بكر رضي الله عنهما . كلاهما ترك الدنيا وهو يفكر للمسلمين في هذه الفتوح ويوصي لها . توفي أبو بكر وهو يوصي خليفته عمر بندب النـــاس وبعثهم لفتح العراق . وتوفي المثنى وهو يوصي خليفته سعداً

---

(١) فتوح البلدان ٦٣٣ ، وقد أخذنا بروايته هنا . أما الطبري فهو صاحب رواية انتقاض الجراح .

(٢) الطبري ٣/ ٤٨٦ س ش س عن محمد وطلحة وماهان وزياد بإسناده .

(٣) الطبري ٣/ ٤٨٩ س ش س عن أبي عمرو عن أبي عثمان النهدي .

باستراتيجية حملته بناء على تجاربه السابقة وما أفـاد منها . لئن نجحت الحملات السابقة نجاحاً باهراً في انتزاع أرض العراق من بين براثن الأسد إلا أنهـا لم تبلغ اقتحام المدائن وإسقاط الكسروية وهو ما ينبغي أن تخط له الخطط. لقد عرفنا في الكتاب الاول « الطريق الى المدائن » المثنى بن حارثة وعرفنا من هو بطولة وقيادة وعلوّ قدر ، والآن يبعث عمر سعداً قائداً عليه فما يترك ذلك أدنى أثر في نفس الرجل العظيم ، فنراه يجود بنفسه وهو يفكر ويدبر ويوصي سعداً .

لفتة نحو الأبلة

كانت جميع الحملات التي قادها خالد وأبو عبيد والمثنى ثم سعد تستهدف دخول المدائن عن طريق اختراق أرض العراق من خلال اقليم الحيرة . فالحيرة كانت دائماً هي القـــاعدة المتقدمة للوثوب الى المدائن . ومع ذلك لم يغب عن الخليفتين أبي بكر وعمر ولا عن قادة جيوشهما ما لمنطقة الأبلة وشط العرب من أهمية وتأثير على محور تقدمهم ، فنجد أبا بكر يأمر خالداً أن يبدأ غزو العراق من الأبلة ، ثم نجد خالداً في تقدمه لا يُغفل أمر ذلك الثغر فكان يترك فيه حامية مناسبة لحفظ أمن جيشه من تلك التخوم ولمراقبة أي تحركات فارسيه بها . ثم نجد المثنى حين انسحب من العراق ونزل على حدود الصحراء قد نشر قواته ما بين القطقطانة شمالاً الى غضي بحيال البصرة جنوباً ، فكان بهـــا جرير بن عبد الله البجلي .

ولذلك كتب عمر الى سعد مع خروجه من زرود الى شراف [1] « ان ابعث

---

(١) في المصادر أنه نزل بشراف ولكن موقع شراف أسفل من الكوفة بثلاثة أميال فلا يبلغها سعد إلا اذا تجاوز القادسية بنحو من ثلاثين كيلومتراً ، .وهو ما يستحيل تصوره إذ من المؤكد أنه نزل منزلاً لم يبلغ به القادسية . ونعتقد أن الموقع المقصود هو سيراف وليس « شراف» فهو لفظ قريب يجوز احتمال التصحيف فيه أو الالتباس على الراوي أو الكاتب أو الخطأ المطبعي. أما سيراف فهي على ثلاثة أميال من واقصة على الطريق من زرود إلى القادسية ، وهي التي سبق أن نزل بها المثنى مع قومه من بكر بن وائل وبها آثار كثيرة وهي موقع متوسط بين غضي والقطقطانة إذا نزله المثنى من قبل أو نزله سعد الآن . فهو مكان معقول من حيث موقعه بخلاف شراف . ونرى أن كل ذكر لشراف في هذا الموضع بالذات إنما ينصرف إلى ما ذكرنا. (انظر الخريطة ص ٢٨)

الى فرج الهند رجلا ترضاه يكون بحياله ويكون ردءاً لك من شيء إن أتاك من تلك التخوم » .

فبعث سعد المغيرة بن شعبة في خمسمائة من الفرسان فاتخذ موقعه في ُغضَيّ بالصحراء تجاه موقع البصرة حيث كان جرير ما زال هناك ومعه بجيلة ، ولكن جريراً سوف ينضم إلى قوات سعد المتقدمة بعـــد قليل حيث تتجمع القوات للمعركة المرتقبة . كان خروج سعد من زرود في حوالي ٣٠ ذي القعدة ١٤ هـ. ١٤ يناير (كانون الثاني) ٦٣٦ م . ونزل بشراف في حوالي ٨ ذي الحجة ١٤ هـ. ٢٢ يناير (كانون الثاني) ٦٣٦ م . ثم كتب إلى عمر بمنزله ومنازل الناس فيما بين غضي إلى القطقطانة .

والآن يريد عمر لهذا الجيش الذي اجتمع له من الحشد ما استطاع أن يتقدم الى القادسية على نظام وتعبئة تضم جميع من به حتى المغيرة بن شعبة وخيله. فماذا عن ثغر الأبلة ؟ لقد كان قطبة بن قتادة السدوسي يغير بتلك الناحية فكتب الى عمر يعلمه مكانه وأنه لو كان معه عـــدد يسير ظفر بمن قبله من العجم فنفاهم من بلادهم . وكان الفرس بتلك الناحية ما زالوا يهابونه منذ وقعـة المثنى بنهر المرأة ونكاية خالد بهم في المذار .

فأجابه عمر : « إنه أتاني كتابك أنك تغير على من قبلك من الأعاجم وقد أصبتَ ووُفّقت . أقم مكانك واحذر على من معك من أصحابك حتى يأتيك أمري » .

ثم وجّه ُشرَيْح بن عامر أحد بني سعد بن بكر إلى أرض البصرة وقال له : « كن ردءاً للمسلمين بهذه الجيزة » .

وأقبل شريح إلى البصرة فترك بها قطبة ومضى إلى الأهواز من أرض إيران ، وهو توغل أكثر مما كانت تسمح به قوته ، حتى انتهى الى مكان اسمه دارس فيه قوات للفرس ، فدارت بينه وبينهم معركة انتصر الفرس عليه فيها وقتلوه .

وكتب عمر الى سعد :

« أما بعد ، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى العدة في الحرب .

وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم . فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا .

واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله .

ولا تقولوا إن عدونا شر منا ولن يُسلط علينا وإن أسأنا ـ فرُب قوم سُلّط عليهم شر منهم كما سلط على بني اسرائيل لما عملوا بمساخط الله ـ كفرة المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا .

واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكم .

وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصّر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم جام الأنفس والكراع .

وأقم بمن معك كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يجمعون فيها أنفسهم ويرمّون أسلحتهم وأمتعتهم .

ونحِّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه .

ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها

كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم ففوا لهم ، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح .

وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذْكِ العيون بينك وبينهم ولا يَخْفَ عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه والغاش عين عليك وليس عيناً لك .

وليكن منك عند دنوك من أرض العدو ، أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم ، وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول من تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد .

ولا تخص أحداً بهوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك .

ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية .

فإذا عانيت العدو فاضمم اليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع اليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنيعته بك .

ثم أذكِ حراسك على عسكرك وتحفظ من البيات جهدك . ولا تؤتى بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقه لترهب بذلك عدوك وعدو الله . والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم والله المستعان [1] » .

---

(١) الفاروق القائد ١٥٥ عن نهاية الأرب ، نقلا عن عمر بن الخطاب لمحمد صبيح .

تنظيم الحملة

وكتب عمر إلى سعد :

« إذا جاءك كتابي هذا فعشّر الناس (اجعلهم عشرة أعشار) .

وعَرّفْ عليهم (اجعل عليهم عرفاء) .

وأمّرْ على أجنادهم (عيّنْ أمراء الجند) .

وعَبِّهِم (اجعلهم على تعبئة) .

ومُرْ رؤساء المسلمين فليشهدوا (يحضروا) وقدّرهم وهم شهود (ليعرف كل منهم قدره وقدر مسؤوليته برئاسته على من معه) .

ثم وجههم إلى أصحابهم وواعِدهم القادسية .

واضمم اليك المغيرة بن شعبة في خيله .

واكتب إليّ بالذي يستقر عليه أمرهم » .

ويحسن بنا قبل أن نسير مع الحملة أن نقوم بعملية جرد لهذه القوات تساعدنا على متابعتها وتفهّم تحركاتها حين نستطرد مع الأحداث ، وأن نعدّ قائمة بها من واقع ما سبق ذكره في هذا الجزء والجزء الثالث من كتاب (الطريق إلى المدائن).

من ولد قحطان

٦٠٠ حضرموت والصَّدِف . عليهم شداد بن ضمعج . (من السكون من كندة) .

١٣٠٠	مُنَبِّه . عليهم عمرو بن معدي كرب . (من مذحج) . جعفى وحلفاؤهم من إخوة جَزْءٍ وزبيد وأنس الله ومن لفهم. (من مذحج) . عليهم أبو سبرة بن ذؤيب . صُداء وجَنْب ومُسْلِيَة . (من عريب بن زيد بن كهلان) . عليهم يزيد بن الحارث الصُّدائي .
٢٥٠٠	النخع بن عمرو (من مذحج) .
٧٠٠	أهل السروات — بارق وألمع وغامد وسائر إخوتهم (من الأزد). عليهم حميضة بن النعمان بن حميضة البارقي .
	هذه الأعداد من اليمن وفدت إلى صرار ، منها ٤٠٠ من السكون ضمن كندة عليهم معاوية بن خديج في أول بند من البنود أعلاه.
٢٠٠٠	يماني لحقوا بسعد في زرود(ربما كانوا من مراد بن مذحج ومن همدان).
١٧٠٠	من أهل اليمن عليهم أشعث بن قيس الكندي لحقوا بسعد .
٤٠٠	الأزد [١] أكثرهم من بارق — عليهم عرفجة بن هرثمة — كانوا في جيش المثنى .
٢٠٠	خثعم [٢] . عليهم عبد الله بن ذي السهمين كانوا في جيش المثنى .
٢٠٠٠	بجيلة . عليهم جرير بن عبد الله كانوا في جيش المثنى .
١٠٠٠	طيء . عليهم عدي بن حاتم .كلهم فرسان ، لعلهم أكثر من ١٠٠٠ كانوا في جيش المثنى ولحق بهم .
١٠٠٠	قضاعة . عليهم عمرو بن وبرة . لعلهم أقل من ١٠٠٠ .
١٣٤٠٠	

(١) الأزد وكنانة كانوا ٧٠٠ عليهم عرفجة من الأزد — قدرنا الأزد ٤٠٠ وكنانة ٣٠٠ . كنانة من ولد عدنان .

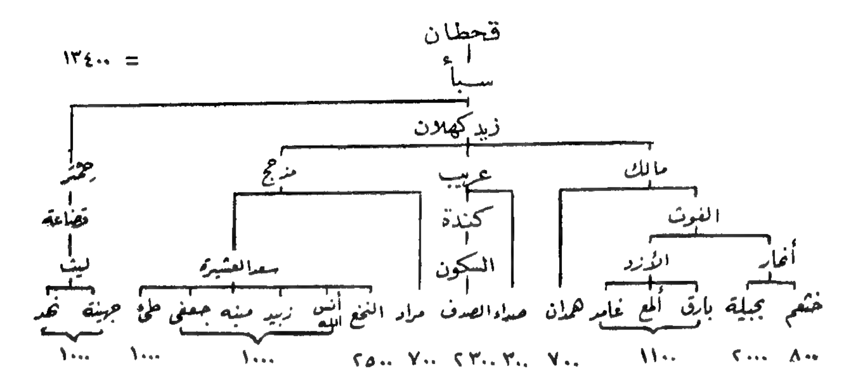
(٢) أنظر الجدول التالي لولد عدنان .

من ولد عدنان

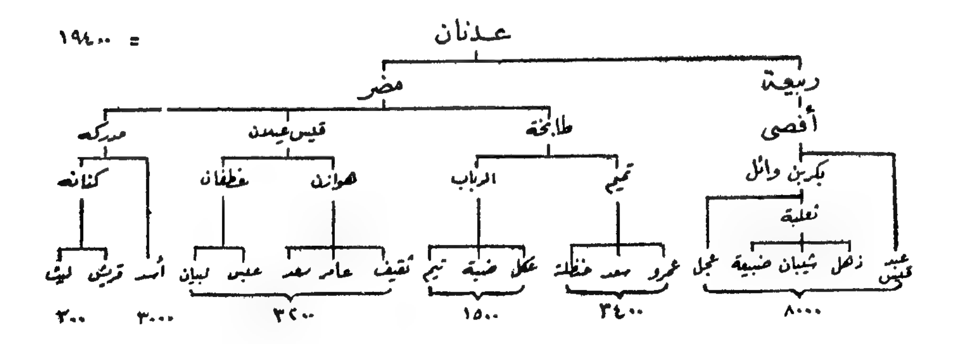
١٠٠٠	قيس عيلان. عليهم بشر بن عبد الله الهلالي. خرجوا مع سعد من صرار.
١٠٠٠	نجدى من غطفان وغيرهم — فرسان . كتب عنهم سعد إلى عمر وهو في هوازن — لحقوا به في زرود .
١٠٠٠	سائر قيس — هم والبند السابق ٢٠٠٠ أمد بهم عمر سعداً فلحقوا به في زرود .
٣٠٠٠	تميم . حشدهم سعد وهو بزرود وأنزلهم على حدود أرضهم بين الحزن والبسيطة .
١٠٠٠	الرباب . حشدهم سعد وهو بزرود وأنزلهم على حدود أرضهم بين الحزن والبسيطة .
٣٠٠٠	أسد . حشدهم سعد وهو بزرود وأنزلهم على حدود أرضهم بين الحزن والبسيطة .
٦٠٠٠	بكر بن وائل — منهم بنو شيبان وبنو ذهل وبنو عجل — من جيش المثنى .
٢٠٠٠	سائر ربيعة — منهم عبد قيس — من جيش المثنى .
	هذه الـ ٨٠٠٠ كانت ٤٠٠٠ في البويب وازدادت ٤٠٠٠ في الحشد الجديد.
١١٠٠	ضبة من الرباب. عليهم عصمة بن عبد الله، وابن الهوبر، والمنذر ابن حسان . في جيش المثنى .
	الرباب (تيم الرباب) عليهم هلال بن علـّفة التيمي. في جيش المثنى.
	حنظلة (من تميم) عليهم شبث بن ربعي . » » » .
	سعد (من تميم) عليهم ابن المثنى الجشمي . » » » .
	عمرو (من تميم) عليهم ربعي بن عامر [1] . » » » .
٣٠٠	كنانة . عليهم غالب بن عبد الله الليثي .
١٩٤٠٠	

(١) ضبة والرباب وحنظلة وسعد وعمرو وخثعم ١٣٠٠ — قدرنا خثعم ٢٠٠ ، وخثعم من قحطان .

فجميع من شهـــد القادسية بضعة وثلاثون ألفاً ، وجميع من قسم عليه فيء القـادسية نحو من ثلاثين ألفـاً[1] . (١٣٤٠٠ + ١٩٤٠٠ = ٣٢٨٠٠) . هـــذا ما أمكننا إحصاؤه وهو في تفاصيله يطابق التفاصيل وفي جملته يطابق المجموع ، فإذا جمعنا أبناء كل قبيلة من هؤلاء وجدناهم كالآتي :



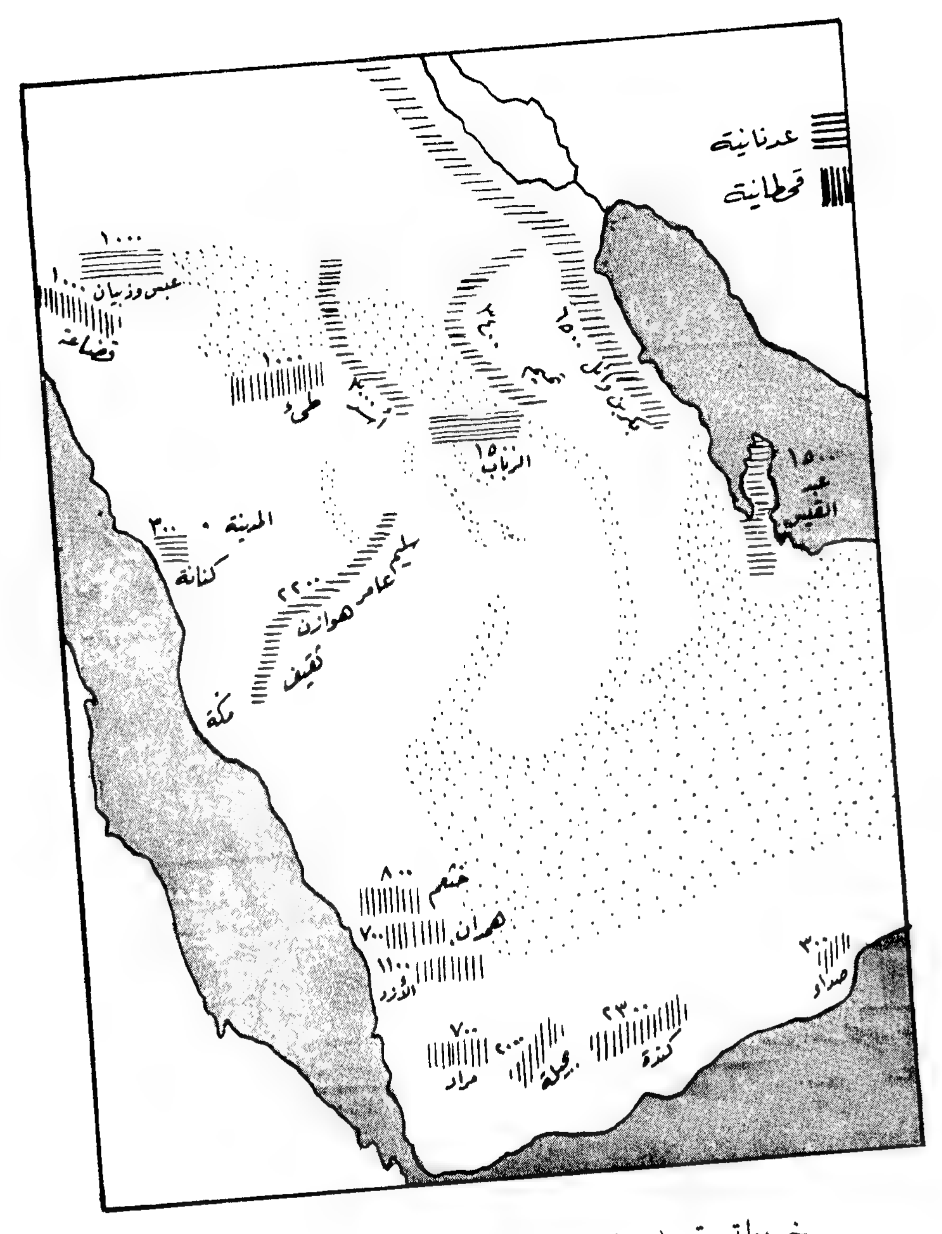
لوحة رقم (١) فروع قحطان



لوحة رقم (٢) فروع عدنان

---

(١) الطبري ٣ / ٤٨٧ س ش س عن محمد بإسناده وزياد عن ماهان .



خريطة رقم (٢) حشود شبه الجزيرة لجيش القادسية

وبعث سعد إلى المغيرة فانضم اليه بجنده ، كما بعث إلى رؤساء القبائل ووجوه الناس فجاؤوه .

فعرّفهم وجعل على كل عشرة عريفاً كما كانت على عهد رسول الله ﷺ ، وكذلك كانت إلى فرض العطاء سنة ١٥ هـ .

وعين أمراء الأجناد .

وأمرّ على الرايات رجالاً من أهل السابقة .

وعَشّر الناس أعشاراً وجعل على كل عُشْر أميراً له وسائل في الإسلام .

فكان كل عشر يزيد عن الثلاثة آلاف قليلاً أو كثيراً ، ومتوسط عدد العشر ٣٢٠٠ .

ثم بعد ذلك عبأ التعبئة .

فجعل على المقدمة زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية [١] .

وجعل على الميمنة عبد الله بن المعتم صحابي رسول الله ﷺ [٢] .

وجعل على الميسرة شرحبيل بن السمط بن شرحبيل الكندي [٣] .

وجاء إذن عمر إلى سعد فبعث زهرة بالمقدمة من شراف إلى العذيب .

وجعل رديفه وخليفته خالد بن عرفطة .

وجعل على الساقة (المؤخرة) عاصم بن عمرو التميمي العَمْري .

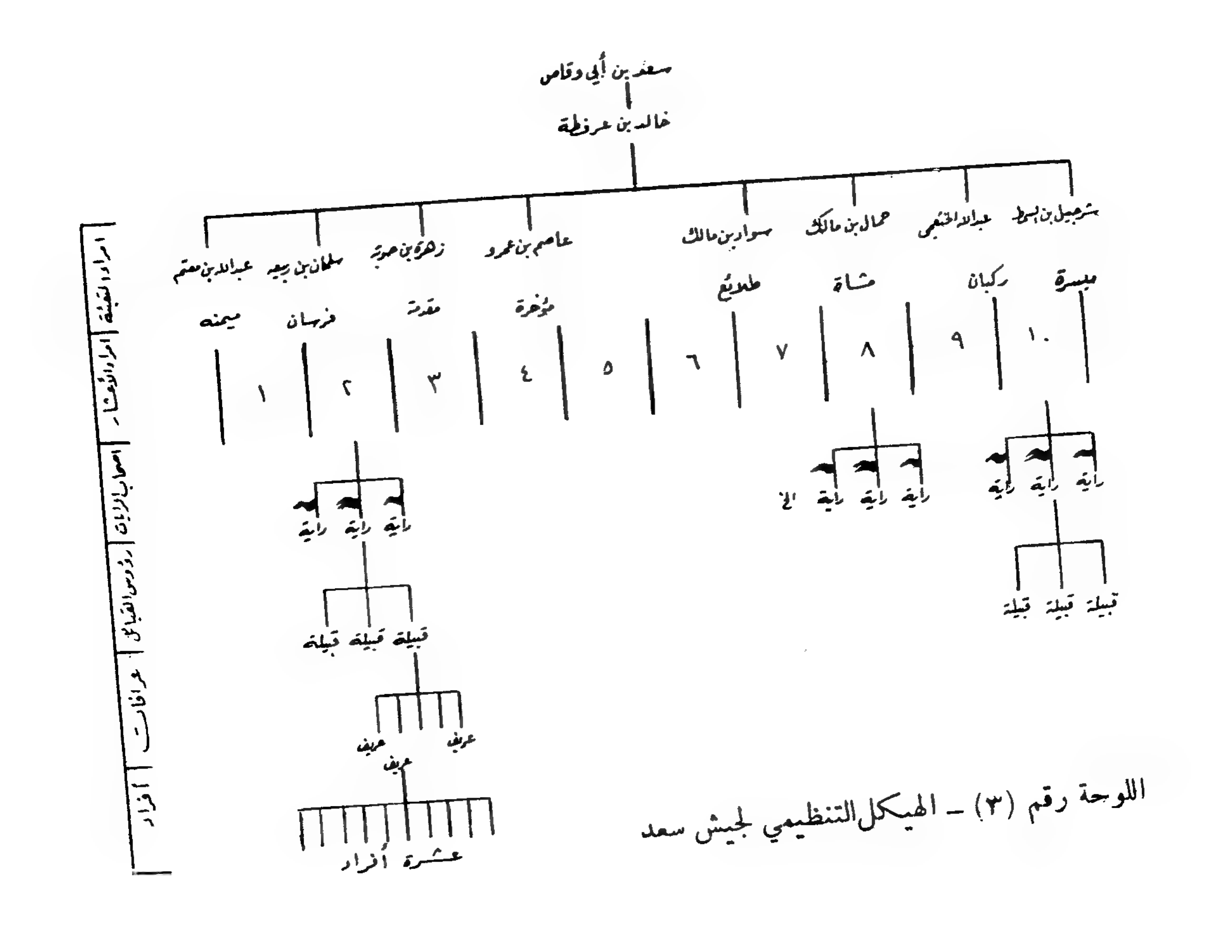
وجعل على الطلائع سواد بن مالك التميمي (وهي ما يقوم بأعمال الدوريات) .

---

(١) بن مرثد بن معاوية بن معن بن مالك بن أرثم بن جشم بن الحارث بن الأعرج بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . وقال الواقدي في فتوح الشام زهرة بن جويرة . وكان ملك هجر قد سود زهرة في الجاهلية ، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) عقد له رسول الله يوماً لواء أبيض وهو أحد التسعة الذين قدموا عليه من عبس فتممهم طلحة بن عبيد الله عشرة فكانوا عرافة ـ الاصابة ٤٩٣٤ ـ ٤٩٦٧ ـ الاستيعاب ٢ / ٣٢٣.

(٣) كان غلاماً شاباً قاتل أهل الردة وأبلى بلاء حسناً ووفى فعرف له ذلك ، وكان قد غلب الأشعث بن قيس على الشرف في كندة فيما بين خروجهم من المدينة إلى أن اختطت الكوفة. وكان أبوه ممن اتجه الى الشام مع جيش أبي عبيدة بن الجراح .



اللوحة رقم (٣) ـ الهيكل التنظيمي لجيش سعد

وجعل على المجردة (الخيل) سلمان بن ربيعة الباهلي [١] .

وجعل على الرَّجْل (المشاة) حمال بن مالك الأسدي [٢] .

وجعل على الركبان عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي . (وهي الإبل، يعني [٣] شؤون النقل والحملة – الشؤون الإدارية) .

فكان السلم القيادي في الحملة أعلاه الأمير وهو سعد بن أبي وقاص، ثم خليفته خالد بن عرفطة .

ثم أمراء الأعشار .

ثم أصحاب الرايات .

ثم رؤوس القبائل .

ولم يستعن أبو بكر بمن سبقت له ردة. واستنفرهم عمر [٤] ولم يولِّ منهم أحداً.

وقد بعث عمر إلى سعد بالأطباء .

وجعل على القضاء والأقباض وقسمة الفيء عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ذا النور ، وهو الأخ الأكبر لسلمان بن ربيعة قائد المجردة . ويبدو أن جبير بن القشعم الكندي كان يعاونه في ذلك [٥] .

---

(١) ذكرنا في الجزء الأول من كتاب « الطريق إلى المدائن » أن الخيل كانت تكثر في نجد وتقل الابل . وسلمان من باهلة من غطفان من قيس عيلان ، منازلهم في نجد وهي مواطن الخيل.

(٢) الاصابة ١٨١٦ .

(٣) ذكرنا في الجزء الأول من كتاب « الطريق إلى المدائن » أن أهل اليمن كانوا أصحاب الابل وتقل عندهم الخيل ، وخثعم من قبائل اليمن . وفي مختار الصحاح : يقال مر بنا راكب إذا كان على بعير خاصة، فإذا كان على فرس فهو فارس. وقال عمارة : راكب الحمار حمار– بتشديد الميم– لا فارس. والركب أصحاب الابل في السفر دون الدواب وهم العشرة فما فوقها ، والركبان الجماعة منهم والركاب الابل التي يسار عليها الواحدة راحلة .

(٤) الطبري ٣/٤٨٩ س ش س عن عمرو عن الشعبي .

(٥) الاصابة ١٢٧٣ . وقال جبير بن القشعم بن يزيد بن الأرقم بن النعمان بن عمرو بن وهب بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الكندي : شهد فتوح العراق وتولى القضاء بالقادسية .

وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسي [1] .

وكان الترجمان هلال الهجري .

وكان الكاتب زياد بن أبي سفيان .

وكان في الحملة كلها بضعة وسبعون ممن شهد بدراً ، وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك ، وثلاثمائة ممن شهد فتح مكة ، وسبعمائة من أبناء الصحابة في جميع أحياء العرب . فلم يخرج من شراف إلا على تعبئة ونظام كاملين ولم يخرج منها إلا بأمر عمر .

(١) الطبري ٣ / ٤٨٩ س س س عن مجالد وعمرو بإسنادهما وسعيد بن المرزبان .

الباب الثاني

خطة الحملة

وصية المثنى

فرغ سعد من تنظيم جيشه فكتب بذلك إلى عمر . وفيما هو ينتظر جوابه قدم عليه المعنى بن حارثة ومعه سلمى بنت خصفة بوصية المثنى تتضمن عصارة تجاربه في حرب العراق ، يذكر فيها لسعد رأيه .

« ألا يقاتل عدوه وعدو المسلمين من أهل فارس إذا استجمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم ، وإنما يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة (قرية) من أرض العجم .

فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وإن يكن الأخرى رجعوا ، ففاؤوا إلى فئة ثم يكونوا أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرّة لهم على عدوهم » .

وترحم سعد على المثنى ، وأمّر المعنى على عمله وأوصى بأهل بيته خيراً وخطب سلمى فتزوجها وبنى [1] بها .

أوامر عمر

وكتب عمر إلى سعد كتاباً قدم عليه وهو بشراف بمثل رأي المثنى .

« أما بعد . فَسِرْ من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله .

---

(١) الطبري ٣ / ٤٩٠ س ش س عن أبي عمرو عن أبي عثمان النهدي .
الطبري ٣ / ٥٧٥ عن ابن اسحق .

واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعُدّتهم فاضلة وبأسهم شديد، وعلى بلد منيع وإن كان سهلاً، كؤود (شاق) لبحوره وفيوضه ودآدئه، إلا أن توافقوا غيضاً من فيض (الغيض الماء القليل والفيض الماء الكثير).

وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدأهم الشد والضرب وإياكم والمناظرة (الانتظار) لجموعهم. ولا يخدعنكم فإنهم خَدَعة مكرة، أمرهم غير أمركم إلا أن تجادّوهم.

وإذا انتهيت إلى القادسية والقادسية باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الآصل (البلاد الأصلية) وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها (النقب الطريق في الجبل)، ويكون الناس بين الحجر والمَدَر، على حافات الحجر وحافات المدر والجِراع بينهما (الجرعاء رملة مستوية لا تنبت شيئاً).

ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسّوك أنغضتهم بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم. فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تُنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مَدَرَة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرّة.

فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس [من شراف] حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوادس، وشرّق بالناس وغرّب بهم»[1].

ومع هذا الكتاب كتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح بالشام يأمره بصرف أهل العراق اليه وهم ستة آلاف ومن اشتهى أن يلحق بهم.

وخرج سعد في حوالي ١٣ صفر ١٥ هـ . ٢٦ مارس (آذار) ٦٣٦ م.

---

(١) الطبري ٣ / ٤٩٠ س ش س عن أبي عمرو عن أبي عثمان النهدي.

خطة القادسية

كانت الخطة الأساسية التي رسمها أبو بكر لحملة خالد بن الوليد أن يطبق على غربي الفرات بفكي كماشة من شماله وجنوبه والقضاء على كافة القوات ، ثم يعبر الأنهار إلى المدائن . ويمكن القول أن حملة أبي عبيد كانت امتداداً لتلك الخطة واستمراراً لها . أما حملة سعد فإن الخطة التي رسمها لها عمر تختلف ، إذ استفاد من تجارب الحملات السابقة وانتهى إلى مثل رأي المثنى فبنى خطتها على نقطتين أساسيتين :

١ – اختيار مكان محدد لتجري على أرضه المعركة تتوافر فيه شروط معينة :

أ – أن يكون على الحدود الطبيعية بين الصحراء وبين الشبكة المعقدة للمسالك والمسطحات المائية تجنباً للتورط في القتـــال على أرض الموانع هذه ، وهذا درس معركة الجسر .

ب – حفظ خط الرجعة لجيش المسلمين إذا دارت المعركة على غير مـــا يُرجى ، لأنه ليس وراءهم إلا الصحراء ، في حين تكون هـــذه العوائق المائية نكبة على الفرس إذا دارت المعركة في غير صالحهم لأنها ستعوق انسحابهم ، وهذا درس معركة البويب .

هذه الشروط توافرت في القادسية .

٢ – أن تكون المعركة التي تدور على هذه الأرض – بعد استدراج الفرس اليها – كبيرة وحاسمة تقضي على القوة الأساسية لهم ، القوة الأساسية بشقيها المادي والمعنوي ، فيكون من أثر ذلك أن ينفتح ما وراءها فلا يعود لهم اجتماع قوة مثلها بعدها ، فإن حدث تكون معنوياتها صفراً وقلوبها ليست معها .

البساطة دائماً من عناصر الخطة الناجحة ، وما أبسط هذه الخطة .

نزول الحملة القادسية

١٦ صفر ١٥ هـ . – ٢٩ مارس (اذار) ٦٣٦ م .

جاسوس بالقادسية

أخرج سعد المقدمة مع زهرة بن الحوية من شراف حتى نزل عذيب الهجانات،
ثم ارتحل في أثره حتى نزل عليهم عذيب الهجانات في وجه الصبح . يدلنـــا
وصولهم في أول الصباح على أن سيرهم كان ليلاً وهو ما يفسره لنا تاريخ التحرك
إذ أنها كانت ليـــالٍ مقمرة . فخرج زهرة من عذيب الهجانات إلى عذيب
القوادس ، وكان من مسالح الفرس لهم به حصن . فلمـا ظهر للمسلمين استبانوا
على بروجه أناساً تظهر وتختفي في مختلف بروجه وشرفاته ، فتوقفت أول خيل
المقـــدمة حتى تلاحق بهم جمع كثيف وهم يرون أن بالحصن خيلاً . ثم أقدموا
عليه فخرج رجل يركض نحو القادسية ، ودخل المسلمون حصن العذيب فلم
يجدوا به أحداً وإذا ذلك الرجل بمفرده هو الذي كان يتراءى لهم على البروج
وبين الشُّرَف مكيدة لهم ليخدعهم بأن الحصن مليء بالجند فلمـــا رآهم أقدموا
انطلق هـــارباً ليخبر من وراءه بخبر من رأى من المسلمين . وانطلقوا في أثره
ليدركوه فأعجزهم. وعرف زهرة بذلك فتبعهم ولحقهم ثم سبقهم يتبع الرجل
وهو يقول : « إن أفلتَ الرَّبيءُ أتاهم الخبر » .
فأدركه بالخندق (خندق سابور) تجاه القادسية فطعنه فقتله فيه . وقـــد

تعجب المسلمون من شجاعة ذلك الرجل ومهـارته وعلمه بالحرب ، فلم يروا عين قوم قط أثبت ولا أربط جأشاً منه ، ولولا بُعد مقصده ما أدركوه وما أصابه زهرة . ووجد المسلمون بالعذيب رماحاً ونُشّاباً (سهاماً) وأسفاطاً (السفط وعاء كالقفة) من جلود وغيرها فانتفعوا[1] بها . ونزل زهرة القادسية بين نهر العتيق وخندق سابور أمام قنطرة العتيق وقصر قُدَيْس أسفل منها بميل[2] .

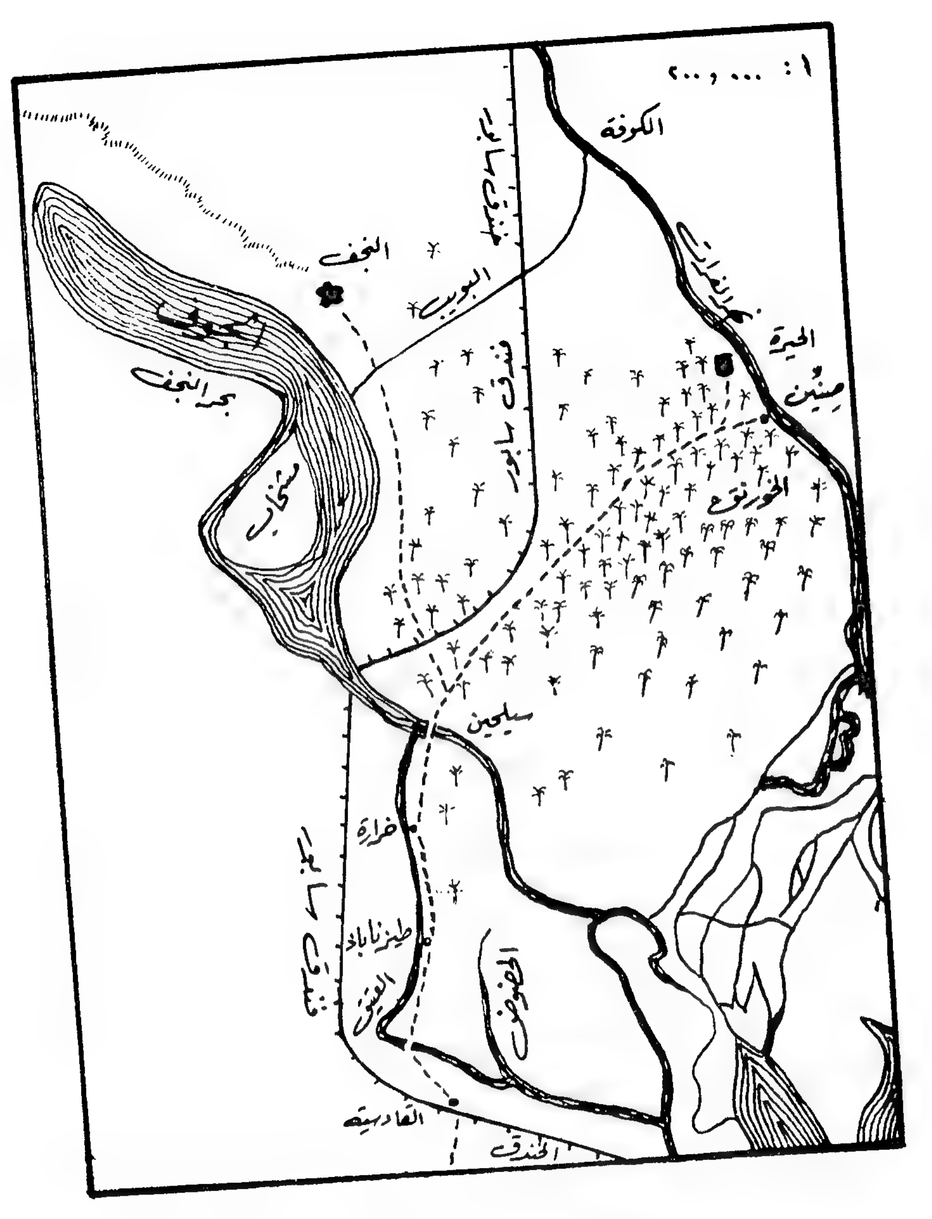
أسروا « زفة »

وما أن نزل زهرة القادسية حتى بدأ العمل فشكّل سرية وبعثها في جوف الليل لتشنّ الغارات ، وهذا مثال للمقاتل المسلم النادر الجاهز للتحرك فوراً وفي أي وقت وفي أي اتجاه ، فاختار ثلاثين فارساً من المعروفين بالنجدة والبأس ، ويبدو أنهم لم يكونوا من قبيل واحد وإنما انتخبهم من جميع قوة المقدمة ، كان فيهم الشماخ بن ضرار الشاعر القيسي المخضرم المعروف، وكان أمير السرية بُكَيْر بن عبد الله الليثي . فساروا ليلاً من نفس اليوم الذي نزلوا فيه القادسية ، وكانت وجهتهم الحيرة ، فعبروا قنطرة العتيق نحو السَّيْلَحَيْن[3] ثم عبروا جسرها وجاوزوها في اتجاه الحيرة. فما ساروا إلا قليلاً حتى سمعوا جلبة وأزفلة فتوقفوا وأقاموا كميناً بين النخل الذي يملأ المنطقة حتى يتبينوا جلية الأمر .

وظلت الجلبـة تقترب على الطريق حتى أقبلت خيول تتقدم تلك الغوغاء فتركوها تمر فنفذت في الطريق إلى صنين وهي لا تشعر بالكمين الرابض في النخل إذ كانت تنتظر العين الذي كان بقديس وقتله زهرة ، ويبـدو أنهم استبطأوا عودته. وأقبل الموكب الصاخب فإذا هو زفة أخت آزاذمرد بن آزاذبه مرزبان الحيرة ، كانت تزف في تلك الليـلة إلى صاحب صنين وكان من أشراف العجم . والظاهر أن ذلك الزواج كان مع عيد النيروز (الربيع) عند الفرس .

---

(١) الطبري ٣ / ٤٩٣ س ش س عن عبد الله بن مسلم العكلي والمقدام بن أبي المقدام عن أبيه عن كرب بن أبي كرب العكلي وكان في المقدمة أيام القادسية وهو صاحب هذه الرواية .
(٢) الطبري ٣/٤٩٢ عن س ش س عن أبي عمرو عن أبي عثمان النهدي .
(٣) قال ابن خردازبه : طسوج السيلحين وفيه الخورنق وطيزناباذ – ص ١١ .



خريطة رقم (٣) صِنِّين

من نشاط آزاذمرد بإيفاده قابوس إلى القادسية، ومن هذا الزواج الذي يتم في الإقليم نستطيع أن نخلص إلى أن الحكام الفرس قد عادوا بأشخاصهم وخيلهم إلى الحيرة بعد أن انسحب منها المثنى إلى تخوم البادية . والذي يظهر على مسرح الحيرة من الآن فصاعداً هو آزاذمرد وليس أبوه آزاذبه الذي يبدو أنه قضى نحبه. كانت الزفة في حرس من الخيل يتقدمهم شيرزاذ بن آزاذبه – أخو العروس وأخو آزاذمرد – ليحميها مما هو دون ما لقوا ، فلما ذهبت الخيل وجازت الأثقال بالمسلمين ، خرج بكير بالمسلمين فهجم على شيرزاذ فقصم صلبه وطارت خيله على وجوهها . واستولى بكير على الأثقال وعلى العروس وثلاثين امرأة من الدهاقين ومائة من التوابع ومعهم ما لا يدرى قيمته ، ثم عاد يسوق ذلك كله حتى إذا طلعوا على سعد بعذيب الهجانات كبّروا تكبيرة شديدة ، فقال لهم سعد :

« أقسم بالله لقد كبرتم تكبيرة قوم عرفت فيهم العزة » .

وقسم سعد تلك الغنيمة فالخمس نفّله وأعطى المجاهدين أربعة أخماس ، فوقع منهم موقعاً طيباً [1] .

انتظار بالقادسية

وأنزل سعد نساء المسلمين بالعذيب ووضع معها خيلاً ترعاها وتحميها، وانضم إليهم حماة كل حريم ، وأمّر عليهم غالب بن عبد الله الليثي . ثم ارتحل سعد حتى نزل القادسية فنزل بقُدَيْس [حصن القادسية] ونزل زهرة بالمقدمة أمام القنطرة التي على العتيق فهي مفتاح المرور بتلك الجهة وكان يتعين الإمساك به . ثم كتب سعد إلى عمر بخبر سرية بكير وبنزوله قُدَيْساً . وأقام على ذلك شهراً .

وعاد سعد يكتب إلى عمر :

« لم يوجه القوم الينا أحداً ، ولم يسندوا حرباً إلى أحد علمناه . ومتى يبلغنا

---

(١) الطبري ٣/٤٩٣ س ش س عن عبد الله بن مسلم العكلي ، والمقدام بن أبي المقدام عن أبيه عن كرب بن أبي كرب العكلي ، وكان في المقدمة .

ذلك نكتب به . واستنصر الله ، فإنا بمنحاة دنيا عريضة دونها بأس شديد . قد
تقدم الينا في الدعاء اليهم فقال ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد » .

فيهما فجاهد

ومع اهتمام عمر بحشد كل الطاقات المتاحة وإمداد سعد بها فقد كانت تغلب
عليه الاعتبارات الإنسانية حين تكون القضية على ذلك المحكّ .

كان شيبان بن المخبل التميمي ممن خرج مع سعد ، وكان أبوه قد هرم وضعف
وكاد يُغلب على عقله فجزع عليه وعمد إلى ما له ليبيعه ويلحق بابنه فلحقه علقمة
ابن هودة وقـــال له أنا أكلم لك عمر في رد ابنك . وتوجه إلى عمر فأنشده
قول المخبل :

أيملكني شيبان في كل ليـــلة فقلبي من خوف الفراق وجيبُ [1]
ويخبرني شيبان أن لم يعقني تـَعُق إذا فـــارقتني وتحوبُ
فإن يك غصني أصبح اليوم بالياً وغصنك من ماء الشباب رطيبُ
إذا قال صحبي يا ربيع ألا ترى أرى الشخص كالشخصين وهو قريب

فبكى عمر ورق له و كتب إلى سعد أن يعيد شيبان فانصرف إلى أبيه فكان
معه حتى مات [2] .

وكان كلاب بن أمية بن الأسكر من بني ليث من كنانة يسكن الطائف فهاجر
إلى المدينة في خلافة عمر وأقـــام بها زمناً ثم لقي طلحة والزبير فسألهما : « أي
الأعمال أفضل ؟ » قالا : الجهاد في سبيل الله . فسأل عمر فأغزاه مع سعد بن أبي
وقاص وخرج معه أخوه أُبَيّ . وكان أبوهمـــا شريفاً في قومه وقـد كبر
وضعف [3] فقال :

---

(١) وجيب : يدق ويخفق .

(٢) الاصابة ٢٧٢٦ — ٣٩٩١ ونسبه شيبان بن المخبل (وهو الربيع) بن ربيعة بن ثمال بن
أنف الناقة بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم .

(٣) الاصابة ٢٥ — ٢٥٣ - ٧٤٤٠ ، ونسبه كلاب بن أميـــة بن حرثان بن الأسكر بن
عبد الله بن زهرة بن زبينة بن جندع بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة .

أعاذلُ قد عذلتِ بغير علم ... وما يدريكِ ويحك ما ألاقي
فإمّا كنت عاذلتي فردّي ... كلاباً إذ توجه للعراق
سأستعدي على الفاروق رباً ... له رفع الحجيج إلى بساق
إن الفاروق لم يردد كلاباً ... إلى شيخين هامها زواقي

ولما طالت غيبة كلاب عاد أبوه يقول :

لمن شيخان قد نشدا كلاباً ... كتاب الله لو قَبِلَ الكتابا
أناه مهاجران تَفَرَنَّخاه ... عباد الله قد عقّا وخابا
أناديه فيعرض في إباءِ ... فلا وأبي كلاب ما أصابا
تركتَ أباك مرعشة يداه ... وأمك ما تسيغ لها شرابا
إذا نَعَبَ الحمام ببطن وَجٍّ ... على بيضاته ذكرا كلابا
أَبِرًّا بعد ضيعة والديه ... فلا وأبي كلاب ما أصابا
وإنك والتماس الأجر بعدي ... كباغي الماء يتبع السرابا

وكان عمر إذا قدم عليه قادم سأله عن الناس ، فقدم قادم فسأله: «من أين ؟» قال : « من الطائف » .

قال : « فَمَهْ ؟ »

فذكر له أبيات أُمية .

قال عمر : « ومَن كلاب ؟ »

قال : « ابن الشيخ كان غازياً » .

قال عمر : « أجل . وأبي كلاب ما أصابا » .

وكتب إلى سعد يأمره بإرجاع كلاب . فلما قدم أرسل عمر إلى أمية .

فقال : « أي شيء أحب إليك ؟ »

قال : « النظر الى ابني كلاب ».

فأعاده اليه فلما رآه اعتنقه وبكى بكاء شديداً فتأثر عمر وبكى وقال : « يا كلاب الزم أباك وأمك ما بقيا » .

كان عمر في هـذا على طريق رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل ليغزو معه فلما عرف أن له أبوين شيخين كبيرين قال له : « فيهما فجاهد » .

غارات تموينية

كان جيش سعد أكبر من أي جيش سبق لفتح العراق ، فكانت المسألة التموينية بشأنه تحتاج الى مزيد من التدبير أكثر مما كان بالنسبة للجيوش السابقة التي قادها خالد وأبو عبيد والمثنى . ولقـد كان إيغـال تلك الجيوش بسرعة إلى داخل سواد العراق يتيح لهـا الحصول على ما تحتاج اليه في معاشها وأكثر ، أما هـذا الجيش فهو على ضخامته يقف على تخوم الصحراء . ولذلك اتجهت الخطة التموينية إلى أن تساهم المدينة في الأمر فيمدهم عمر بما يلزمهم اعتماداً على سهم « سبيل الله » من الزكاة التي تؤديها قبائل شبه الجزيرة وهي المنصوص عليها في الآية ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ (١) . هـذا بالإضافة (٢) إلى ما يصيب المسلمون من غاراتهم على نواحي العراق ، تلك الغارات التي كان عليها أن تزداد عدداً وأن تذهب الى مدى أبعد.

فبالنسبة إلى الحنطة والشعير والتمر والحبوب كانوا قد اكتسبوا منها ما اكتفوا به لو أقاموا (٣) زماناً . أما اللحوم فهي التي كانوا يقرمون [يتوقون] اليها ، فإن اثنين وثلاثين ألفاً من الجند يلزمهم ثلاثمائة وعشرون جملاً في اليوم على أساس البعير لمائة [كما تقدم في الجزء الأول من الطريق إلى المدائن] ، أو نحو تسعة آلاف وستمائة من الإبل في الشهر لطعامهم خلاف ما يلزم نساءهم بالعذيب بما قد يبلغ نحو ذلك أو يزيد . روي أن المغيرة بن شعبة قدم القادسية على سعد بسبعين من

---

(١) التوبة : ٦٠ .

(٢) الطبري ٣/٥١٠ س ش س عن محمد وأصحابه وشاركهم النضر عن ابن الرفيل عن أبيه. فتوح البلدان ٦٣٤ .

(٣) الطبري ٣ / ٤٩٥ س ش س عن عبد الله بن مسلم العكلي والمقدام بن أبي القـدام عن أبيه عن كرب بن أبي كرب العكلي وكان في مقدمات القادسية .

الإبل الجيدة التي يحمل عليها ويركب، وعند سعد ضيق شديد من الحال فنحروها وأكلوا لحومها وادهنوا بشحومها واحتذوا[1] جلودها [اتخذوها أحذية]. فكان سعد يبعث السرايا للحصول على اللحوم وكانوا يسمون أيامها بها.

يوم الأباقر

بعث سعد في إقامته تلك عاصم بن عمرو في سرية فيها نذير بن عمرو والوليد ابن عبد شمس وزاهر فساير الفرات إلى جنوبه حتى أتى ميسان [منطقة العمارة بين البصرة وواسط] ، فطلب غنماً أو بقراً فلم يقدر على شيء منها وهرب بها الفلاحون في الزرع ووغلوا في آجام القصب ، وأوغل عاصم وراءهم حتى أصاب رجلاً على طفّ أجمة[2] فسأله واستدله على البقر والغنم فحلف الرجل أنه لا يعلم وإذا ذلك الرجل راعي ما في تلك الأجمة، وخار ثور من داخلها يكذب الراعي فدخل عمرو فاستاق الثيران وكانت كثيرة فأتى بها عسكر المسلمين فقسمها سعد على الناس فأخصبوا بها أياماً .

يذكر الرواة أن ذلك بلغ الحجاج بن يوسف الثقفي في زمانه فأرسل إلى النفر الذي ذكرنا ممن شهدها فسألهم :

فقالوا : « نعم نحن سمعنا ذلك ورأيناه واستقناها » .

فقال : « كذبتم » .

قالوا : « كذلك إن كنت شهدتها وغبنا عنها » .

فقال : « صدقتم ! فما كان الناس يقولون في ذلك ؟ »

قالوا : « آية تبشير يستدل بها على رضاء الله وفتح عدونا » .

فقال : « والله ما يكون هذا إلا والجمع أبرار أتقياء » .

قالوا : « والله ما ندري ما أجَنَّت [أخفت] قلوبهم ، فأما ما رأينا فإنا

---

(١) البخلاء ٢ / ١٩١ .

(٢) جانب شجر كثيف مكتث .

لم نر قوماً قط أزهد في دنيا منهم ولا أشد لهـا بغضاً ، ما اعتد على رجل منهم في ذلك اليوم بواحدة من ثلاث ، لا بجبن ولا بغدر [1] ولا بغلول » .

عرف هذا اليوم بيوم الأباقر وبث الغارات بين كسكر والأنبار ، فحووا من الأطعمة ما كانوا يستكفون به زماناً . كانت كسكر بجنوب العراق من وراء الفرات وكانت الأنبار بشمالها فكأن الغارات انبعثت من القادسية إلى كافة أنحاء العراق في حركة مفاجئة للحصول على الميرة والطعام . وكان هدفها اللحوم بصفة خاصة .

---

(١) الطبري ٣/٤٩٣ س ش س عن عبد الله بن مسلم العكلي ، والمقدام بن أبي المقدام عن أبيه عن كرب بن أبي كرب العكلي .
والغلول: الاختلاس من الغنيمة .

رستم في مواجهة سعد

أقام سعد بالقادسية زمناً ينتظر المجوس أن يوجهوا اليه قواتهم وهم لا يفعلون. واستبطأهم فبعث عيوناً إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا بن نسطونا دهقان قس الناطف من وراء الفرات . فرجعت اليه العيون بأن يزدجرد قد ولى رستم بن الفَرُّخْزاذ الأرمني حرب المسلمين ، وأنه أمره أن يعسكر بجنوده .

مراسلات

وجاء إلى سعد كتاب من عمر :

« أما بعد ، فتعاهَدْ قلبك وحادثْ جندك بالموعظة والنية والحسبة . ومَن غفل فليحدثها .

والصبر الصبر ، فإن المعونة تأتي من الله على قدر النيـــة ، والأجر على قدر الحسبة .

والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله . واسألوا الله العـــافية وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله .

واكتب إليّ أين بلغك جمعهم ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ، فإنه قــد منعني من بعض ما أردت الكتابة به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر عليه أمر عدوكم .

فصِفْ لنـا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر اليها ، واجعلني من أمركم على الجلية .

وخَفِ اللهَ وارْجُهُ ولا تُدِل [تغتر] بشيء واعلم أن الله قد وعدكم وتوكل لهذا الأمر بما لا خُلف له ، فاحذر أن تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم » .[1]

فكتب اليه سعد بصفة البلد وصفاً طبوغرافياً مفصلاً :

« إن القادسية بين الخندق والعتيق .

وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر [مستنقع] في جوف [منخفض] لاحٍ [متجه] إلى الحيرة بين طريقين . فأما أحدهما فعلى الظهر وأما الآخر فعلى شاطىء نهر يدعى الحضوض يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة .

وإن ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم [هي البطيحة العظمى] .

وإن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قِبَلي إلْبٌ[2] لأهل فارس ، قد خفوا لهم واستعدوا لنا .

وإن الذي أعدّوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم ، فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم وأمر الله بعد ماض وقضاؤه مسلّم إلى ما قدر لنا وعلينا .

فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية » .

فكتب عمر :

« قد جاءني كتابك وفهمته .

فأقم بمكانك حتى ينغض الله لك عدوك . واعلم أن لها ما بعدها .

فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فانه خرابها إن شاء الله » .

وجعل عمر ومن معه يدعون لسعد ومن معه .

---

(١) الطبري ٣ / ٤٩١ س ش س عن أبي عمرو عن أبي عثمان النهدي .

(٢) الإلب: الجماعة تجمعهم عداوة الواحد، يقال ألبهم بتشديد اللام عليه أي جمعهم على عداوته.

وعاد عمر يكتب الى سعد :

« إني قد ألقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم ، فاطرحوا الشك وآثروا التقيَّة عليه [إظهار غير ما تبطن ، أي لا تظهر نواياك] .

فإن لاعب أحد منكم أحـــداً من العجم بأمان أو قـرَفه [خلط عليه] بإشارة أو بلسان كان لا يدري الأعجمي ما كلمه به وكان عندهم أماناً فأجروا ذلك له مجرى الأمان ، وإياكم والضحك .

والوفاء الوفاء . فإن الخطأ بالوفاء بقيـة ، وإن الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم .

واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم [1] .

ولا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به . واستعن بالله وتوكل عليه .

وابعث اليه رجالاً من أهل المنظرة والرأي والجَلَد يدعونه [الى الاسلام] فإن الله جاعلٌ دعاءهم [دعوتك لهم] توهيناً لهم وفَلْجاً [ظفراً] عليهم .

واكتب إليّ في كل يوم [2] » .

رستم إذاً هو الذي كتب عليه أن يقود جيش فارس ليخوض المعركة الكبرى في مواجهة سعد بن أبي وقـــاص . فكيف وقع اختيار فارس على قائدها الأول ؟ ومن هو هذا القائد ؟

من رستم

قال البلاذري ، رستم من أهل الري ويقال بل من أهل همذان [3] . وفي أخبار عيون سعد التي أوردناها سابقاً قالوا إنه أرمني . ولقد مرّ بنا ذكر رستم قبل ذلك حين أراد أبوه الوصول الى مُلْك فارس بالزواج من آزرميدخت

---

(١) الطبري ٣ / ٤٩٢ س ش س عن القعقاع بإسناده .

(٢) « ٣ / ٤٩٥ « « « عن عبد الله بن مسلم العكلي ، والمقدام بن أبي المقدام عن أبيه عن كرب بن أبي كرب العكلي .

(٣) فتوح البلدان ٣٣٤ .

فتحايلت حتى قتلته ، وعمت فارس فوضى أرادت بوران أن تحسمها فكتبت الى رستم وكان أميراً على خراسان فاستحثته للسير فزحف الى المدائن لا يلقى جيشاً لآزرميدخت إلا هزمه ، ثم حاصر المدائن واقتحمها وفقأ عيني آزرميدخت ثم قتلها .

وولته بوران أمر فارس عشر سنوات يعود الملك بعدها الى آل ساسان وتوّجته وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا .

ورستم هو الذي وضع خطة الهجوم المضادة وبدأه مع رجوع المثنى من المدينة فحرض دهاقين السواد على الثورة بالمسلمين ودسّ في كل رستاق رجلاً لذلك وبعث ثلاثة جيوش هزمها أبو عبيد فوجه بهمن جاذويه ومنحه كل الإمكانيات الممكنة فكسب المجوس أول وآخر معركة لهم من المسلمين . وكانت فارس قد دانت لرستم قبل وفود أبي عبيد . ولكن مع انتصارهم يوم الجسر نقض أهل فارس العهد الذي عقدته لرستم .

ثم أوقع المثنى بالمجوس في البويب وشن غاراته على أنحاء العراق فطلب رستم وفيروزان من بوران أن تدلهما على نساء آل كسرى وبحثا حتى وجدا يزدجرد مختبئاً عند أخواله فنصباه ملكاً وعاد رستم يوجه الجيوش ضد المسلمين .

حتى تجيء **المعركة**

وكان سعد مقيماً بالمسلمين في القادسية يبعث السرايا تشن الغارات هنا وهناك تستهدف هدفين :

الأول : هو الإعاشة والتموين لجيش المسلمين في الميدان .

والثاني : هو شن حرب استنزاف Drain War على الفرس .

وما دام الفرس يطاولون ولم يخرجوا إلى القادسية فليجبرهم سعد على ذلك .

ولا شك أن وقوف المسلمين بالقادسية وعدم تجاوزها إلى ما بعدها من ريف العراق قد استوقف نظر الفرس [1] لا سيما وليس هذا دأب المسلمين فيما سبق من

---

(١) الطبري ٣ / ٥١٠ عن س ش س عن محمد وأصحابه .
وعن النضر عن ابن الرفيل عن الرفيل (وكان فارسياً) .

معارك وحملات، غير أنه يبدو أنهم لم يفطنوا إلى خطة المسلمين في المعركة المرتقبة وإلا لعملوا على تلافيها . ولا شك أيضاً أن الغارات التي كان يشنها سعد كانت تشكل ضغطاً شديداً على ماديات المجوس ومعنوياتهم . فقد ضج أهل السواد إلى يزدجرد بن شهريار وجأروا اليه بالشكوى وأرسلوا اليه [1] .

« إن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه إلا الحرب . وإن فعل العرب منذ نزلوا القادسية لا يبقى عليه شيء ، وقد أحربوا ما بينهم وبين الفرات . وليس فيما هنالك أنيس إلا في الحصون . وقد ذهبت الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة ولم يبقَ إلا أن يستنزلونا . فإن أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا » .

آتت حرب الاستنزاف ثمرتها ، وأثر ضغطها المادي والنفسي على المواطنين فكثرت استغاثة أهل السواد إلى يزدجرد على يدي آزادمرد بن آزاذبه . كما كتب اليه بذلك الملوك الذين لهم ضياع بالطف فأثاروه وهيجوه على أن يتخذ إجراء يراه حاسماً فبدا له أن يرسل رستم .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٠٧ س ش س عن محمد وطلحة وعمر بإسنادهم .

دبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف

وأرسل يزدجرد إلى رستم فدخل عليه .

قال يزدجرد : « إني أريد أن أوجهك في هذا الوجه وإنما يعد للأمور على قدرها ، وأنت رجل أهل فارس اليوم وقد ترى ما جاء أهل فارس من أمر لم يأتهم مثله منذ ولي آل أردشير » .

ولم يكن رستم يرحّب بهذه المهمة الثقيلة على نفسه غير أنه رأى من السياسة أن يتظاهر بالقبول وأثنى على الملك على أمل أن يجد من هذا الأمر مخرجاً .

قال يزدجرد : « قد أحب أن أنظر فيما لديك لأعرف ما عندك ، فصِفْ لي العرب وفعلهم منذ دخلوا القادسية ، وصِفْ لي العجم وما يلقون منهم » .

قال رستم : « صفة ذئاب صادفت غِرّةً من رعاء فأفسدت » .

قال يزدجرد : « ليس كذلك ، إني إنما سألتك رجاء أن تعرب صفتهم فأقويك لتعمل على قدر ذلك فلم تُصِبْ فافهم عني .

إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عُقاب أوفَى على جبل يأوي اليه الطير بالليل فتبيت في سفحه في أوكارها فلما أصبحت تجلّت الطير فأبصرته يرقبها ، فإن شذ منها شيء اختطفه . فلما أبصرته الطير لم تنهض من مخافته ، وجعلت كلما شذ منها طائر اختطفه ، فلو نهضت نهضة واحدة ردّته وأشد شيء يكون

في ذلك أن تنجو كلها إلا واحداً ، وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت،فهذا مثلهم ومثل الأعاجم . فاعمل على قدر ذلك » .

حوار أشبه بما نقرأ في كليلة ودمنة ، غير أنه يرسم استراتيجية عـامة وهي أن تحشد فارس كل طاقاتها لمعركة فاصلة واحدة ، ذلك كان اتجاه يزدجرد وتلك كانت خطة عمر أيضاً . ويبـــدو أن رستم قـد بلغ به الملل مبلغه فقال : « أيها الملك دعني ، فإن العرب لا تزال تهاجم العجم ما لم تضربهم بي . ولعل الدولة أن تثبت بي فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة ورأي الحرب ، فإن الرأي فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر » .

فأبى يزدجرد وقال : « أي شيء بقي ؟ »

كان كأنما يرمي آخر سهم في جعبته .

قال رستم : « إن الأناة في الحرب خير من العجلة ، وللأناة اليوم موضع . وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا » .

ورنت استغاثات أهل السواد في أذني الملك فاشتد حرصه ولجّ وأبى أن يعفي رستم ، وكان ضيقاً لجوجاً فترك الرأي وأصر على رأيه .

نرى أن رأي رستم كان أقرب الى الصواب ، غير أنـه لا محل للموازنة بينه وبين رأي الملك إذ لم يكن رستم يقوله مخلصاً في قوله وإنمـا كان ينتحل المعاذير ليتملص من هـذه القيادة . ولم يكن الملك مقتنعاً بذلك . هـذا وذاك فقط هما بُعدا المسألة حين ناقشها الرجلان .

خرج رستم من المدائن فضرب عسكره بساباط ، وصارت رسل رستم تتردد بينه وبين الملك ليرى موضعاً لإعفائه وبعث غيره . ولكن الملك أبى واستحث رستم على المضي ، فأعاد عليه رستم القول في مرارة ظاهرة : « أيهـا الملك ، لقد اضطرني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها . ولو أجـد من ذلك بداً لم أتكلم فيه فأنشدك الله في نفسك وأهلك وملكك،دعني أقم بعسكري وأسرّح جالنوس،فإن تك لنا فذلك وإلا فأنا على رجل وأبعث غيره حتى إذا لم نجد بداً ولا حيلة صبرنا لهم وقد وهنّاهم وحسرناهم ونحن جامون » .

فأبى إلا أن يسير [١] .

دولة تتبع التنجيم

رجعت عيون سعد التي أرسلها إلى الحيرة وإلى ابن صلوبا بهذه الأخبار ، فكتب بها إلى عمر الكتاب الذي أثبتناه سابقاً .

وقد جرأ يزدجرد [٢] على إصراره على رأيه غلام جابان وكان منجماً لكسرى من أهل فرات بادقلي ، فأرسل اليه يزدجرد فأتاه .

قال له الملك : « ما ترى في مسير رستم وحرب العرب اليوم ؟ »

فخافه على الصدق فكذب عليه . وكان رستم يرى مـا يراه المنجم وكتمه فثقل عليه مسيره وخف على الملك .

قال الملك للمنجم: « إني أحب أن تخبرني بشيء أراه أطمئن به إلى قولك ».

وكان هناك منجم هندي يدعى زُرْنا ، فقال له الغلام : « أخبره » .

فقال زرنا : « سَلْني » ، فسأله .

قال: « أيها الملك يقبل طائر فيقع على إيوانك فيقع منه شيء في فيه ها هنا» وخطّ دائرة على الأرض .

فقال العبد : « صدق ، والطائر غراب والذي في فيه درهم ! »

وطلب الملك جابان فأقبل حتى دخل عليه فسأله عما قـال غلامه ، فحسب جابان نجومه ثم قال : « صدق ولم يصب ، هو عقعق ، والذي في فيه درهم فيقع منه على هـذا المكان - وكذّب زرنا - ينزو الدرهم فيستقر ها هنا » . ورسم دائرة أخرى .

فلما قـاموا من مجلسهم حتى وقع على الشرفات عقعق فسقط منه الدرهم في الخط الأول وتدحرج فاستقر في الخط الثـاني . وعارض زرنا الهنديُّ جابانِ

---

(١) الطبري ٣/٥٠٧ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو بإسنادهم .
(٢) الطبري ٣ / ٥٠٦ س ش س عن النضر بن السري عن ابن الرفيل عن أبيه .

وناظره حيث خطّأه ، فأتيا ببقرة نتوج حامل ، فقال الهندي : « سخلتها[1] بيضاء سوداء » .

فقال جابان « كذبت بل سوداء صبغاء » .

فنحرت البقرة واستخرجوا جنينها فوجدوه مشوهاً ذيله بين عينيه .

كان هذا كافياً لإثبات كذب المنجمّين ، فلم يذكر أحد منهم شيئاً عن هذا وهو أظهر ما في الجنين بلا ريب . ومع ذلك قال جابان :

« من ههنا أُتي زرنا » .

وشجعا الملك على إخراج رستم فأمضاه .

وخرج جابان من عند الملك فكتب إلى جُشْنَسْماه :

إن أهل فارس قد زال أمرهم وأديل عدوهم عليهم ، وذهب ملك المجوسية وأقبل مُلك العرب وأديل دينهم .

فاعتقد منهم الذمة ولاتخلبنك الأمور ، والعجل العجل قبل أن تؤخذ » .

وخرج جشنسماه حتى أتى المعنى بن حارثة الشيباني وهو في خيل على العتيق فأخبره بما جاء فيه . فأرسله المعنى إلى سعد فاعتقد منه الذمة على نفسه وأهل بيته ومن استجاب له [أخذ عهداً] ورده سعد فكان صاحب أخبارهم ومصدراً هاماً من مصادرها . ولكي لا ننسى جشنسماه هذا نذكر أنه هو الذي كان يقود ميمنة جابان في النمارق في مواجهة عمرو بن الهيثم الذي كان على ميسرة أبي عبيد الثقفي يومها . وأهدى جشنسماه فالوذج إلى المعنى .

قال المعنى لامرأته ما هذا ؟

قالت : « أظن البائسة امرأته أراغت العصيدة فأخطأتها » .

قال : « المعنى بؤساً لها » !

قائد بالإكراه

كان رستم إذاً قـائد الميدان لجيش العجم مجنداً مكرهاً شأن كل المجندين فيه

---

(١) السخلة هي الجنين .

من الجند – بينما لم يكن في جيش المسلمين مكره واحد . وكان التنجيم والتشاؤم والخوف قــد ملكت عليه قلبه وهو رجل فارس في السياسة والحرب . ولئن كانت الدول تجند جنودها تجنيداً إجبارياً في جميع أنحاء العالم في مختلف العصور ولا غضاضة ، فإننا نرى أنه من أفحش الخطأ أن يجند القائد العام على كره منه واعتراض . ومن المسلَّم به في العرف الحربي اليوم أن من حق القائد أن يتنحى عن منصبه إذا لم يكن مقتنعاً بالمعركة أو بخطتها أو بأسلوب حكومته معه ، وأنه لا يجوز حينئذ إكراهه والضغط عليه لإرغامه على قبول ما لا يقبل .

الباب الثالث

دعوة الى الاسلام

وفد الى يزدجرد

وإنفاذاً لأمر عمر جمع سعد نفراً عليهم نِجَار[١] ولهم آراء واجتهاد وهم :

النعمان بن مقرّن	المزني
بسر بن أبي رهم	الجهني
حَمَلَة بن جُوَيَّة	الكناني
حنظلة بن الربيع	التميمي
فرات بن حيان	العجلي
عدي بن سهيل[٢]	

المغيرة بن زرارة بن النباش بن حبيب الأسيْدي .

ونفراً عليهم مهابة ولهم منظر لأجسامهم ولهم آراء وهم :

عُطارد بن حاجب	التميمي
الأشعث بن قيس	الكندي
الحارث بن حسان	الذهلي
عاصم بن عمرو	التميمي

---

(١) نجار : أصل وحسب ولون — المنجد .

(٢) لم نعثر على أي ذكر آخر أو ترجمة لعدي بن سهيل ، وربما يكون وقع خطأ من الراوي وصوابه سهيل بن عدي الخزرجي من الأنصار ، شهد بدراً وأُحداً والمشاهد بعدهما . له ذكر في فتح الجزيرة وفتوح فارس وكرمان .

عمرو بن معدي كرب الزبيدي
المغيرة بن شعبة الثقفي
المعنى بن حارثة [١] الشيباني .

فكان هؤلاء الأربعة عشر هم وفد سعد ودعاته إلى يزدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان ، خرجوا اليه احتجاجاً إلى الله ودعاة له .

من هؤلاء الوفد [٢]

أولهم وأميرهم النعمان بن مقرّن من بني مزينة ، صحابي رسول الله ﷺ . أسلم وهاجر إلى النبي في سبعة إخوة له . روي عنه أنه قال : « قدمنا على رسول الله ﷺ في أربعمائة من مزينة » . وأول مشاهده الخندق . ثم كان صاحب لواء مزينة يوم فتح مكة وكانوا ألفاً . ولما وقعت الردة وقف في المدينة إلى جوار أبي بكر يدفع عن الإسلام والمسلمين محنتهم ، فكان على ميمنة أبي بكر في قتاله مرتدي عبس وذبيان ، وكان أخوه عبد الله على الميسرة وأخوهما سويد بن مقرن على المؤخرة ، ساروا من المدينة إلى ذي قصة فدهموا المرتدين وكان ذلك أول فتوح الردة . ورجع أبو بكر إلى المدينة وقد خلف النعمان بذي قصة في عدد من الرجال . ثم وجدنا النعمان بعد ذلك في جيش خالد لفتح العراق واحداً من عشرة إخوة جاء ذكرهم في حصار حصن بني مازن من حصون الحيرة . وللنعمان بعد ذلك تاريخ ناصع وجهاد مشرف حتى استشهد بنهاوند وهو يقود معركتها . قال عبد الله بن مسعود : « إن للإيمان بيوتاً وللنفاق بيوتاً ، وإن بيت بني مقرن من بيوت الإيمان » . والنعمان وإخوته هم الذين نزل فيهم قوله تعالى من سورة التوبة :

---

(١) الطبري ٣ / ٤٩٦ س ش س عن عمرو والمجالد بإسنادهما وسعيد بن المرزبان .

(٢) الطبري –فتوح البلدان– الاصابة في تمييز الصحابة– الاستيعاب في معرفة الأصحاب– بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب . وجاء في الاصابة (٢٠٠١) أن حملة بن أبي معاوية الكتاني كان أحد الخمسة الذين بعثهم سعد يدعون يزدجرد إلى الاسلام ، ولم نجد ذلك في الطبري. وللمزيد من المعلومات عن رجال الوفد راجع كتاب « الطريق الى المدائن » فصل « ترجمة مشاهير قادة الفتح » .

﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول،ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم﴾.

وبسر بن أبي رهم صاحبَ خالداً في حروب الردّة وشهد معه اليمامة وفتح العراق وهو أحد الفرسان المذكورين ، وقد وكل اليه خالد بن الوليد أمر الكمين في موقعة الولجة . ثم كان ذا بلاء مشهود في القادسية .

وحنظلة بن الربيع التميمي المعروف بحنظلة الكاتب لأنه كتب للنبي ﷺ كتاباً وكانت الكتابة في العرب قليلة . كان حنظلة في جيش خالد لفتح العراق ومن شهود معاهدة الصلح مع أهل ما بين النهرين ، ومن شهود جبـــاية الجزية . استقر خالد بالحيرة فعلم أن جابان ظهر في تستر في جمع عظيم فوجه اليه المثنى بن حارثة وحنظلة بن الربيع فلما اقتربا منه انسحب إلى داخل إيران. وكان حنظلة ممن استأثر بهم خالد في خروجه من العراق إلى الشام ، غير أن حنظلة وجرير بن عبد الله البجلي ونفراً استأذنوا من خالد وهم في سوى ورجعوا الى المدينة .

وفرات بن حيان العجلي خبير طرق الجزيرة العربية والعراق ، كان دليلاً لتجارة قريش مع صفوان بن أمية في العام الثالث الهجري، فاعترضته سرية زيد ابن حارثة وأسرت فراتاً وعادت به إلى المدينة فأسلم . ثم نجده في العـام الثامن من الهجرة دليلاً لسرية زيد بن حارثة لاعتراض تجارة قريش على طريق العراق بالعيص على أربع ليال من المدينة . وكان فرات في جيش خالد لفتح العراق وكان ممن اختارهم للخروج معه إلى الشام ، فلمـا أبى المثنى إلا إنفاذ أمر أبي بكر تركه له فيمن ترك . وقد شهد البويب وكان مع المثنى في غارات الأسواق بشمال العراق وأغرق هو وعتيبة بن النهاس أناساً من بني تغلب والنمر فاستدعاهما عمر لمساءلتهما ثم أعادهما مع سعد الى العراق .

أما عطارد بن حاجب من وجوه بني تميم وسادتهم فقد كان الوحيد في هـذا الوفد الذي دخل إيوان كسرى من قبل إذ كان يفد على ملوك فارس في الجاهلية. وفي الحديث الصحيح عن نافع عن ابن عمر قـال : رأى عمر بن الخطاب عطارداً

التميمي يبيع في السوق حلة سيراء وكان رجلاً يغشى الملوك ويصيب منهم ، فقال عمر : يا رسول الله لو اشتريتها فلبستها لوفود العرب ! فقال ﷺ : « إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة [1] » . وفي رواية أخرى [2] عن عطارد بن حاجب أنه أهدى النبي ﷺ ثوب ديباج كساه إياه كسرى ، فدخل أصحابه فقالوا : « نزل عليك من السماء ؟! » فقال : « وما تعجبون من ذا ؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا » .

والأشعث بن قيس الكندي ، كان في الجاهلية رئيساً مطاعاً في كندة وفي الاسلام وجيهاً. كان اسمه معدي كرب وكان أبداً أشعث الرأس فسمي الأشعث. قدم على النبي ﷺ سنة عشر في وفد كندة ستين أو سبعين راكباً وكان رئيسهم فأسلموا . ثم ارتد بعد النبي وأسره المسلمون في حروب الردة وأرسلوه إلى أبي بكر فأسلم فأطلق سراحه ، فقال لأبي بكر : « استبقني لحربك وزوجني أختك ! » ففعل أبو بكر وزوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة !!

أما عاصم بن عمرو فهو غني عن التعريف وقد كثر ذكره مع تحركات خالد وأبي عبيد والمثنى . كان على فرقة من ثلاث هم جيش خالد في خروجه من النباج إلى العراق . وكان على ميمنة خالد بذات السلاسل وبالمذار وهو الذي قتل أنو شجان قائد ميسرة الفرس . ثم كان قائد حامية كربلاء بعد صلح الحيرة حتى خروج خالد لإنجاز عمل عياض فخرج معه الى دومة الجندل ، وعاصم هو الذي اعترض طريق أكيدر ملك دومة الجندل فأتى به أسيراً . وقد أجار عاصم بني كلب في فتح دومة الجندل فأنجاهم من سيف خالد . ثم كان مع خالد في مواقعه في عين التمر والفراض. وجعله خالد على الجيش في رجوعه من الفراض الى الحيرة بينما انفلت هو سراً ليحج. وكان عاصم ممن اختارهم خالد ليخرج معه الى الشام ثم تركه للمثنى استرضاء له . ثم وجدنا عاصماً على مجردة المثنى في النمارق وفي

---

(١) مسلم .

(٢) الطبراني .

مطاردة فلول الفرس بعدها . كذلك بعثه أبو عبيد لمطاردة فلول معركة السقاطية حتى نهر جوبر فهزم كل جمع لقيه، وشهد باقسياثا مع أبي عبيد . ولمع في وقفته مع المثنى يوم الجسر لحماية انسحاب المسلمين في ذلك الموقف العصيب وجرح يومها ، ثم شهد البويب مع المثنى وتطوع للمطاردة بعدها . وهو أحد الشعراء الفرسان . وأخيراً لو كان المرء يشرف بنسبه بعد ذلك لقلنا إنه أخو القعقاع بن عمرو .

وعمرو بن معدي كرب الزبيدي الشاعر الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع في الجاهلية والإسلام . وفد على النبي ﷺ في العام التاسع من الهجرة في وفد بني زبيد فأسلم وأقام مدة في المدينة ثم رجع إلى قومه ، غير أنه ارتدّ مع الأسود العنسي في ردّة اليمن ، وسار اليه خالد بن سعيد فقاتله حتى عاد إلى الإسلام فأرسلوه إلى أبي بكر فأطلقه وعاد إلى قومه ثم رجع إلى المدينة فبعثه أبو بكر إلى الشام فشهد فيها اليرموك وكان له فيها بلاء حسن وقد ذهبت فيها إحدى عينيه ، ثم بعثه عمر إلى العراق وله في القادسية من المواقف ما سوف نعرض له . وهو صاحب الصمصامة أشهر سيوف العرب . سأل عمر بن الخطاب يوماً عن أي سيوف العرب أمضى ؟ فقيل له صمصامة عمرو بن معدي كرب الزبيدي ، فبعث عمر اليه أن يرسل اليه سيفه فبعث به فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب اليه في ذلك فردّ عليه عمرو : « إني إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث اليه بالساعد الذي يضرب به » [1] .

والمغيرة بن شعبة من الدهاة المشهورين وكان يجيد الكتابة ويتكلم الفارسية ، وإن كنا لا نقطع متى تعلّم الفارسية وما إذا كان ذلك قبل وفادته على يزدجرد أو بعدها . وقد اتخذه رسول الله ﷺ من كتبَتِه . فلما أسلمت ثقيف أرسله النبي إلى الطائف لهدم أصنامها وتسوية أموالها . وفيروز المجوسي الذي قتل عمر ابن الخطاب وهو يصلي كان مولى للمغيرة بن شعبة .

---

(١) الفروسية العربية ٤٠ — نقول من المعروف أن عمراً أهدى صمصامته إلى خالد بن سعيد في حروب الردة في عهد أبي بكر ، وهو ما يتناقض مع هذه القصة .

وأخيراً المعنى بن حارثة عرفناه في الصفحات السابقة نلخصها جميعاً في أنه كان أخا المثنى بن حارثة الشيباني شهد معه مواقعه كلها .

هذا الوفد المنتقى الذي كان على أعلى درجات الكفاية لما أوفد له ، نلاحظ أنه بالإضافة إلى الميزات الشخصية التي تجعل لكل منهم وزنه الذاتي ، فقد كان فيهم مَن عارك الفرس وعركهم ومارس حروب العراق في الحملات السابقة ، وفيهم مَن وفدَ في الجاهلية على ملوك الفرس ، فيهم من يعرف اللغة الفارسية ، ثم كانوا جميعاً يجمعون بالإضافة إلى الرأي والفكر وحسن الأحدوثة أنهم كانوا ذوي مهابة ومنظر وبسطة في الجسم . فكأنما اختار سعد لهذه الوفادة من اجتاز كشفاً فنياً وكشفاً طبياً وكشفَ هيئة .

المراسلات قبل ذهاب الوفد

رسالة إلى عمر

وعسكر رستم بساباط خارج المدائن على طريق الحيرة ، فكتب سعد الى عمر :

« إن رستم قد ضرب عسكره بساباط دون المدائن ، وزحف الينا بالخيول والفيول وزُهَاء فارس [كثرتهم ومنظرهم] . وليس شيء أهم إليّ ولا أنا له أكثر ذكراً مني لما أحببت أن أكون عليه . ونستعين بالله ونتوكل عليه . وقد بعثت فلاناً وفلاناً ... وهم كما وصفت [١] » .

الوفد في أعين الفرس

خرج الوفد من القادسية على الخيل وأميرهم النعمان بن مقرن . ومروا في طريقهم على معسكر رستم وجازوه حتى عبروا دجلة فقدموا أسبانبر، الحي الملكي من المدائن، وانتهوا إلى باب إيوان يزدجرد فوقفوا على خيول عُرُوات [غير مسرجة] معهم جنائب [٢] وكلها صُهَّال واستأذنوا للدخول. فتُركوا على الباب

---

(١) الطبري ٣ / ٤٩٥ س ش س عن أبي ضمرة عن ابن سيرين . واسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم .

(٢) جنب البعير قاده الى جنبه . يقال فرس جنيب وخيل جنائب .
والمعنى هنا أنهم وقفوا الى جانبهم خيولهم عروات غير مسرجة .

حتى بعث يزدجرد إلى وزرائه ووجوه أرضه يستشيرهم فيما يصنع معهم وما يقول لهم . وانتشر بين أهل المدائن أن وفداً من المسلمين جاء لمقابلة الملك فاجتمعوا حولهم في جمهرة كبيرة ينظرون اليهم وعليهم المقطّعات والبرد [البردة كساء أسود مربع فيه صِفَر كانت تلبسه الأعراب] وفي أيديهم سياط دقاق وفي أرجلهم النعال . تروي بنت كيسان الضبية عن بعض سبايا القادسية ممن حسن إسلامه بعد ذلك وحضر ذلك اليوم الذي قدم عليهم فيه وفد المسلمين ، قالت :

« اجتمع اليهم الناس ينظرون اليهم فلم أرَ عشرة [1] قط يعدلون في الهيئة بألف غيرهم ، وخيلهم تخبط ويوعد بعضها بعضاً ، وجعل أهل فارس يسوؤهم ما يرون من حالهم وحال خيلهم ... [2] »

اجتماع بيزدجرد

انتهى يزدجرد من اجتماعه مع بطانته. فلما اجتمع رأيهم أذن للوفد فأدخلوا عليه فأمرهم بالجلوس . وكان سيء الأدب صبيانياً في تصرفه ، فكان أول ما دار بينه وبينهم أن أمر الترجمان فقال سلهم ما يسمون هذه الأردية ؟ فسأل الترجمان النعمان : « ما تسمي رداءك ؟ »

قال : « البُرد » .

فتطير وتشاءم وقال بردجهان : وتغيرت ألوان الفرس وشق ذلك عليهم .

ثم قال : سلهم عن أحذيتهم . فقال الترجمان : ما تسمون هذه الأحذية ؟

قال : « النعال » .

فعاد يزدجرد لمثلها وقال : « ناله ناله في أرضنا » .

ثم سأله عن الذي في يده فقال : « سوط » .

والسوط بالفارسية الحريق — فقال : « أحرقوا فارس أحرقهم الله » .

---

(١) كانوا أربعة عشر .

(٢) الطبري ٣ / ٤٩٨ س ش س عن عمرو بن محمد عن الشعبي وطلحة عن المغيرة .
« عن طلحة عن بنت كيسان الضبية عن بعض سبايا القادسية.

ولم يكن يزدجرد وحده هو الذي استشاط تشاؤماً وإنما شاركه في هذا كل من شهد من الفرس ، فقد كانوا أهل تطيُّر وتشاؤم يتشاءمون ويتفاءلون بما يرون ويسمعون . ولم تكن هذه البداية من يزدجرد إلا استهلالاً تافهاً لا يتفق وجدّية الموقف وإن كان يتفق في التعبير عن نفسية الرجل ووزنه .

النعمان يتكلم

ثم قال يزدجرد للترجمان : « سَلْهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل أنّا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ »

فقال لهم النعمان بن مقرن : « إن شئتم أجبت عنكم ومن شاء آثرته » .

فقالوا : « بل تكلم » وقالوا للملك : « كلام هذا الرجل كلامنا » .

وتكلم النعمان فقال :

« إن الله رحمَنا فأرسل الينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به ويعرّفنا الشر وينهانا عنه . ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة .

فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين : فرقة تقاربه وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث .

ثم أُمِر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب وبدأ بهم وفعل .

فدخلوا معه جميعاً على وجهين ، مكره عليه فاغتبط وطائع أتاه فازداد .

فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق .

ثم أمرنا بأن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف .

فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح كله .

فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرٍّ منه ، الجِزَاء [الجزية] فإن أبيتم فالمناجزة .

فإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم .

وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلْنا ومنعناكم .

وإلا قاتلناكم » .

وتكلم يزدجرد فقال :

إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقـــل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم . قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا كم . لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم ! فإن كان عددٌ لحق فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعا لم فرضنا لكم قوتاً الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسونا كم وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم .

مقالة المغيرة بن زرارة

فسكت القوم برهة ، ثم قـام المغيرة بن زرارة بن النبّاش الأسَيْدي فكان خطيب الوفادة . قال :

« أيها الملك ، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحون من الأشراف . وإنمـــا يكرمُ الأشرافَ الأشرافُ ويعظم حقوق الأشرافِ الأشرافُ ويضخم الأشرافَ الأشرافُ . وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه . وقد أحسنوا ، ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك . فجاوبني لأكون الذي أبلّغك ويشهدون على ذلك .

إنك وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً .

فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا. وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع. كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا. وأما المنازل فإنمـــا هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم . ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبيل اليوم على ما ذكرت لك .

فبعث الله الينا رجلاً معروفاً . نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده . فأرضه خير أرضنا وحسبه خير أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبيلتنا ، وهو بنفسه كان خيرنا ، في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا فدعانا إلى أمرٍ فلم

يحبه أحد ، أول من ترب [1] كان له [سنداً] وكان الخليفة من بعده ، فقال وقلنا وصدّق وكذّبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً إلا كان ، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله .

فقال لنا إن ربكم يقول إني أنا الله وحدي لا شريك لي ، كنت إذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي وأنا خلقت كل شيء وإليّ يصير كل شيء ، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت اليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ، ولأحلكم داري دار السلام . فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق .

وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم. ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم . ومن أبى فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتي ، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه .

فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تُسلم فتنجي نفسك » .

جواب يزدجرد

قال يزدجرد وقد مُسَّ كبرياؤه أمام حاشيته وبطانته :

« أتستقبلني بمثل هذا ؟ »

قال : « ما استقبلت إلا من كلّمني ، ولو كلّمني غيرك لم أستقبلك به » .

فاستشاط يزدجرد غضباً وصاح فيهم :

« لولا أن الرسل لا تُقتَل لقتلتكم . لا شيء لكم عندي » .

ثم التفت إلى بطانته وقال :

---

(١) تاربه كان تربه وجمعه أتراب أي صديقه .

« ائتوني بوقر من تراب » .

فأتوا به .

قال : « احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن . ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل اليكم رستم حتى يدفيكم[1] ويدفيه في خندق القادسية ، وينكّل به وبكم من بعد ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور ... مَن أشرفكم ؟ »

فسكت القوم إلا عاصم بن عمرو فقد افتات ليأخذ التراب وقد سرّه ذلك.

قال : « أنا أشرفهم ، أنا سيد هؤلاء ، فحَمّلْنيه » .

فسألهم يزدجرد : « أكذلك ؟ »

قالوا : « نعم » .

فحمّله على عنقه .

تهويش

من المؤكد أن تهديد يزدجرد للوفد بغزو بلادهم لم يكن ممكن التنفيذ من الناحية العملية ، فإن جزيرة العرب مع اتساعها وجفافها وطبيعة تضاريسها ومع اعتبارها مجاهل يجهلها الفرس أو غيرهم من غير أبنائها ، كل ذلك قد جعلها درعاً حصينة لم يفكر أحد في العصور القديمة في غزوها .

إنها مرتان على سبيل الحصر . مرة حين أغرى قائد رومي امبراطور الروم فجهز حملة بحرية لغزوهـــا من ناحية البحر الأحمر ، ونتيجة لجهلهم بجغرافية السواحل فقد تحطمت جميع السفن الحاملة للحملة على الشعاب المرجانية الغاطسة بحذاء الساحل الغربي على البحر الأحمر فيما عدا سفينة واحدة رجع فيهـا قائد

---

(١) يدفيكم : يقتلكم . وفي قصة قتل مالك بن نويرة أن خالداً قال لجنده: « دافئوا أسراكم » يقصد أن يدفئوهم من البرد ، ففهم الجند من كنانة أنه يريد قتلهم فقتلوهم . وربما كان الأصل « يدفئكم » فحدث تصحيف .

الحملة فكافأه الأمبراطور بالاعدام. ومرة أخرى حين أراد أبرهة أن يغزو مكة بالفيل ، وكلتاهما منيتا بفشل ذريع .

لا ندري إن كان يزدجرد كان يدرك تلك الاستحالة ، ولكن الذي لا شك فيه أن المسلمين كانوا يعلمون أن تهديد يزدجرد لم يكن أكثر من صياح . وإذا كانوا في حملات سابقة بأعداد قليلة قد استطاعوا أن يهزموا جيوش الامبراطورية العجوز المرة تلو المرة ، فكيف لو انتقل الميدان إلى ديارهم ؟ ليكونن حينذاك أكثر قدرة على إيقاع الهزيمة بعدوهم. غير أنهم كانوا على يقين من أن ذلك العدو كان أعجز من أن ينقل المعركة من دياره إلى ديارهم .

نسوق هـذا الاستطراد بمناسبة أن رأينا أحد كتابنا المحدثين ينطلي عليه تهويش يزدجرد فكتب يقول :

« ... كانت [١] القادسية من أهم المعـارك التي خاض المسلمون غمارها ضد أعدائهم . ومبعث أهميتها أن الفرس كانوا قد قرروا غزو بلاد العرب إذا كُتب لهم النصر ... »

نعود فنكرر أن تخطيط المسلمين قـام دائماً على أن يحتموا بصحرائهم إذا دارت الدائرة عليهم حيث يعجز عدوهم عن ملاحقتهم فيها. هذا الاعتبار الحق في استراتيجية المسلمين لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا .

الوفد يعود

خرج الوفد من عنـد يزدجرد وعاصم يحمل وقر التراب من الإيوان والدار حتى أتى راحلته [٢] فحمله عليها ثم أسرعوا في السير حتى أتوا سعداً بالقادسية وسبقهم عاصم فمرَّ بباب قديس وقال :

« بشّروا الأمير بالظفر . ظفرنا إن شاء الله » .

---

(١) الفتح العربي للعراق وفارس ١٩٣ .

(٢) الراحلة : ناقـة الركوب . والأثبت أنهم وفدوا على المدائن على ظهور الخيل وليس على الابل . ونرى هذا لبساً في الرواية .

ثم مضى حتى جعل التراب في حجره ثم رجع فدخل على سعد فأخبره الخبر، فقال سعد :

« أبشروا فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم » .

ثم وصل سائر الوفد .

المجوس يتشاءمون

وعاد جلساء يزدجرد ينظرون فيما صنع وما كان من قبول المسلمين لحمل التراب وتشاءموا من ذلك على عادة الفرس ، فقد رأوا فيه أن الملك أعطاهم أرض ملكه وسلمهم ترابها فاشتد ذلك عليهم . وانفلت رستم من معسكره بساباط الى يزدجرد الملك يسأله عما كان من أمره مع الوفد وكيف رآهم . فقال له الملك :

« ما كنت أرى أن في العرب مثل رجال رأيتهم . دخلوا عليّ وما أنتم بأعقل منهم ولا أحسن جواباً منهم ... »

وأخبره بحديثهم حتى قال :

« لقد صدقني القوم.. لقد وُعد القوم أمراً ليدركُنّه أو ليموتن عليه. على أني وجدت أفضلهم أحمقهم ، لما ذكروا الجزية أعطيته تراباً ، فحمله على رأسه فخرج به ولو شاء اتقى بغيره وأنا لا أعلم ! »

وفطن رستم لما فات الملك إدراكه فقال : « أيها الملك إنه لأعقلهم » .

وتطير رستم من ذلك فخرج من عند يزدجرد كئيباً غضبان . وكان منجماً كاهناً فبعث في أثر الوفد وقال لأهل ثقته وخاصته :

« إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا ، وإن أعجزوه سلبكم الله أرضكم وأبناءكم » .

فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم ، قال رستم :

« ذهب القوم بأرضكم غير ذي شك ، ما كان من شأن ابن الحجامة الملك ! ذهب القوم بمفاتيح أرضنا » .

فكان ذلك مما زاد الله به أهل فارس غيظاً وتشاؤماً . (تشاءموا من أخذ التراب أن يكون نذيراً بأخذ الأرض) .

يوم الحيتان

وفيما [1] بين خروج وفد سعد إلى يزدجرد ورجوعه من عنـده ، بعث سعد سرية عليها قائد الطلائع سواد بن مالك التميمي إلى النجـاف [2] فاستاق منها ثلاثمائة دابة بين بغل وحمار وثور . وكان الصيادون قد فرغوا من تجميع كميات كبيرة من سمك صادوه ، فحمّله سواد على الدواب وعاد بهـا نحو القادسية ، وبلغ الخبر إلى آزاذمرد بن آزاذبه مرزبان الحيرة – وفي بلوغ هـذا الخبر إلى آزاذمرد مـا يؤكد بشكل عملي نقض أهل الحيرة لعهدهم مع خالد ورجوعهم عملاء للفرس كما كتب سعد إلى عمر – .

فخرج آزاذمرد ليـلاً في خيله يطلب سواداً ومن معه ويعترضه . وشاهد سواد آزاذمرد يجدُّ في أثره ، وقدّر أنه سوف يدركه ، فقد كان آزاذمرد في خيل وكان سواد لا يتجاوز بطبيعة الحال سرعة الحمير والبغـال والثيران التي يستاقها ، فكلف من سريته مَن يبلغها المسلمين بالقادسية ومال هو وفرسان معه إلى آزاذ مرد فالتقوا على قنطرة السَّيْلَحين وظلّ يقاتلهم ويمنعهم من اجتياز

---

(١) الطبري ٣ / ٥٠٢ س ش س عن عمرو عن الشعبي .

(٢) في الأصل « إلى النجـاف والفراض إلى جنبها » والفراض جمع فرضة وهي موارد الاستـقاء من الأنهار ، ويطلق لفظ الفراض على الأراضي الآهـلة بالسكان حول الأنهار . وفي مختار الصحاح فرضة النهر : ثلمته التي يستقى منها ، وفرضة البحر أيضاً محط السفن . ونظن أن المقصود هنا النجف (وليس النجاف) .

القنطرة حتى اطمأن إلى أن الغنيمة قد نجت فانسحبوا واتبعوها فأبلغوها المسلمين وصبحوا بها العسكر . فقسم سعد السمك بين الناس وقسم الدواب ونفّل الخمس إلا ما رُدَّ منه على المجاهدين ، وكان في الغنيمة سبياً فأسهم عليه [بالقرعة] . هذا اليوم من أيام الغارات التموينية عُرف بيوم الحيتان . وكان العرب يقولون الحيتان ويقصدون به السمك .

وبعث سعد سرية من تيم الرباب عليها مالك بن ربيعة التيمي [تيم الرباب ثم الوائلي] ومعه المساور بن النعمان التيمي الرُبَيْعي. فأغاروا على الفيوم – على حوالي ٢٥٠ كيلو متراً شمالاً – وأغلب الظن أنهم سلكوا طريقاً في جوف الصحراء . فأصابوا إبلاً لبني تغلب والنمر فاستولوا عليها وعلى من فيها وعادوا بها الى سعد فنحرت الإبل في الناس وأخصبوا بها .

وبعث على النهرين [١] عمرو بن الحارث الفهري من المسلمين الأوائل الذين هاجروا الى الحبشة ثم الى المدينـة وممن شهد بدراً ، بعثه في سرية فوجدوا على باب ثوراء مواشي كثيرة ، فسلكوا أرض شَيَّلي وهي نهر زياد بجهة الأنبار ، فعادوا بها الى عسكر المسلمين .

---

(١) كانت كورة (إقليم) بهقباذ الأعلى ستة طساسيج (نواحي) هي بابل وخطرنية والفلوجة العليا والفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر . (المسالك والممالك ٨ ، والخراج وصنعة الكتابة ٢٣٦) .

الباب الرابع

رستم يتحرك

جيش رستم

نزل رستم بساباط وجمع السلاح وآلات الحرب وأدواتها ، وعبأ جيشه فجعل [1] :

٤٠٠٠٠ مقدمة عليها جالنوس .
٣٠٠٠٠ ميمنة عليها هرمزان .
٣٠٠٠٠ ميسرة عليها مهران بن بهرام الرازي .
٢٠٠٠٠ مؤخرة عليها بيرزان .
٨٠٠٠٠ تابع للخدمات .

هذه مائة وعشرون [2] ألفاً من المقاتلين خلاف التبع. نذهب الى أن نصفهم [ستين ألفاً] كان من الفرسان [3] ونصفهم [ستين ألفاً] كان من المشاة .

(١) الطبري ٣/٥٠٤ س ش س عن النضر بن السري الضبي عن ابن الرفيل عن أبيه .
« ٣/٥٠٥ « « « عن محمد وطلحة وزياد وعمرو بإسنادهم .

(٢) فتوح البلدان ٦٣٤ .

(٣) في الطبري ٣/٥٠٥ س ش س عن هشام بن عروة (بن الزبير بن العوام) عن عائشة (أم المؤمنين – وكانت خالته) أن رستم زحف لسعد وهو بالقادسية في ستين ألف. وفيه ٣/٥٧٣ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن وهب بن كيسان عن عبدالله بن الزبير قال: «... وأقبل رستم فيجموع فارس ستين ألفاً مما أحصى لنا في ديوانه سوى التباع والرقيق حتى نزل القادسية..» ونذهب الى أن الذي يحصى في الديوان إنما هو من كان من الفرسان الأشراف أما المشاة الذين كانوا من الفلاحين يجمعون على عجل فلم يكن لهم عند سادة فارس أي اعتبار ، ولم يكن =

وبالرغم مما كان عليه رستم فقد أراد أن يصطنع الشجاعة أمام الملك فقال له: « إن فتح الله علينا القوم يكون فيرزان وجهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أصلهم وبلادهم إلى أن يقبلوا المسالمة أو يرضوا بما كانوا يرضون به » .

هواجس

ورستم في مقامه هذا بساباط مرّ به وفد سعد إلى يزدجرد ذهاباً إلى المدائن وإياباً منها ثم علم بما كان من شأنهم مع الملك فرأى رؤيا كرهها وأحس بالشر منها وكره الخروج ولقاء المسلمين فاختلف عليه رأيه واضطرب . وعاد يسأل الملك أن يمضي جالنوس ويقيم هو حتى ينظر ما يصنعون . وقال له :

« إن غناء جالنوس كغنائي ، وإن اسمي أشد عليهم من اسمه ، فإن ظفر فهو الذي نريد وإن يكن الأخرى وجهت مثله ودفعنا هؤلاء القوم إلى يوم ما ، فإني لا أزال مرجواً في أهل فارس ما لم أهزم ، ينشطون ولا أزال مهيباً في صدور العرب ولا يزالون يهابون الإقدام ما لم أباشرهم ، فإن باشرتهم اجترأوا آخر دهرهم وانكسر أهل فارس آخر دهرهم »[1] .

فأبى الملك .

= لهم أي أجر أو غيره فلا معنى لقيدهم في ديوان (انظر الطريق الى المدائن – النظام الحربي لفارس).
أما الجيش بأكمله فكان مائة وعشرين ألف مقاتل فرسانه ومشاته وذلك بخلاف التبع الذين يقومون بأعمال الخدمة كإعداد الطعام وعلف الخيل والبغال . فعن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم أن رستم خرج من المدائن في ستين ألف متبوع (هم الفرسان) وأنه خرج من ساباط في مائة وعشرين ألفاً كلهم متبوع ، وأن هذا العدد هو الذي كان في القادسية (الطبري ٣/٥٠٥) .
وذكر الرفيل (الفارسي) أنهم خرجوا من ساباط في مائة وعشرين ألفاً (الطبري ٣/٥٠٥) وكان الرفيل نفسه واحداً منهم . وذكر الشعبي أنهم كانوا مائة وعشرين ألفاً في القادسية . (الطبري ٣ ٠ ٥٣٥) .

وهذا التخريج يوفق بين ما تناقض من أخبار عن تعداد جيش رستم فمن قال ستين ألفاً إنما قصد الفرسان الأشراف الذين كانوا عماد الجيش ، ومن قال مائة وعشرين ألفاً إنما عنى الجيش بعد انضمام المشاة اليه وكانوا من الفلاحين ، ومن قال مائتي ألف فقد أضاف اليهم الخدم والتبع والرقيق .

(١) الطبري ٣ / ٥٠٤ س ش س عن النضر بن السري الضبي عن ابن الرفيل عن أبيه .

رستم يتباطأ

وعاد رستم إلى ساباط يتلكأ فيها ولا يتحرك منها . وكتب إلى أخيه كتاباً وإلى رؤوس أهل فارس [1] :

« من رستم إلى بندوان مرزبان الباب ، وسهم أهل فارس الذي كان لكل كون يكون فيفضّ الله به كل جند عظيم شديد ، ويفتح به كل حصن حصين ، ومن يليه .

فرُمُّوا حصونكم وأعدوا واستعدوا . فكأنكم بالعرب قد وردوا بلادكم وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم .

وقد كان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوساً فأبى الملك » .

ولاحظ يزدجرد أن رستم يتلكأ فأمره بالتحرك من ساباط فعاد رستم يكتب إلى أخيه بمثل الكتاب الأول ثم زاد فيه مما ساقه اليه تنجيمه :

« ... فإن السمكة قد كدرت الماء . وإن النعائم قد حسنت . وحسنت الزُهرة واعتدل الميزان ، وذهب بهرام .

ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون علينا ويستولون على ما يلينا . وإن أشد ما رأيت أن الملك قال لتسيرن اليهم أو لأسيرن أنا بنفسي فأنا سائر اليهم [2] » .

وخرج رستم من ساباط فلقيه جابان على قنطرتها فتشاكيا [3] .

قال جابان : « ألا ترى ما أرى ؟ »

قال رستم : « أما أنا فأقاد بخشاش وزمام ولا أجد بداً من الانقياد » .

وأمر رستم جالنوس بالتقدم نحو الحيرة ، وقال له : « ازحف زحفاً ولا تنجذب إلا بأمري » .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٠٥ س ش س عن محمد وطلحة وزياد وعمرو بإسنادهم .

(٢) « ٣ / ٥٠٦ « « « عن الصلت بن بهرام عن رجل .

(٣) « ٣ / ٥٠٧ « « « عن محمد وطلحة وزياد وعمرو بإسنادهم .

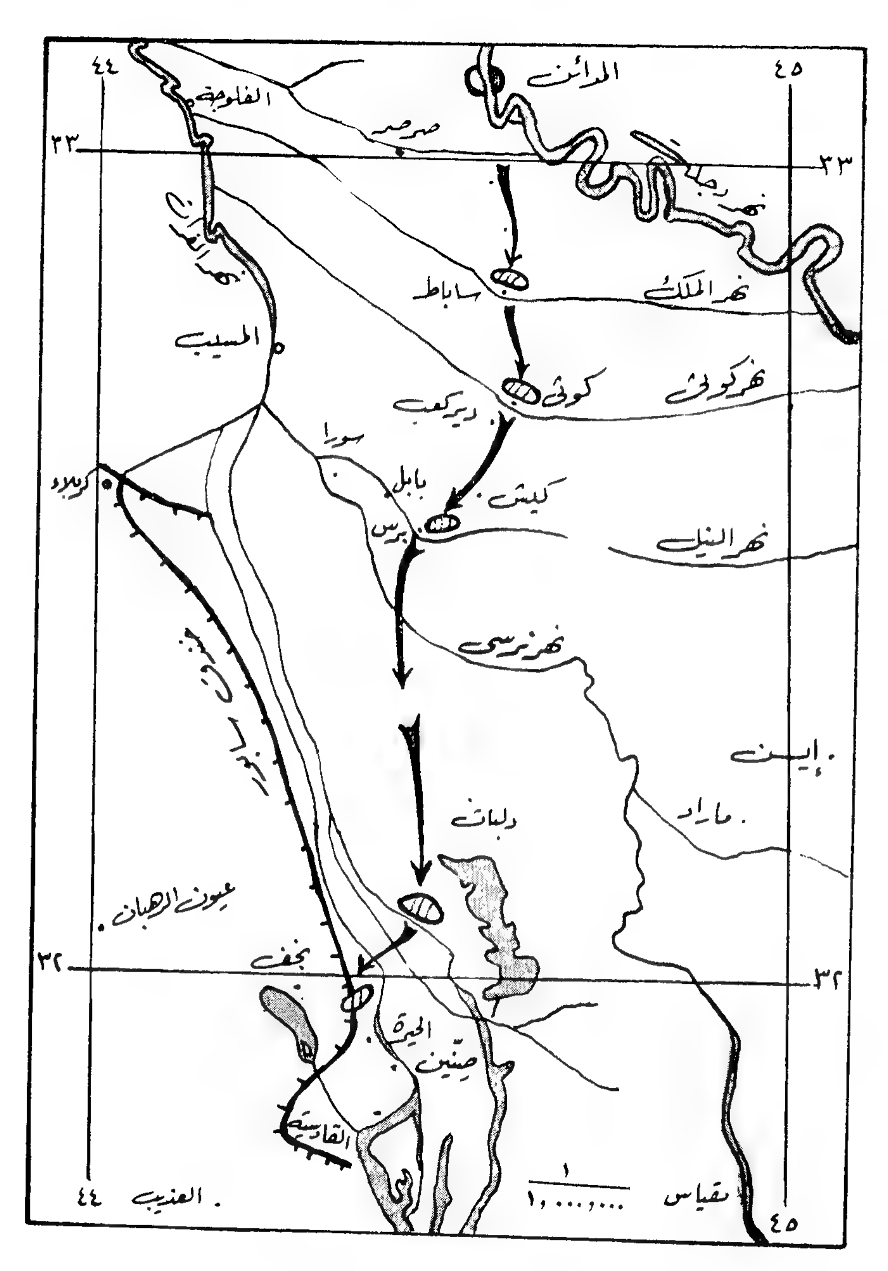
وبلغ جالنوس النجف فضرب عسكره وأقام فسطاطه بها .
ونزل رستم بكوثى . وكتب وهو بكوثى إلى جالنوس وآزاذمرد :
« أصيبا لي رجلاً من جند سعد » .
فركبا بنفسيهما في سرية من مائة رجل طليعة حتى انتهيا إلى القادسية فأصابا رجلاً وجداه قبل القنطرة فاختطفاه ، وأحس المسلمون بما حدث فانطلقوا في أثرهم فأعجزوهم وأفلتوا به إلا ما أصاب المسلمون من أخرياتهم. وانتهى جالنوس وآزاذمرد إلى النجف فأرسلا الرجل إلى رستم وهو ما زال بكوثى .
قال له رستم : « ما جاء بكم وماذا تطلبون ؟ »
قال : « جئنا نطلب موعود الله » .
قال : « وما هو ؟ »
قال : « أرضكم وأبناءكم ودماءكم إن أبيتم أن تسلموا » .
قال رستم : « فإن قُتلتم قبل ذلك ؟ »
قال : « في موعود الله أن مَن قُتل منا قبل ذلك أدخله الجنة وأنجز لمن بقي منا ما قلت لك ، فنحن على يقين » .
قال رستم : « قد وُضِعنا إذاً في أيديكم ! »
قال : « ويحك يا رستم ! إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك ما ترى حولك ، فإنك لست تحاول الإنس ، وإنما تحاول القضاء القدر » .
فاستشاط رستم غضباً وأمر به فضربت [1] عنقه .

اغتصاب

وخرج رستم من كوثى حتى نزل في بُرْس . فغصبت جنودُه الناسَ أموالهم واعتدوا على حرماتهم فوقعوا على نسائهم وشربوا الخمور ، فضجَّ الأهالي — وهم من المجوس — إلى رستم يشكون ما يلقون في أموالهم وأبنائهم . فقام رستم فيهم فقال :

---

(١) الطبري ٣ / ٥٠٧ س ش س عن النضر بن السري عن ابن الرفيل عن أبيه .



خريطة رقم (٤) تحرك رستم

« يا معشر أهل فارس ، والله لقد صدق العربي . والله ما أسلمنا إلا أعمالنا . والله للعرب في هؤلاء وهم لهم ولنا حربٌ أحسن سيرة منكم . إن الله ينصركم على العدو ويمكّن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء بالعهود والإحسان . فأما إذ تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال فلا أرى الله إلا مغيّراً ما بكم ، وما أنا بآمن أن ينزع الله سلطانه منكم » .

ثم بعث رجاله فاعتقلوا له نفراً ممن يشكى منه فضرب أعناقهم . ثم ركب ونادى في الناس بالرحيل فخرج ونزل بإزاء دير الأعور .

ثم خرج منها فانصب إلى الملطاط فعسكر بين الفرات وبين النجف فيما بين النجف إلى الخورنق إلى الغريين . ونصب سرادقة إلى جانب الدير .

متهمون

ودعى بأهل الحيرة ليناقشهم الحساب. فلما دخلوا عليه أرغى وأزبد وتوعدهم وهمّ بهم فقال لهم [1] :

« يا أعداء الله . فرحتم بدخول العرب علينا بلادنا، وكنتم عيوناً لهم علينا، وقويتموهم بالأموال » .

ثلاث تهم وجهها اليهم . فأصابهم الرعب واتقوه بابن بقيلة وقالوا له : « كن أنت الذي تكلمه » . فتقدم ابن بقيلة إلى رستم وقال : « أما أنت وقولك إنا فرحنا بمجيئهم فماذا فعلوا وبأي ذلك من أمورهم نفرح ؟ إنهم ليزعمون أنا عبيد لهم ، وما هم على ديننا ، وإنهم ليشهدون علينا أنا من أهل النار .

وأما قولك إنا كنا لهم عيوناً ، فما الذي يحوجهم إلى أن نكون عيوناً لهم وقد هرب أصحابكم منهم وخلوا لهم القرى ، فليس يمنعهم أحد من وجه أرادوه إن شاؤوا أخذوا يميناً أو شمالاً .

وأما قولك إنا قويناهم بالأموال ، فإنا صانعناهم بالأموال عن أنفسنا إذ لم

---

(١) الطبري ٣ / ٥٠٨ س ش س عن عمرو عن الشعبي والمقدام الحارثي عمن ذكره .

تمنعونا مخافة أن نُسبَى وأن نُخْرَب وتقتل مقاتلتنا ، وقد عجز عنهم من لقيهم منكم فكنا نحن أعجز .

ولعمري لأنتم أحب الينا منهم وأحسن عندنا بلاء فامنعونا منهم نكن لكم أعواناً فإنما نحن بمنزلة علوج السواد [العجم] عبيد من غلب .

فلا تجمع علينا اثنتين .. أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا وبلادنا » .

أحسن ابن بقيلة الجواب واقتنع به رستم فقال لمن حوله: « صدقكم الرجل».

وسكت عنهم. وفي الواقع أن موقف عرب العراق كان تماماً كما ذكر ابن بقيلة فهم لم يفرحوا بالغزو الإسلامي ولم يعينوه .

بات مع الملائكة

وبات رستم بجوار الدير تطارده هواجسه فرأى في المنام [1] أن ملكاً جاء حتى دخل عسكر فارس فختم السلاح أجمع! ومكث رستم في مقامه ذاك بعض الوقت حتى إذا اطمأن أمر جالنوس أن يسير من النجف فسار بالمقدمة حتى نزل بينها وبين السيلحين . وارتحل رستم بجنده من الدير فنزل النجف مكان المقدمة . وكان ما زال يتباطأ في مسيره حتى لقد قطع ما بين المدائن الى ساباط ومنها الى القادسية [مسافة ١٨٥ كم] قطعها في أربعة أشهر بمعدل كيلومتر ونصف في اليوم ، لا يقدم ولا يقاتل على أمل أن يضجر المسلمون بمكانهم وأن يفقدوا حماسهم ويجهدوا فينصرفوا ، وهو يتلافى قتالهم مخافة أن يتحقق تنجيمه فيلقى ما لقي من قبله ، لولا أن الملك كان من ورائه دائماً يستعجله وينهضه من كل منزل ينزله فيقدمه حتى أقحمه القادسية .

ولما نزل رستم النجف عاودته أحلامه المزعجة ، فرأى المَلَك الذي[2] رآه

---

(١) الطبري ٣ / ٥٠٩ س ش س عن النضر بن السري عن ابن الرفيل عن أبيه .

(٢) المصدر السابق .

الطبري ٣/٥١٦ س ش س عن مجالد عن الشعبي .

في حلمه السابق ومعه النبي ﷺ وعمر ، دخلوا معسكر الفرس فأخـــذ الملك سلاحهم فختمه بختم ثم حزمه ودفعه الى النبي فدفعه النبي إلى عمر . فأصبح رستم وقد ازداد حزناً . ورأى أحد من معه ذلك – وكان يدعى الرُّفَيْل – فرغب في الإسلام ، وكان ذلك الحلم هو الذي دعــاه إلى الإسلام . وعن طريق الرفيل هذا بلغنا كثير من وقائع هذه الأحداث التي كانت تقع في الجانب الفارسي .

ثبات على الخطة

وأدرك عمر مما يجري أن الفرس يطاولون المسلمين فعاد يؤكد على سعد خطته ويعهد اليه وإلى المسلمين أن ينزلوا حدود أرضهم وأن يطاولوهم أبداً حتى يرغموهم على الخروج اليهم حيث اختاروا الميدان . وأقــام المسلمون بالقادسية واطمأنوا وقـــد وطنوا أنفسهم على الصبر والمطاولة فكانوا يغيرون على السواد فانتسفوا ما حولهم فحووه وهم مقيمون حتى يفتح الله . كان ذلك في يونيو ويوليو وأغسطس (حزيران وتموز وآب) وهو موسم يجدون فيه القمح والحبوب الصيفية بعد جنيها وكذلك التمور .

ولم يكن عهد المسلمين أن يمكثوا في ميدان قتال دون قتال ، فقــال بعضهم لسعد : « لقد ضاق بنا المكان فأقدم » .

ولا شك أن صاحب هذا القول لم يكن يدرك خطة قيادته ، وهذا يدلنا على أن الخطة كانت سراً لدى القيادة لم تفصح عنها لعامة الجيش .

وزجر سعد مَن كلَّمه بذلك قائلاً :

« إذا كفيتم الرأي فلا تَتكَلَّفوا ، فإنا لن نقدم إلا على رأي ذوي الرأي ، فاسكتوا ما سكتنا عنكم (١) » .

من المبادىء المسلم بها اليوم وتأخذ به الدول كقاعدة من قواعد الأمن مبدأ يقول : « المعرفة على قدر الحاجة » يقوم على اعتبارين :

---

(١) الطبري ٣ / ٥١٠ س ش س عن محمد بن قيس عن موسى بن طريف .

١ – خطأ تكليف الفرد بعمل مع إحاطته بقدر أقل مما يلزمه لأدائه .
٢ – خطورة حصول الفرد على معلومات تزيد عن حاجته لأداء العمل المنوط به .

فالمعرفة على قدر الحاجة يعني قدرة الفرد على تأدية العمل المكلف به بأقل قدر ممكن من المعلومات ، وذلك خوفاً من تسرّب المعلومات والخطط إلى العدو ، وأن الفرد غير المسؤول عن معلومات معينة مسؤولية مباشرة لا يشعر بنفس المسؤولية التي يشعر بها نحو المعلومات التي هو مسؤول عنها مباشرة بحكم تكليفه . ولقد كان الجندي المسلم مثالياً في جنديته ولم يكن معنى هذا إهدار القواعد السليمة بل كان الصواب في إعمالها دائماً. وإن اقتناع كل فرد بمبدأ المعرفة على قدر الحاجة يمثل نضج الفرد وأحد الدعامات الهامة لقطع السبل على العدو نحو ما يفيده من معلومات . وإن قدراً كبيراً من المعلومات – التي تسمى بالمعلومات العارضة – يتسقطه الأعداء كيفما اتفق من سقطات الألسنة والثرثرة التي لا داعي لها . ولا شك أن خير أمان لذلك هو الكتمان وألا يعرف الفرد أكثر مما يلزمه ، فالمعرفة على قدر الحاجة .

بذلك أخذ سعد .

زحف السلاحف

وتوقف رستم فترة أخرى وهو بالنجف وجدد تعبئة قواته [1] .

فكان هو بالنجف .

وهرمزان على ميمنته .

ومهران على ميسرته .

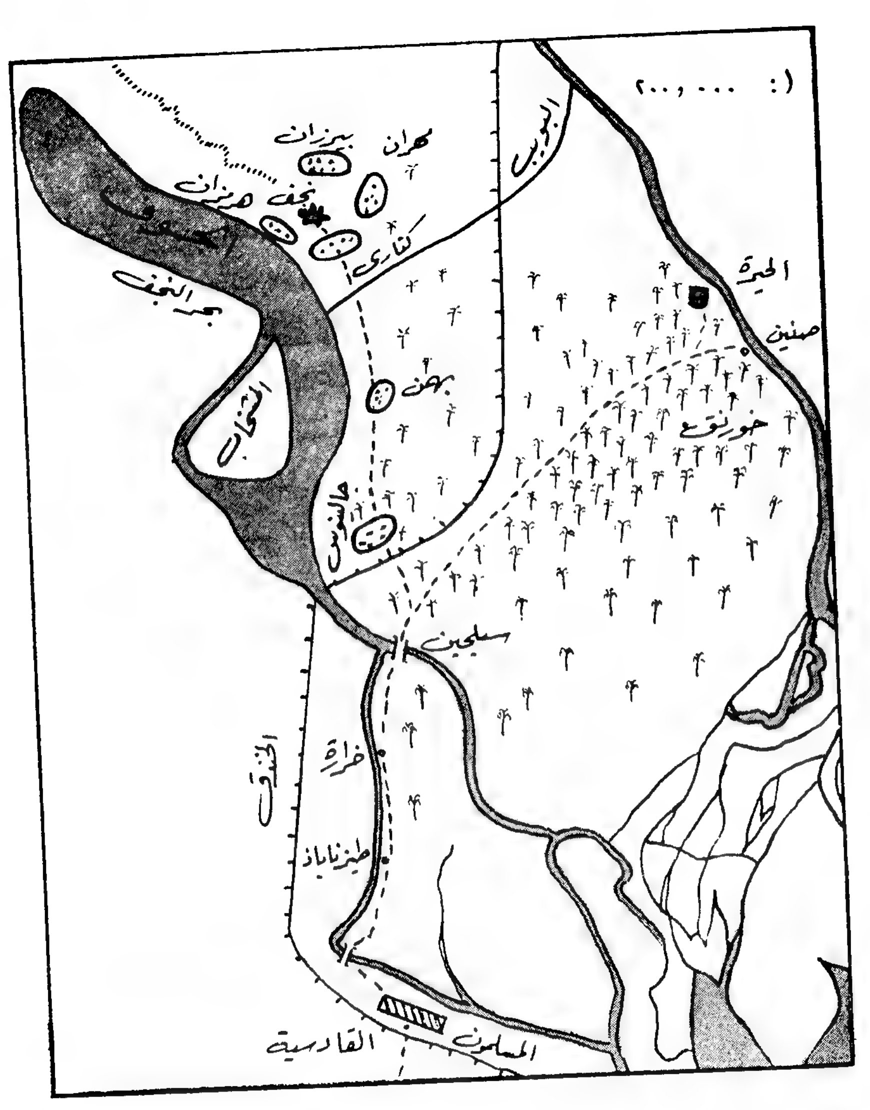
وجالنوس على المقدمة بين النجف والسيلحين .

وبهمن جاذويه بين رستم وجالنوس .

وبيرزان على المؤخرة .

---

(١) الطبري ٣ / ٥١٠ س ش س عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .



خريطة رقم (٥) مواقع الجيشين قبل المواجهة

وزاذ بن بهيش صاحب فرات سريا على المشاة .
وكناري على المجردة [الخيل] .

وكان الجند حينذاك مائة وعشرين ألفاً، فيهم ستون ألف متبوع ومن الستين ألفاً خمسة عشر الف شريف من أشرافهم .

هرمزان – قائد الميمنة – كان صاحب تستر [1] . وسيأتي له ذكر كثير .

ومهران – قائد الميسرة – بن بهرام جوبين صاحب الثورة المشهورة الذي ثار على هرمز الرابع وأسقطه عام ٥٩٠ م. وقد كان بهرام من قواد الفرس المشهود لهم على مرّ التاريخ الفارسي غير أنه لم ينجح في حربه ضد بيزنطة فانتزع هرمز القيادة منه بشكل فيه إهانة له فثار بهرام حتى سقط هرمز وقتل ودخل بهرام المدائن وتوّج نفسه غير أن الأمر لم يستقر له ففر الى تركيا حيث قتل . ومهران هو ابن ذلك القائد الثائر . وقد مرّ بنا ذكر مهران في حملة خالد بن الوليد إذ كان قائد الحامية الفارسية في عين التمر حين هاجمها خالد ثم انسحب منها دون قتال لما هزم خالد عقة . ويفهم من صفته بأنه مهران بن بهرام الرازي من أهل الري جنوب بحيرة قزوين .

وجالنوس قائد المقدمة مرّ ذكره في حملة أبي عبيد . فهو الذي أرسله رستم مدداً لجابان ونرسي فانهزما قبل أن يدركهما ولجأت فلولهما اليه في باقسياثا ، ثم التقى بهم أبو عبيد وهزمهم وفرّ جالنوس . وقد غضب منه رستم غضباً شديداً وأعاده على مقدمة بهمن جاذويه في موقعة الجسر . والآن يعود رستم ويجعله على مقدمته .

أما زاذ بن بهيش قائد مشاة الفرس في القادسية فهو الذي سبق أن صالح خالد بن الوليد على الجزية وكتب خالد له معاهدة بذلك في ربيع الأول عام ١٢ هـ بعد سقوط الحيرة . نقض عهده وخرج مع رستم يحارب المسلمين . وحين يبرز لنا اسم « زاذ بن بهيش صاحب فرات سريا » فإنما يعني الرجل وإقليمه . ونظن أن قيادته للمشاة قد جاءته نتيجة أن إقليم فرات سريا قد ساهم بنصيب

---

(١) الكامل للمبرد ٩٨/١ .

وافر في المجنـــدين المشاة من الفـلاحين الذين هم شعب فرات سريا فيما بين دجلة والفرات .

وتقـدم رستم مرحلة أخرى فارتحل من النجف ونزل مكان بهمن جاذويه بينما ارتحل هذا فنزل مكان جالنوس وارتحل جالنوس إلى طَيْزَناباذ فنزل بهـــا وقدّم خيله أمام مكانه هذا نحو القادسية .

غارة تموينية

والفرس[1] في مواقفهم تلك بعث سعد سواد بن مالك التميمي قائد الطلائع وحميضة بن النعمان البارقي — الذي وفد على عمر فأمّره على قبائل السراة وأنفذه مع سعد — بعثهما سعد في مائة [2] ومائة فأغاروا على النهرين [3] . وكان سعد قد نهاهما إذ بعثهما أن يمعنا ويبتعدا كثيراً .

وأسرعت عيون رستم تنقل اليه أخبارهم فأرسل اليهم خيلاً . وبالمثل بلـغ سعداً أن خيله أوغلت وبعدت، فدعا عاصم بن عمرو التميمي وجابر بن أبي سبرة الأسدي فأرسلها في آثارهم يقتصانهم فسلكا نفس طريقهما، وقال سعد لعاصم:

« إن جمعكم قتال فأنت عليهم » .

فلقيهم عاصم وجابر بين النهرين وأصطيميا [4] وقد أحاطت بهم خيل رستم تريد استخلاص ما بين أيديهم من غنيمة .

قال سواد لحميضة :

« اختر إما أن تقيم لهم وأستاق الغنيمة ، أو أقيم لهم وتستاق الغنيمة » .

قال حميضة :

« أقم [أنت] لهم ونهنهم عني وأنا أبلغ لك الغنيمة » .

---

(١) الطبري ٣ / ٥١١ س ش س عن محمد بن قيس عن موسى بن طريف .

(٢) في الأصل مائة مائة (يعني عشرة آلاف) والمعقول أن يكون صوابها كما أثبتنا .

(٣) من بهقباذ الأعلى ، وهذه هي الغارة الثانية على النهرين .

(٤) لم نهتد الى موضعها .

فأقام لهم سواد وانفلت حميضة بالغنائم [لم تذكر المصادر طبيعتها ونحسبها كانت مواشي] . فلقيه عاصم بن عمرو فظن حميضة حين رآها على بعـــد أنها خيل أخرى من خيول الفرس فانحرف عن طريقها ، ولكنهما ما لبثا أن تعارفا، فساق حميضة غنيمته نحو القادسية ومضى عاصم الى سواد . وكان الفرس في أثناء ذلك قد استطاعوا استنقاذ بعض الغنيمة وما زال سواد ملتحماً بهم . ولم يهدهم تفكيرهم إلى مثل ما هدى سواداً تفكيره، فلو ذهب بعضهم بما استنقذوا وثبت بقيتهم للقتـال لفازوا بها ، ولكنهم ظلوا جميعاً في التحام والغنيمة معهم حتى بلغهم عاصم وجابر في خيلهما ، فما إن رآهم المجوس حتى ولوا الأدبار تاركين ما كانوا قد استرجعوا فاستردها منهم المسلمون وعادوا الى سعد بنصرهم على عدوهم وبالغنائم وبالسلامة لم يفقد منهم أحد .

وغارة استكشافية

وبعث سعد طليحة[1] بن خويلد الأسدي وعمرو[2] بن معدي كرب الزبيدي بعثها سعد في غير قوة من خيل كالطليعة في « دورية » استكشافية، فكان طليحة وحده مكلفاً بعسكر رستم وكان عمرو في خمسة من أصحابه مكلفاً بعسكر جالنوس . وأمرهم أن يصيبوا له رجلاً منهم ليستخبره .

كان ذلك صبيحة اليوم الذي أمر رستم فيه جالنوس وبهمن جاذويه بالتقدم نحو القـــادسية ، والمسلمون يعلمون أن جيوش المجوس بالنجف لا يشعرون بخروجهم [3] منها. فلما تجاوز طليحة وعمرو قنطرة القادسية لم يسيرا إلا فرسخاً وبعض فرسخ [حوالي ٧ كم] حتى رأوا خيلاً عظيمة وقوات المجوس تتحرك بسلاحها قد ملأوا الطفوف [4] .

---

(١) أنظر ترجمة طليحة بن خويلد في آخر الكتاب تحت عنوان «ترجمة مشاهير قادة الفتح».

(٢) عمرو بن معدي كرب قدمنا تعريفاً به في وفد سعد إلى يزدجرد .

(٣) الطبري ٣ / ٥١١ س ش س عن محمد بن قيس عن موسى بن طريف .

٣ / ٥١٢ « « « عن أبي عمرو عن أبي عثمان النهدي .

(٤) الطف ما أشرف من الأرض على ريف العراق ، وجمعها طفوف . (أسد الغابة ٨ : ٢ عن مراصد الاطلاع) .

قال بعضهم : « ارجعوا إلى أميركم فإنه سرحكم وهو يرى أن القوم بالنجف فأخبروه الخبر » .

وقال بعضهم : « ارجعوا لا يَنذَر [1] بكم عدوكم » .

فقال عمرو : « صدقتم » .

وقال طليحة : « كذبتم ، مـــا بعثتم لتخبروا عن السرح [سرح جنود المجوس] وما بعثتم إلا للخبر » .

قالوا : « فما تريد » ؟

قال : « أريد أن أخاطر القوم أو أهلك » .

قالوا : « أنت رجل في نفسك غدر ولن تفلح بعد قتل عُكّاشة بن محصن فارجع بنا » .

فأبى وفارقهم . وبلغ سعداً وهو بالقادسية خبر رحيلهم فبعث في آثارهم قيس بن هبيرة الأسدي وأمَّره على مائة وقال له: «إن لقيت قتالاً فأنت عليهم».

وخرج قيس حتى لقي عمراً وقد فارقه طليحة ومضى وحده لما يريد . وسأل قيس عن طليحة فقال عمرو : « لا علم لي به » . وساروا جميعاً حتى أشرفوا على النجف من جهة الجوف .

قال عمرو : « أريد أن أغير على أدنى عسكرهم » .

قال قيس : « في هؤلاء » ؟

قال : نعم .

قال قيس : « لا أدعك والله وذاك ، أتعرض المسلمين لما لا يطيقون » ؟!

قال عمرو : وما أنت وذاك ؟

قال قيس : إني أمّرت عليك ، ولو لم أكن أميراً لم أدعك وذاك .

وشهد الأسود [2] بن يزيد في نفر معه .

---

(١) نذر الجيش فلاناً جعله نذيراً . نذر به علمه فحذره واستعد له ، يقال نذروا بالعدو .

(٢) أنظر ترجمة الأسود بن يزيد في آخر الكتاب تحت عنوان«ترجمة مشاهير قادة الفتح».

« إن سعداً قد استعمله عليك وعلى طليحة إذا اجتمعتم » .

قال عمرو : « والله يا قيس إن زماناً تكون عليّ فيه أميراً لزمان سوء[1] . لئن عاد صاحبك الذي بعثك لمثلها لنفارقنه » .

قال قيس : « ذاك اليك بعد مرتك هذه » .

رجعا الى سعد بخبر زحف المجوس اليهم وببعض الأسرى منهم وبأفراس غنموها . وشكا كل واحد منهما صاحبه . أما قيس فشكا عصيان عمرو وأما عمرو فشكا غلظة قيس .

قال سعد : « يا عمرو الخير والسلام أحب إليّ من مصاب مائة [من المسلمين] بقتل ألف [من العجم] . أتعمد إلى حَلْبة فارس.فتصادمهم بمائة ؟ إن كنت لأراك أعلم بالحرب مما أرى » !

قال عمرو : « إن الأمر لكما قلت » .

أما طليحة فقد ترك أصحابه ومضى وحده يعارض[2] الميـاه على الطفوف حتى بلغ معسكر رستم فتسلل إلى داخله ليلاً وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسم ، فلما كان آخر الليل أتى أفضل من توسم في ناحيـة المعسكر وفيها فرس لم يرَ في خيلهم مثله ، وفسطاط أبيض لم ير مثله ، فسلّ سيفه وقطع بـه مِقْـوَد الفرس [لجامه] وربطه بمقود فرسه ثم مشى بفرسه وخرج يعدو به . وأحسّ الفـرس

---

(١) في الرواية أن عمراً قال لقيس :« لأن أرجع عن دينكم هذا الى ديني الذي كنت عليه وأقاتل عليه حتى أموت أحب الي من أن تتأمر علي ثانية » ، أسقطنا هـذه العبارة من النص لمخالفتها المعقول ، إذ أن عمراً كان ممن سبقت لهم ردة وتابوا عنها ورجع الى الإسلام ، وبسبب ردته حرم من الجهاد في عهد أبي بكر.ثم حسن إسلامه وبهذه الصفة سمح له ولغيره من أصحاب الردة أن يجاهدوا في عهد عمر . فلم يكن من المقبول عقلاً أن يصدر عنه مثل هذا القول ، ولو قاله لكان لسعد معه شأن ، ولو تجاوز سعد لما تجاوز عمر . هذه العلة تدعونا الى إسقاط العبارة من النص لمخالفتها للمعلوم بالاستفاضة وإجماع الرواة .

(٢) يعارض يجانب — عارض سار حياله — عارض الرجل أخذ في عروض من الطريق أي ناحية .

بما حدث فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول وتعجل بعضهم فلم يسرج فرسه وخرجوا يجدُّون في أثره .

ولحقه فارس منهم مع الصباح فلما أدركه وصوَّب اليه رمحه ليطعنه عدل طليحة فرسه ومال به عن تصويب الفارسي فانصب الفارسي بين يديه وصار أمامه، فكرّ عليه طلحة وطعنه برمحه فقصم ظهره، وانطلق يعدو بفرسه فلحق به أعجمي آخر ففعل به مثل ما فعل بالأول وانطلق يعدو، فلحق به ثالث وقد رأى مصرع صاحبيه وهما ابنا عمه فازداد حنقاً،فلما لحق بطليحة وبوّأ له الرمح ليطعنه عدل طليحة فرسه فانصب المجوسي أمامه وكرّ عليه طلحة وقد شرع رمحه ودعاه إلى الأسر ، وأدرك المجوسي أنه مقتول فاستسلم . وكانا قد اقتربا من معسكر المسلمين ، فأمره طليحة أن يركض بين يديه وهو يسوقه من خلفه برمحه وهو على فرسه فامتثل للأمر .

وأقبل جمع آخر من العجم يجدُّون في آثارهما فرأوا فارسَيهم وقد قتلا وشاهدوا الثالث يركض مستسلماً أمام طليحة وقد أوشكا على دخول معسكر المسلمين فأحجموا ونكصوا ثم عادوا من حيث أتوا .

لما علم المسلمون بزحف المجوس اليهم تعبأوا للقتال . وجاء طليحة على فرسه يسحب وراءه الفرس التي غنم وأسيره يعدو بين يديه ودخل عسكر المسلمين ففزعوا منه ثم أجازوه حين عرفوه ، فدخل على سعد .

قال له سعد : « ويحك ما وراءك ؟ »

قال طليحة : « دخلت عساكرهم وجُستها منذ الليلة وقد أخذت أفضلهم توسماً وما أدري أصبت أم أخطأت وها هوذا فاستخبره » .

مسلم الفارسي

وأقيم الترجمان بين سعد والأسير .

فقال الأسير : « أتؤمنني على دمي إنْ صدقتك ؟ »

قال : « نعم الصدق في الحرب أحب الينا من الكذب » .

قال: « أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قِبَلي. باشرت الحروب وغشيتها وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى ، ولم أر ولم أسمع بمثل هـذا . إن رجلاً قطع عسكرين لا يجترىء عليها الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ما هو دون ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته فأنذره ، فأنذرنا بـه فطلبناه ، فأدركه الأول وهو فارس النـاس يعدل ألف فارس فقتله ، فأدركه الثاني وهو نظيره فقتله ، ثم أدركته ولا أظن أنني خلفت بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين وهما ابنا عمي ، فرأيت الموت فاستأسرت » .

ثم أخبره عن جيش فارس بأن الجند مائة وعشرون ألفاً وأن الأتباع مثلهم خدام لهم . يعني أنهم كانوا جميعاً ٢٤٠٠٠٠ مائتين وأربعين ألفاً .

وأسلم الأسير فسماه سعد « مسلماً » ، وشهد مع المسلمين القادسية وكان من أهل البلاء . وعاد مسلم إلى طليحة فقال له :

« لا والله لا تهزمون ما دمتم على ما أرى من الوفـــاء والصدق والإصلاح والمؤاساة . لا حاجة لي في صحبة فارس » .

غارة اخرى

قال [1] سعد لقيس بن هبيرة الأسدي : « اخرج يا عاقل ، فإنه ليس وراءك من الدنيا شيء تحنو عليه حتى تأتيني بعِلـْم القوم » .

فخرج قيس ثم سرح سعد في أثره عمرو بن معدي كرب وطليحة بن خويلد فلحقا به وقد حاذى قنطرة القادسية فانضما اليه ، وانتهوا إلى خيل كثيرة بإزاء القنطرة تأتي من جهة عسكرهم قدمها أمامه جالنوس .

وصاح قيس بن هبيرة : « قاتلوا عدوكم يا معشر المسلمين » .

وأنشب القتال فظلوا يتبارزون ساعة ثم حمل عليهم فأصاب منهم اثني عشر

---

(١) الطبري ٣ / ٥١٤ س ش س عن محمد بن قيس عن موسى بن طريف .

قتيلاً وثلاثة أسرى وأصاب منهم بعض الغنائم وعادوا بذلك إلى سعد فقــال : « هذه بشرى إن شاء الله إذا لقيتم جمعهم الأعظم وحدّهم فلهم أمثالها » .

أراد سعد بإشراك عمرو وطليحة مع قيس بن هبيرة الأسدي في سريته تلك أن يمضّي على آثار ما كان في السرية السابقة . ودعاهما سعد بعد رجوع السرية .

فقال لهما : « كيف رأيتما قيساً ؟ »

قال طليحة : « رأيناه أكمانا » .

وقال عمرو : « الأمير أعلم بالرجال منا » .

قال سعد : « إن الله تعالى أحيانا بالإسلام وأحيا به قلوباً كانت ميتة وأمات به قلوباً كانت حية . وإني أحذركما أن تؤثرا أمر الجاهليــة على الإسلام فتموت قلوبكما وأنتما حيّان . إلزما السمع والطاعة والاعتراف بالحقوق ، فما رأى الناس كأقوام أعزهم الله بالإسلام » .

الباب الخامس

وجهاً لوجه

آخر الطريق

نزل رستم السيلحين وبات بها فلما أصبح من غده قدّم جالنوس [1] فنزل تجاه القنطرة في مواجهة زهرة بن الحوية والقنطرة بينهما. وبذلك وقف جيش رستم بن فرخزاذ وجيش سعد بن أبي وقاص وجهاً لوجه .

ونزل بهمن جاذويه منزل جالنوس بطيزناباذ .

ونزل رستم بمن معه من ميمنة وميسرة ومؤخرة منزل ذي الحاجب بهمن جاذويه بالخرارة .

ثم قدم بهمن جاذويه حتى إذا بلغ العتيق تياسر ، فلما كان تجاه قديس [الحصن الذي على خندق القادسية وهو الذي اتخذه سعد مقراً له] خندق خندقاً غير أنه لم ينزل فيه وإنما ارتحل جالنوس فنزل عليه حتى يظل في المقدمة .

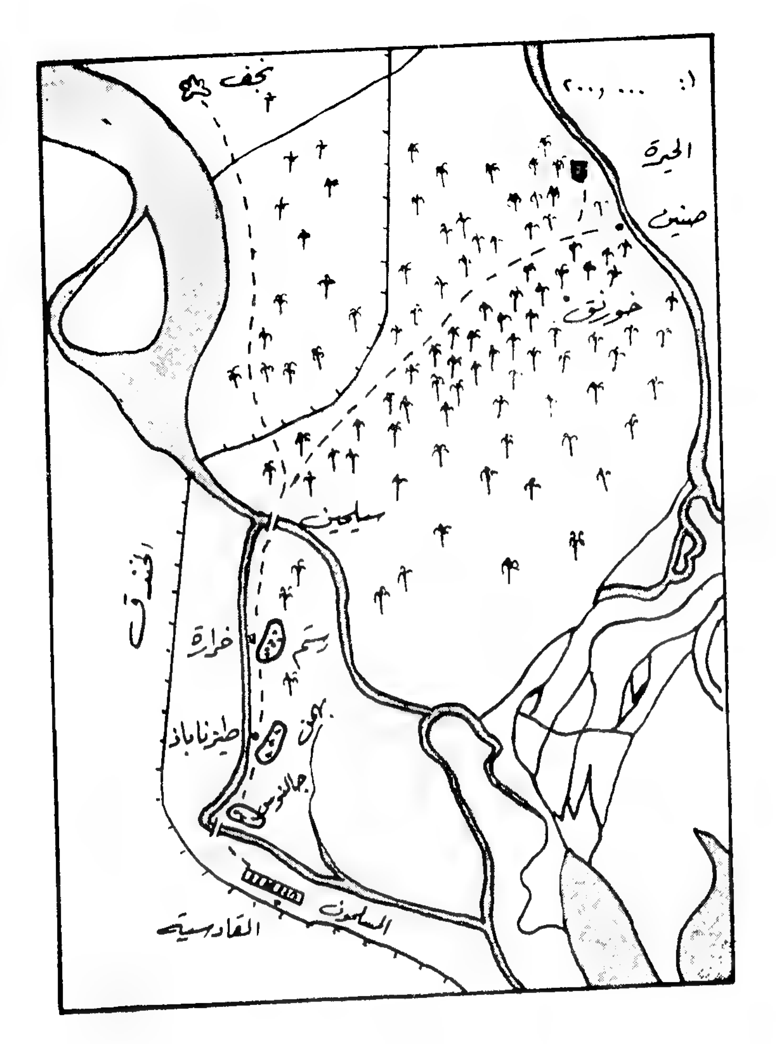
وبقيت للفرس خيل تجاه القنطرة خلف العتيق ، بينما زهرة والمقدمة على الجانب الآخر من القنطرة أمام العتيق .

وصلت السلحفاة

وأقبل رستم في قواته فوقف بهم أمام عسكر سعد من وراء العتيق ، ولا بد أن سعداً حينذاك كان ينظر اليهم من أعلى قُدَيْس يرقبهم ويقدرهم ويفحصهم

---

(١) الطبري ٣ / ٥١٥ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو وزياد وشاركهم المجالد وسعيد ابن المرزبان .



خريطة رقم (٦) مواقع ما قبل المعركة

فيرى أعداداً من الجند والخيل والأفيال لم تجتمع من قبل قط في حرب العراق . وأنزل رستم جنوده فما زالوا يتلاحقون وهو ينزلهم منازلهم ويحدد لهم أماكنهم حتى أعتموا ودخل الليل من كثرتهم .

وبات رستم وعسكره تلك الليلة من وراء العتيق والمسلمون ممسكون عنهم لا يحركون [1] ساكناً . لا شك أن العجم المجوس حال وصولهم إلى نهر العتيق لم يكونوا على التعبئة والمصاف الذي يمكنهم من الالتحام بالمسلمين فيما لو هاجموهم حينذاك ، ولكن هل كان من الصواب أن يشنّ المسلمون هجومهم عليهم وهم يصلون تباعاً ؟ إنه إغراء ولو فعلوه لكان ذلك خروجاً عن الخطة المرسومة ولا يجمل بقائد في الميدان أن يخرج عن خطته المدروسة المرسومة لاستهواء إغراء عرضي غير مدروس . ولو حدث ذلك فدارت الدائرة على المسلمين — وهو احتمال في الحرب جائز — لساء موقفهم أيما سوء إذ يكون العتيق وراء ظهورهم ومستنقعات الماء عن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولأعاد يوم الجسر نفسه على مقياس أكبر .

هواجس اخرى

وأصبحوا من ليلتهم تلك وهم بشاطىء العتيق ، فغدا منجم رستم على رستم بحلم رآه من الليل !

قال : « رأيت الدلو في السماء دلواً أفرغ ماؤه ، ورأيت السمكة في ضحضاح من الماء [الضحضاح من الماء: قريب القعر — الضحل] تضطرب ، ورأيت النعائم والزُّهَرة تزدهر » .

قال : « ويحك هل أخبرت بها أحداً ؟ »

قال : « لا » .

قال : « فاكتمها ! »

أف لهؤلاء المجوس . كانوا يتبعون الأحلام والتنجيم يؤمنون به حتى في أشد حالات الجد ، حتى لقد كان رستم يبكي مما يرى وما يراه منجموه [2] .

---

(١) الطبري ٣ / ٥١٥ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو وزياد وشاركهم المجالد وسعيد ابن المرزبان .

(٢) الطبري ٣/٥١٦ س ش س عن الشعبي .

بين رستم وزهرة

في هـذا اليوم أصبح رستم راكباً في خيله ، فنظر إلى المسلمين [1] ، ثم سار جنوباً بشرق محاذياً العتيق نحو خفان يستعرض المسلمين وينظر إليهم حتى بلغ إلى آخر عسكرهم ، فرجع وسار حتى بلغ القنطرة وهو يتأملهم ، وصعد على شيء مرتفع يشرف منه عليهم . ثم نزل واتجه نحو القنطرة فوقف عليها وراسل زهرة فخرج اليه حتى وقف معه ، فحدثه رستم حديثاً يريد به الصلح على أن يرجع المسلمون عنهم مقابل جُعْلٍ يجعله لهم . قال فيما قال :

« أنتم جيراننا وقـد كانت طائفة منكم في سلطاننا ، فكنا نحسن جوارهم ونكف الأذى عنهم ونوليهم المرافق الكثيرة ونحفظهم في أهل باديتهم فنرعيهم مراعينا ونميرهم من بلادنا ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا، وقد كان لهم في ذلك معاش » ...

وظل يعرّض لزهرة بالصلح تلميحاً لا تصريحاً .

قال زهرة : « صدقت . قـد كان ما تذكر ، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا طلبتهم . إنا لم نأتكم لطلب الدنيا وإنما طلبتنا وهمتنا الآخرة .

كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ويضرع اليكم يطلب ما في أيديكم، ثم بعث الله تبارك وتعالى الينا رسولاً فدعانا إلى ربه فأجبناه . فقال لنبيه ﷺ إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يَدِن بديني ، فأنا منتقم بهم منهم وأجعل لهم الغلبـة ما داموا مقرين به . وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ولا يعتصم به أحد إلا عز » .

قال رستم : « وما هو ؟ »

قال زهرة : « أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى » .

قال : « ما أحسن هذا ، وأي شيء أيضاً ؟ »

---

(١) الطبري ٣ / ٥١٧ س ش س عن النضر عن ابن الرفيل عن أبيه .

قال : « وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى » .

قال : « حسن ، وأي شيء أيضاً ؟ »

قال : « والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم » .

قال رستم : « ما أحسن هذا . أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر وأجبتكم اليه ومعي قومي ، كيف يكون أمركم أترجعون ؟ »

قال : « إي والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة » .

قال : « صدقتني . والله أما أن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السِّفْلة ، كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم تعَدَّوْا طورَهم وعادَوْا أشرافهم » .

فقال زهرة : « نحن خير الناس للناس ، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون. نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا » .

انصرف رستم فدعا حاشيته وتدارسوا هذا الحديث فسخنوا [1] منه وأنفوا . قال رستم : « أبعدكم الله وأسحقكم . أخزى الله أخرعنا [2] وأجبننا » . وكان الرفيل الذي تقدم ذكره ورغب في الإسلام حاضراً ذلك الاجتماع مع هؤلاء القوم الذين ذاكرهم رستم . يقول الرفيل هنا :

« فلما انصرف رستم ملتُ إلى زهرة فكان إسلامي وكنت له عديداً [أي معدوداً معه] وفرض لي فرائض أهل القادسية » .

رسل الى رستم

وأرسل رستم رجلاً إلى زهرة [3] يقول له :

---

(١) في الأصل « فحموا منه » بنفس المعنى .

(٢) الخرع : الرخاوة في الشيء ، وقد خرع الرجل أي ضعف فهو خرع – مختار الصحاح.

(٣) الطبري ٣ / ٥١٨ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو وزياد بإسنادهم .

« ٣ / ٥٢١ « « « عن أبي عثمان النهدي .

« ٣ / ٥٢٤ « « « عن محمد عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر .

و ٣ / ٥١٧ و ٥٢٤ « « « عن النضر عن ابن الرفيل عن أبيه . =

« إن رستم يقول لكم أرسلوا الينا رجلا نكلمه ويكلمنا » .

وانصرف . فأرسل زهرة إلى سعد بذلك ، وأرسل سعد إلى المغيرة بن شعبة وبسر بن أبي رهم وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وربعي بن عامر وقرفة [1] ابن زاهر التيمي الوائلي ومذعور بن عـدي العجلي والمضارب بن يزيد العجلي ومعبد بن مرة العجلي وكان من دهاة العرب ، فجاؤوا اليه وكانوا جميعاً ممن يثق سعد بدينهم ورأيهم .

قال : « إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم ؟ »

قالوا جميعاً : « نتبع ما تأمرنا به وننتهي اليه . فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء نظرنا أمثل ما ينبغي وأنفعه للناس فكلمناهم به » .

قال سعد : « هذا فعل الحَزَمة . اذهبوا فتهيأوا » .

قال ربعي بن عامر : « إن الأعاجم لهم آراء وآداب ، ومتى نأتيهم جميعاً يروا أنـّا قد احتفلنا بهم ، فلا تزدهم على رجل » .

فمالأوه جميعاً على ذلك .

فقال ربعي : « فسرّحوني » .

فبعثه سعد إلى هذه الوفادة .

ربعي بن عامر

خرج ربعي ليدخل على رستم عسكره فاحتجزه الذين على القنطرة وأرسلوا إلى رستم بمجيئه ، فاستشار عظماء قومه . قال :

= الطبري ٣ / ٥٢٤ س ش س عن مجالد عن الشعبي وسعيد بن المرزبان .
« ٣ / ٥٢٥ « « « عن عبيدة عن شقيق وقد شهد القادسية غلاماً بعدما احتلم .
« ٣ / ٥٢٦ « « « عن عمارة بن القعقاع الضبي عن رجل من يربوع شهدها .
« ٣ / ٥٧٤ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحق عن وهب بن كيسان عن عبدالله ابن الزبير .
الإصابة ٧٢٨٤ – ٨٤٤١ .

(١) ذكره ابن حجر باسم قرقرة بن زاهر التيمي – الإصابة ٧٢٨٤ .

« ما ترون ، أنباهي أم نتهاون ؟ »

فأجمعوا على التباهي [1] ، فأظهروا الزِبْرج وبسطوا البسط والنمارق [2] ولم يتركوا شيئاً ، ووُضع لرستم سرير الذهب وألبس زينته ووضعت الأنماط [3] والوسائد المنسوجة بالذهب . وأقبل ربعي على فرس له زَبَّاء [4] قصيرة ومعه سيف مجلو مصقول وغمده لفافة ثوب بال ورمحه تثلم حده بسير من جلد غير مدبوغ ومعه حجفة [ترس] من جلود البقر ليس فيه خشب ولا عقب على وجهها أديم [جلد] أحمر مستدير مثل الرغيف ، ومعه قوسه ونبله . فلما انتهى إلى رستم ووصل إلى اول البسط قيل له انزل فتجاهل ذلك وحمل فرسه على البساط فلما وقفت عليه نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما ثم أدخل الحبل فيهما فلم يستطيعوا أن ينهوه وإنما أروه التهاون . وأدرك ربعي ما أرادوا فأراد استحراجهم .

كان على ربعي درع له كأنها إضاة[5]، ورداؤه عباءة بعيره قد شقها وتدرّع بها فشدها على وسطه بشيء مما غنمه من الفرس في معاركه السابقة ، وقد شدّ رأسه بعمامته وكان أكثر العرب شعراً ، وعمامته نِسعة [6] بعيره ولرأسه أربع ضفائر قد قمن قياماً كأنهن قرون الوعول .

قالوا له : « ضع سلاحك » .

قال : « إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم . أنتم دعوتموني فإن أبيتم أن آتيكم إلا كما أريد وإلا رجعت » .

فأخبروا رستم فقال : « ائذنوا له ، هل هو إلا رجل واحد » .

---

(١) في الأصل : التهادن ، ونعتقد الصواب التباهي فهو الذي فعلوه .

(٢) النمارق : وسائد صغيرة للاتكاء .

(٣) الأنماط : نوع من البسط .

(٤) الأزب : كثير شعر الوجه والأذنين ، والأنثى زباء . وداهية زباء : أي عظيمة .

(٥) الاضاة : الغدير . ووجه الشبه في تموجها وسهولة حركتها مع حركة الجسم ولا يكون ذلك إلا في دروع الحلق المسرود .

(٦) النسعة : سير أو حبل عريض طويل تشد به الرحال .

وأقبل ربعي يتوكأ على رمحه — ومكان زُجّه نصل — يقارب الخطو ويزج النمارق والبسط بزج رمحه فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه منتهكاً مخرقاً. فلما دنا من رستم تعلق به الحرس فجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط.

قالوا : « ما حملك على هذا ؟ »

قال : « إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه » .

قال رستم : « ما جاء بكم ؟ »

قال ربعي : « الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم اليه ،فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا . ومن أبى قاتلناه أبـــداً حتى نفضي إلى موعود الله » .

قال رستم : « وما موعود الله ؟ »

قال : « الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي » .

فقال رستم : « قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ »

قال : « نعم ، كم أحب اليكم ؟ أيوماً أو يومين ؟ »

قال : « لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا » .

وأراد مقاربته ومدافعته .

قال ربعي : « إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا أن لا نمكن الأعداء من آذاننا ، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل »

اختر الإسلام وندعك وأرضك .

أو الجزاء [الجزية] فنقبل ونكف عنك ،وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه وإن كنت اليه محتاجاً منعناك .

أو المنابذة [الحرب] في اليوم الرابع .

ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ، أنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى » .

قال : « أسيدهم أنت ؟ »

قال : « لا ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم ».

وانفرد رستم برؤساء أهل فارس .

فقال : « ما ترون؟هل رأيتم كلاماً قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل؟»

قالوا : « معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هــذا وتدع دينك لهذا الكلب أما ترى إلى ثيابه ؟ »

قال : « ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ولكن أنظروا إلى الرأي والكلام والسيرة. إن العرب تستخف باللباس والمأكل ويصونون الأحساب. ليسوا مثلكم في اللباس ولا يرون فيه ما ترون ».

وأقبلوا اليه يتناولون سلاحه ويعاينونه ويزهدونه فيه .

فقال لهم : « هل لكم إلى أن تُرُوني فأريكم ؟ »

فأخرج سيفه من خِرَقه كأنه شعلة نار . فقالوا له : « اغمده » فغمده .

ثم وضعوا له تُرْساً ووضع لهم حجفته فرمى ترسهم بسهم فخرقه ورموا حجفته بسهم فسلمت .

فقال لهم : « يا أهل فـارس إنكم عظمتم الطعام واللباس والشراب وإنا صغرناهن » .

ثم تركهم ورجع الى معسكره إلى أن ينظروا إلى الأجل الذي منحه لهم وهو ثلاثة أيام .

حذيفة بن محصن

فلما كان من الغد بعث الفرس : « أن ابعث الينا ذلك الرجل » .

فبعث سعد اليهم حذيفة بن محصن وهو من الأزد وله تاريخ معروف . كان من قواد أبي بكر لقتال المرتدين وقد وجهه أبو بكر ومعه عكرمة بن أبي جهل

لقتال مرتدي الأزد في عمان ، فدعاهم حذيفة إلى الإسلام فأسلموا كلهم إلا أهل دبا فولاه أبو بكر عليهم ، ومات أبو بكر وحذيفة أميرهم . وكان من أصحاب الأيام بالعراق فكان مع المثنى بن حارثة وقد شهد معه البويب ثم كان على المقدمة في غارات المثنى على أسواق الشمال وأغار مع المثنى على تكريت .

وأقبل حذيفة على رستم في زي يشبه زي ربعي الذي ذهب به بالأمس حتى إذا كان على أدنى البساط قالوا له : « انزل » .

قال : « ذلك لو جئتكم في حاجتي ، فقولوا لملككم أله الحاجة أم لي ؟ فإن قال لي فقد كذب ورجعت وتركتكم ، فإن قال له لم آتكم إلا على ما أحب » .

فقال رستم : « دعوه » .

فدخل حذيفة بفرسه حتى بلغ رستم وهو على سريره .

فقال له رستم : « انزل » .

قال : « لا أفعل » . وأبى .

قال رستم : « ما بالك جئت ولم يجيء صاحبنا بالأمس ؟ »

قال : « إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء فهذه نوبتي » .

قال : « ما جاء بكم ؟ »

قال : « إن الله عز وجل منّ علينا بدينه وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكرين .

ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث فأيها أجابوا اليها قبلناها :

الإسلام وننصرف عنكم .

أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك .

أو المنابذة » .

فقال رستم : « او الموادعة إلى يوم ما » .

قال حذيفة : « نعم . ثلاثاً من أمس » .

ولم يجد رستم عنده إلا ذلك فردّه وأقبل على أصحابه فقال :

« ويحكم ، ألا ترون ما أرى ؟ جاءنا الاول فغلبنا على أرضنا وحقّر ما

نعظّم وأقام فرسه على زِبْر ِجِنا وربطه بـه فهو في يمن الطائر ذهب بأرضنا وما فيها اليهم مع فضل عقله . وجاءنا هـذا اليوم فوقف علينا فهو في يمن الطائر يقوم على أرضنا دوننا » .

وظل رستم يحدثهم بمثل هذا حتى أغضبهم وأغضبوه .

المغيرة بن شعبة

فلما كان الغد أرسل رستم إلى سعد أن يبعث اليه رجلاً فبعث اليه المغيرة بن شعبة . وجـاء المغيرة إلى القنطرة فأجازه زهرة إلى جالنوس فأبلغه إلى رستم فحجزوه حتى استأذنوا له ، ولم يغيّروا شيئاً من شاراتهم وزيّهم الذي كانوا عليه ، وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة [١] . ودعا رستم ترجمانه وكان عربياً من أهل الحيرة اسمه عَبُود . وأقبل المغيرة يمشي وله أربع ضفائر ، وفرق رأسه أربع فرق من بين يديه إلى قفـاه وفرق ما بين أذنيه[٢] ، وجاء حتى جلس مع رستم على سريره ووسادته ، فنخر أخو رستم ! ووثب الفرس فترتروه وأنزلوه ومغثوه [٣] .

قال المغيرة لأخي رستم: « لا تنخر ، فما زادني هذا شرفاً ولا نقص أخاك . كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هـذا الأمر لا يستقيم فيكم فلم نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتموني . اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » .

---

(١) الغلوة : عشر ميل ، حوالي ١٨٥ متراً .

(٢) الطبري ٣ / ٥٧٤ من حديث ابن إسحق .

(٣) مغثوه : زغدوه ، ومغث الرجل : ضربه ضرباً غـير مبرح . ترتر الشيء : حركه وزعزعه .

وإذا كان المغيرة يعرف الفارسية حينذاك فهو لم يظهر معرفته بهـــا فكان الترجمان يترجم مقالته . قال له المغيرة :

« ويحك يا عبود . أنت رجل عربي فأبلغه عني إذا أنا تكلمت كما تبلغني عنه » .

بينما قالت السِّفْلة من المجوس : « صدق والله العربي » .

وقالت الدهاقين : « والله لقـــد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون اليه ، قاتل الله أوّلينا ، ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة » .

من الطبيعي حين تفقد أمة حرية التعبير أن تميل إلى سماع ما يذيعه أعداؤها لا سيما إذا كان حقاً . وأراد رستم أن يمحو آثار ما حدث فقال وهو يمازحه :

« يا عربي إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق » .

ثم أشار إلى السهام التي معه وقال :

« ما هذه المغازل التي معك ؟ لا تروا أن هذه المغازل تغني عنكم شيئاً » .

قال : « ما ضر الجمرة ألا تكون طويلة [1] » .

ثم راماهم كما فعل ربعي في أمسه الأول .

قال رستم : « ما بال سيفك رثاً » .

قال : « رث الكسوة حديد المضربة » .

ثم عاطاه سيفه ليراه .

قال رستم : « تكلم أم أتكلم ؟ »

قال المغيرة : « أنت الذي بعثت الينا فتكلم » .

وتكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وطوّله وقال :

« لم نزل متمكنين في البـــلاد ظاهرين على الأعداء أشرافاً في الأمم ، فليس لأحد من الملوك مثل عزنا وشرفنا وسلطاننا ، نُنْصر على الناس ولا يُنصرون

---

(١) من المعروف أن سهام الفرس كانت طويلة وكانوا يسمونها نشاباً .

علينـا إلا اليوم واليومين أو الشهر والشهرين للذنوب، فإذا انتقم الله فرضيَ ردّ الينا عزنا وجَمَعْنا لعدونا شر يوم هو آت عليهم. ثم لم يكن في الناس أُمة أصغر عندنا أمراً منكم. كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة وشقاء وجهد. لا نراكم شيئاً ولا نعدّكم، وكنتم تأتوننا من بين تاجر وأجير ووافد، وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردّكم.

فأكلتم من طعامنـا وشربتم من شرابنا واستظللتم من ظلالنا، فذهبتم فدعوتم أصحابكم ثم أتيتمونا بهم، وإنمـا مثلكم مثل رجل كان له حائط [بستان] من عنب فرأى فيه ثعلباً واحداً فقال: ما ثعلب واحد، فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى الحائط فلما اجتمعن فيه جاءّ الرجل فسد الجحر الذي دخلن منه ثم قتلهن جميعاً.

وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فارجعوا عنا عامكم هذا فإنكم قد شغلتمونا عن عمارة بلادنا وعن عدونا ونحن نوقر لكم ركائبكم (١) قمحاً وتمراً، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثوبين وتنصرفون عنا فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم، فارجعوا عنا عافاكم الله!»

وتكلم المغيرة بن شعبة فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«إن الله خالق كل شيء ورازقه، فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه والذي له. وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء والتمكن في البلاد وعظم السلطان في الدنيا فنحن نعرفه ولسنا ننكره، فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم.

وأمـا الذي ذكرت فينا من سوء الحال وضيق المعيشة واختلاف القلوب فنحن نعرفه ولسنا ننكره، كنا في مثله أو أشد منه، أفضلنا في أنفسنا عيشاً

---

(١) أي نحمل لكم ركائبكم. والوقر: الحمل الثقيل.

الذي يقتل ابن عمه ويأخذ مـاله فيأكله ، نأكل الميتة والدم والعظام ، والله ابتلانا بذلك وصيّرنا اليه والدنيا دُوَل ، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا اليه ، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا اليها .

ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شكر كان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال . ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر كان عظيم مـا تتابع علينا مستجلباً من الله رحمة يُرَفِّه بها عنا. ولكن الشأن غير ما تذهبون اليه أو كنتم تعرفوننا به .

إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولاً وأنزل عليه الكتاب ، فدعانا إلى الله وإلى ما بعثه به فصدقه منا مصدّق وكذب منا آخر ، فقاتل من صدقه من كذبه حتى دخلنا في دينه من بين موقن به وبين مقهور حتى استبان لنـا أنه صادق وأنه رسول من عند الله . فأمرنا أن نقاتل من خالفنا ... » .

حتى قال : « ... فكان مما رزقنا الله على يديه حبة تنبت في أرضكم هذه ، فلما أذقناها عيالنا قالوا لا صبر لنا عنها فجئنا لنطعمهم أو نموت » .

فقال رستم : « إذاً تموتون أو تقتلون » .

قال المغيرة : « إذاً يدخل مَن قُتل منا الجنة ويدخل من قتلنا منكم النار ويظفر من بقي منـا بمن بقي منكم . فنحن نخيّرك بين إحدى ثلاث خِلال ، إلى الإسلام ولكم فيه ما لنـا وعليكم فيه ما علينا ، ليس فيه تفاضل بيننا ، أو الجزية عن يد وأنتم صاغرون .. »

فلم يفهمها رستم فسأل : « ما صاغرون ؟ »

قال المغيرة : « أن يقوم الرجل منكم على رأس أحدنا بالجزية يحمده أن يقبلها منه ، وإن احتجت الينا نمنعك . فكن لنـا عبداً تؤدي الجزية عن يد وأنت صاغر وإلا السيف إن أبيت . والإسلام أحب الينا منهما » .

فاستشاط رستم غضباً وقال: « ما كنت أظن أني أعيش حتى أسمع منكم هذا معشر العرب ». وخرج عن ما ينبغي أن يكون من أخلاقيات سادة الدول

وما يجوز من مستوى التفاوض بين الأمم فهبط إلى مستوى السُّوقة والدهماء ونخر نخرة ، ثم نسي أحلامه وتنجيمه فحلف بالشمس .

« لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أفرغ منكم وأقتلكم أجمعين . لا صلح بيننا وبينكم » .

وخرج المغيرة من مجلس رستم ، فلما صاروا وحدهم قال لهم رستم :

« أين هؤلاء منكم ؟ ما بعد هذا ؟ ألم يأتكم الأولان فحسراكم واستحرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا وسلكوا طريقاً واحداً ولزموا أمراً واحداً . هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين. والله لئن كان بلغ من إربهم وصونهم لسرهم أن لا يختلفوا فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم . لئن كانوا صادقين ما يقوم لهؤلاء شيء » .

فلجوا وجادلوا ، قال : « والله إني لأعلم أنكم تصغون إلى ما أقول لكم وإن هذا منكم رثاءً » .

فازدادوا الجاجة .

وأرسل [1] رستم مع المغيرة رجلاً وقال له إذا قطع القنطرة ووصل إلى أصحابه فناده : « إن الملك كان منجماً قد حسب لك ونظر في أمرك فقال إنك غداً تفقأ عينك » فقال له الرجل ذلك .

فقال المغيرة : « بشرتني بخير وأجر ولولا أن أجاهد بعد اليوم أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الأخرى ذهبت أيضاً » .

فرآهم يضحكون من مقالته ويتعجبون من بصيرته . ورجع الرجل إلى رستم بذلك .

فقال رستم : « أطيعوني يا أهل فارس وإني لأرى لله فيكم نقمة لا تستطيعون ردها عن أنفسكم » .

وكانت خيول الفرس تتحرش بخيول المسلمين ، تلتقي على القنطرة لا تلتقي

---

(١) الطبري ٣ / ٥٢٤ س ش س عن النضر بن الرفيل عن أبيه .

إلا عليها ، الفرس يبدؤون والمسلمون ممسكون عنهم الأيام الثلاثة لا يبدؤونهم ولكن يصدونهم ويردعونهم .

سائر الوفد

ثم بعث سعد إلى رستم [1] بقية ذوي الرأي فيما عدا ربعي وحذيفة والمغيرة فكانوا ستة ، خرجوا حتى جاءوه .

فقالوا له : « إن أميرنا يقول لك إن الجوار يحفظ الولاة ، وإني أدعوك إلى ما هو خير لنا ولك، العافية أن تقبل ما دعاك الله اليه ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك وبعضنا من بعض إلا أن داركم لكم وأمركم فيكم ، وما أصبتم مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا وكنا لكم عوناً على أحد إن أرادكم أو قوي عليكم.

واتق الله يا رستم ولا يكونن هلاك قومك على يديك فإنه ليس بينك وبين أن تغبط به إلا أن تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك » .

قال رستم: «إني قد كلمت منكم نفراً ولو أنهم فهموا عني رجوت أن تكونوا قد فهمتم . وإن الأمثال أوضح من كثير من الكلام ، وسأضرب لكم مثلكم تبصروا ..

إنكم كنتم أهل جهد في المعيشة وقشف في الهيئة،لا تمتنعون ولا تنتصفون فلم نسيء جواركم ولم ندع مواساتكم ، تقحمون المرة بعد المرة فنميركم [نمونكم] ثم نردكم ، وتأتونا أجراء وتجاراً فنحسن اليكم .

وقد أصاب أناس كثير منكم من أرضنا ما أرادوا ثم كان مصيرهم القتل [2] والهرب ، ومن سن هذا لكم [يقصد الفرس] خير منكم وأقوى . وقد رأيتم أنتم كلما أصابوا شيئاً أصيب بعضهم ونجا بعضهم وخرج مما كان أصاب [يقصد الزحوف السابقة ثم انسحابها] .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٢٥ س ش س عن محمد وطلحة وزياد .

(٢) يقصد يوم الجسر . الطبري ٣ / ٥٢٦ س ش س عن عمارة بن القعقاع الضبي عن رجل من يربوع شهدها .

فلما تطاعمتم بطعامنا وشربتم شرابنا وأظلكم ظلنا وصفتم لقومكم فدعوتموهم ثم أتيتمونا بهم . وإنما مثلكم في ذلك ومثلنا كمثل رجل كان له كرم فرأى فيه ثعلباً فقال وما ثعلب ! فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى ذلك الكرم فلما اجتمعن عليه سدّ عليهن صاحب الكرم الجحر الذي كن يدخلن منه فقتلهن . إنما مثلكم مثل ثعلب دخل جحراً وهو مهزول ضعيف إلى كرم فكان فيه يأكل ما شاء الله فرآه صاحب الكرم ورأى ما به فرحمه ، فلما طال مكثه في الكرم وسمن وصلحت حاله وذهب ما كان به من الهزال أشِر فجعل يعبث بالكرم ويفسد أكثر مما يأكل . فاشتد على صاحب الكرم فقال لا أصبر على هذا من أمر هذا ، فأخذ له خشبة واستعان عليه غلمانه فطلبوه وجعل يراوغهم في الكرم فلما رأى أنهم غير مقلعين عنه ذهب ليخرج من الجحر الذي دخل منه فنشب ، اتسع عليه وهو مهزول وضاق عليه وهو سمين . فجاءه وهو على تلك الحال صاحب الكرم فلم يزل يضربه حتى قتله . وقد جئتم وأنتم مهازيل وقد سمنتم شيئاً فانظروا كيف تخرجون !

ومن أمثالكم فيما تصنعون مثل جرذان ألفت جرة فيها حَب وفي الجرة ثقب ، فدخل الأول فأقام فيها وجعل الآخر ينقلن منها ويرجعن ويكلمنه في الرجوع فيأبى . فانتهى سمن الذي في الجرة [أي بلغ نهاية السمن] فاشتاق إلى أهله ليريهم حسن حاله فضاق عليه الجحر ولم يطق الخروج فشكا القلق إلى أصحابه وسألهم المخرج . فقلن له ما أنت بخارج منها حتى تعود كما كنت قبل أن تدخل ، فكفّ وجوّع نفسه وبقي في الخوف حتى إذا عاد كما كان قبل أن يدخلها أتى عليه صاحب الجرة فقتله . فاخرجوا ولا يكونن هذا لكم مثلاً .

إن رجلاً وضع سلاً وجعل طعامه فيه فأتى الجرذان فخرقوا سله فدخلوا فيه فأراد سده فقيل له لا تفعل إذاً يخرقنه ، ولكن انقب بحياله ثم اجعل فيه قصبة مجوفة فإذا جاءت الجرذان دخلن من القصبة وخرجن منها فكلما طلع عليكم جُرَذ قتلتموه . وقد سددت عليكم فإياكم أن تقتحموا القصبة فلا يخرج منها أحد إلا قتل .

وما دعاكم إلى ما صنعتم ولا أرى عدداً ولا عدة !؟

لم يخلق الله خلقاً أولع من ذباب ولا أضر أما خلاكم يا معشر العرب ، ترون الهلاك ويدليكم فيه الطمع . وسأضرب لكم مثلكم. إن الذباب إذا رأى العسل طار وقال من يوصلني اليه وله درهمان حتى يدخله لا ينهنهه أحد إلا عصاه ، فإذا دخله غرق ونشب وقال من يخرجني وله أربعة دراهم .

وقد علمت أن الذي حملكم على هـذا الحرص والطمع والجهد فارجعوا عنا عامكم هذا وامتاروا حاجتكم ولكم العود كلما احتجتم ، فإني لا أشتهي أن أقتلكم » .

فرغ رستم من ثرثرته العقيمة وأجابه [1] الوفد فقال قائلهم :

« أما ما ذكرتم من سوء حالنا فيما مضى وانتشار أمرنا [عدم اجتماعه] فلما تبلغ كنهه . يموت الميت منا إلى النـار ويبقى الباقي منا في بؤس ، فبينما نحن في أسوأ ذلك بعث الله فينا رسولاً من أنفسنا الى الإنس والجن ، رحمة رحم بها من أراد رحمته ، ونقمة ينتقم بها ممن رد كرامته . فبدأ بنا قبيلة قبيلة فلم يكن أحد أشد عليه ولا أشد إنكاراً لمـا جاء به ولا أجهد على قتله ورد الذي جاء به من قومه ثم الذين يلونهم ، حتى طابقناه على ذلك كلنا ، فنصبنا له جميعاً وهو وحده فرد ليس معه إلا الله تعالى فأعطي الظفر علينا ، فدخل بعضنا طوعاً وبعضنا كرهاً ثم عرفنا جميعاً الحق والصدق لما أتانا به من الآيات المعجزة ، وكان مما أتانا به من عند ربنا جهاد الأدنى فالأدنى فسرنا بذلك فيما بيننا نرى أن الذي قـال لنا ووعدنا لا يُخـْرم عنه ولا يُنقض حتى اجتمعت العرب على هذا ، وكانوا من اختلاف الرأي فيما لا يطيق الخلائق تأليفهم .

ثم أتيناكم بأمر ربنا نجـاهد في سبيله ونـَنـْفـُذ لأمره ونتنجز موعوده وندعوكم إلى الإسلام وحكمه ، فإن أجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلفنا فيكم كتاب الله ، وإن أبيتم لم يحل لنا إلا أن نعاطيكم القتـال أو تفتدوا بالجزي

(١) الطبري ٣ / ٥٢٨ س ش س عن محمد وطلحة بإسنادهما وزياد معها .

[الجزية] . فإن فعلتم وإلا فإن الله قــد أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم ، فاقبلوا نصيحتنا ، فوالله لإسلامكم أحب الينا من غنائمكم ، ولقتالكم بعدُ أحب الينا من صلحكم .

وأما مــا ذكرت من رثاثتنا وقلتنا فإن أداتنا الطاعة وقتالنا الصبر . وأما ما ضربتم لنا الأمثال ، فإنكم ضربتم للرجال والأمور الجسام وللجد الهزل . ولكنا سنضرب مثلكم . إنما مثلكم مثل رجل غرس أرضاً واختار لها الشجر والحب وأجرى اليها الأنهار وزينها بالقصور ، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ويقومون على جناتها ، فخلا الفلاحون في القصور على ما لا يحب وفي الجنا ن بمثل ذلك ، فأطال نظرتهم فلما لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم استعتبهم فكابروه ، فدعا اليها غيرهم وأخرجهم منها ، فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس وإن أقاموا فيهـــا صاروا خولا لهؤلاء يملكونهم ولا يملكون عليهم ، فيسومونهم الخسف أبداً .

ووالله إن لو لم يكن ما نقول لك حقاً ، ولم يكن إلا الدنيا لما كان عما ضرِينا به من لذيذ عيشكم ورأينا من زِبْرِجكم من صبر ولقارعناكم حتى نغلبكم عليه » .

نهاية المفاوضات

إلى هنا وقد جاءت هذه المفاوضات إلى نهايتها . وفي الواقع أنه لم يكن لأي مراقب أن يتوقع لها منذ البداية غير هذه النهاية .

قال رستم : « أتعبرون الينا أم نعبر اليكم ؟ »

قالوا : « بل اعبروا الينا » .

وخرجوا من عنده عشياً ، فأرسل سعد إلى وحدات المسلمين أن يقفوا مواقفهم . وأرسل إلى رستم يسمح له بالعبور ويقول له :

« شأنكم والعبور » .

وبدأت جموع الفرس تتجه نحو القنطرة ليعبروها ، وكان سعد في مقامه الطويل بموقع القادسية قد اعتزم أن يحتفظ في يده بهذه القنطرة لأهميتها البالغة. فهي مخرج سهل للمجوس حين تدور عليهم الدائرة لم يشأ أن يتركها لهم حتى لا يتاح لهذا الجيش الضخم أن ينسحب إلى مواقع أُخرى فيصمد في معارك تالية . المطلوب إبادة هذا الجيش — أو إبادة أكثر ما يمكن منه — لا مجرد دفعه إلى الوراء . الهدف تحطيم القوة العسكرية لفارس لا اكتساب قطعة من الأرض ، فإذا أبيد هذا الجيش انفتحت الأرض من ورائه ، أما اكتساب الأرض مع بقاء الجيش سليماً فإنه يكر في هجمات مضادة مرة بعد مرة ما دام متماسكاً سليماً كذلك رسم عمر خطته ، ولقد مر بنا فيما كتب إلى سعد « ... ثم الزم مكانك

فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم يجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبـداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ... » وفي رسالة أخرى « ... فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله ». هذه عبقرية الحرب للخليفة ومن واجب قائد الميدان « الفيلد مارشال » . أن ينفذ هذا ويحققه ، وإذا فلن يترك لهم القنطرة وقد استحوذ عليها .

فأرسل سعد إلى العجم رداً على إرادتهم عبور القنطرة يقول :

« لا ولا كرامة ، أما شيء قد غلبناكم عليه فلن نرده عليكم ، تكلفوا معبراً غير القناطر » .

فبات المجوس يردمون العتيق[1] بالزرع وبالتراب وبالقصب [البوص والغاب والاكياب] وببراذع رواحلهم وأمتعتهم طوال الليل حتى الصباح فجعلوه طريقاً واسعاً منبسطاً واستتم لهم بعدما ارتفع النهار من اليوم التالي . كان ذلك أمام قديس قصر القادسية وحصنها .

---

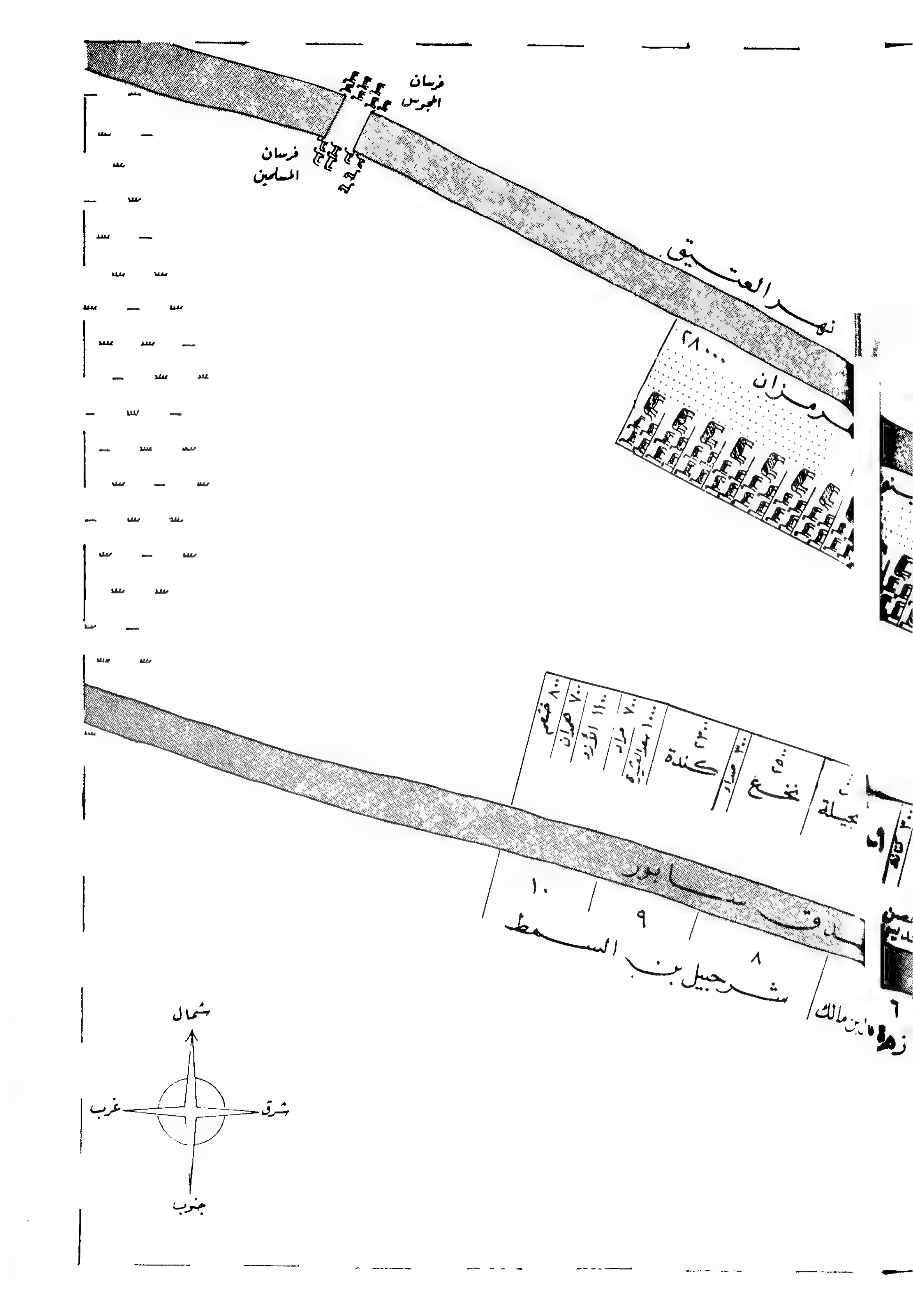
(١) يبدو أن النهر كان أشبه بخندق خال من الماء كعادة أنهر تلك المنطقة في الصيف . الطبري ٣ / ٥٢٩ س ش س عن محمد عن عبيد الله عن نافع وعن الحكم .

١ : ١٠٠٠٠   ١سم = ١٠٠ متر

معركة القادسيّة (١)

نهر العتيق
الردم
جالينـ
بهمن ٢٠٠٠٠
بيرزان ٢٤٠٠٠
مهران ٢٤٠٠٠
المشاة
الافيال
الفرسان

تميم
الرباب ١٥٠٠
بكر بن وائل
عبد قيس ١٥٠٠
١٠٠٠
١٠٠٠
قيس عيلان
حصن قديس
سعد
٦
٥
عاصم
٤
زهرة
٣
٢
١
عبد الله بن المعتم



فرسان المجوس
فرسان المسلمين
نهر العتيق
٢٨٠٠٠
٨٠٠ خثعم
٧٠٠ همدان
١١٠٠ الأزد
٧٠٠ مراد
كندة
نخع
بجيلة
١٠
٩
٨
٦
شرحبيل بن السمط
ابن مالك
شمال
شرق
غرب
جنوب



الباب السادس

أرماث

الخميس ١٣ شعبان ١٥ هـ – ١٩ سبتمبر (ايلول) ٦٣٦ م

عبور

نام رستم وراح الأتبـاع من جيشه يردمون العتيق . ومع أصوات المعاول أغفى رستم فعاودته أحلامه ورأى ذلك الحـلم المتكرر . رأى ملكاً ينزل من السماء فيأخذ قسيّ أصحابه فيختم عليها ثم يصعد بها إلى السماء. فاستيقظ مهموماً محزوناً ، ودعا خاصته فقص عليهم ما رأى ، ثم انفعل فقال :

« إن الله ليعظنا لو أن فارس تركوني أتعظ ! أما ترون النصر قد رفع عنا وترون الريح مع عدونا ، وأنا لا نقوم لهم في فعل ولا منطق ، ثم هم يريدون مغالبة بالجبرية [بالإرغام] » .

ثم شرعوا يعبرون العتيق بأثقالهم حسب تعبئتهم فرقـة وراء فرقة ، كلما عبرت فرقة أخذت [1] مواقعها وصفت صفوفها .

وألقى رستم جانباً هواجسه وتشاؤمه وعمل بالواجب عليه من الظهور بمـا يليق بقائد شجاع يستعرض لياقته وفروسيته ، فأمر بفرسه فأسرج وأتي به اليه فوثب فوقه فإذا هو عليه لم يمسه ولم يضع رجله في الركاب .

ثم قال : « غداً ندقهم » .

قال له رجل : « إن شاء الله » .

قال رستم بكل كفره: « وإن لم يشأ [2] ! إنما ضغا الثعلب حين مات الأسد

---

(١) الطبري ٣ / ٥٢٩ س ش س عن محمد وطلحة وزياد وعمرو بإسنادهم .

(٢) « ٣ / ٥٢٩ « « « عن الأعمش .

– يذكرهم بموت كسرى برويز – قد خشيت أن تكون هذه سنة القرود » .

ونصب لرستم سرير أمام العتيق وضرب عليه طيارة [نظنها سرادقاً مفتوحاً أو مظلة تصفق الريح أطرافها] وجلس رستم على هذا السرير يباشر إشرافه على تعبئة جيشه ووضع فرقـه في أماكنها وصف صفوفها . ونصبت إلى جوار رستم على يمين سريره راية فارس الكبرى « درفش كابيان » على خُشُب موصولة طوال [١] . كان مع رستم في هذا الحشد ثلاثة وثلاثون فيلاً جعل في القلب ثمانية عشر فيلاً منها ، عليها الصناديق الخشبية فيها الرجال . وجعل في الميمنة ثمانيـة أفيال وفي الميسرة سبعة وكلها عليها الصناديق فيها الرجال . كان الميدان محدوداً بحدود تحصره وليس فيه مجال لمقدمة ومؤخرة . كان هرمزان على ميمنة رستم فوضع قوات المقدمة وعليها جالنوس بينهما . وكان مهران على ميسرته فوضع رستم بيرزان وقواته من الطلائع بينهما . وخشي رستم أن يترك للمسلمين فرصة الالتفاف من وراء العتيق فوضع خيلاً من وراء القنطرة حيث كانت خيل المسلمين أمامها فبقيت القنطرة بين خيلين من خيول المسلمين والمجوس كل منها تغلقها على الطرف الآخر .

سلاح الاشارة

أما عن الاتصال بالمدائن فقد وضع له يزدجرد نظاماً جديداً مستحدثاً بدلاً من نظام البريد التقليدي ، وقـد بدأ ذلك من يوم بُعث رستم من المدائن ، فقد وضع رجلاً على باب إيوانه وأمره بلزوم مكانه ذاك فلا يبرحه ،ووضع رجلاً آخر من الدار حيث يسمعه الرجل الاول الذي على باب الإيوان ، وثالثاً خارج الدار حيث يسمعه الرجل الثـاني وهكذا على كل « دعوة » [وهي مسافة السمع] . فلما نزل رستم بساباط قال الذي بها « قد نزل » فأعادها الذي يليه ليبلغ بهـــا الذي بعده وهكذا حتى قالهـــا الذي على باب الإيوان . وهكذا كان كلما نزل

---

(١) ذكرناها بإفاضة في الجزء الاول من « الطريق الى المدائن»، ص ٩٣ ،فصل الأعلام والرايات من باب عدة الحرب » .

رستم أو ارتحل أو حدث أمر صاح بـه الذي عنده ثم الذي يليه حتى تبلغ من بباب الإيوان ، فنظم ما بين العتيق والمدائن رجالا وترك نظام البريد . هـذه الطريقة التي كان عليها أن تغطي مسافة تبلغ حوالي ٢٢٠ كيلومتراً بين القادسية والمدائن تقديرنا أنها كانت تحتاج إلى حوالي ٢٠٠٠ [ألفين] من الرجال ذوي السمع الحاد والعقائر العاليـة ، ونقدر أن الجملة المكونة من أربع كلمات كانت تصل من القادسية إلى المدائن في حوالي أربع ساعات في حين كان يصل البريد في حوالي ثلاثة أيام .

هذا في حين كان سعد يعتمد في اتصاله بعمر على ان يبعث اليه كل يوم بريداً. وكان النـاس في كافة شبه الجزيرة فيما بين العذيب الى عدن وفيما بين الأبلة وأيلة [العقبة] يتابعون باهتمام بالـغ ما يكون من أمر القادسية حتى أن كان الرجل ليريد الأمر فيقول لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية[1] . وكان عمر يخرج كل يوم حين يصبح حتى ينتصف النهار يستخبر الركبان عن أهل القادسية[2] .

مصاف

وأخذ المسلمون مصافهم فأدخل سعد المقدمة وعليها زهرة بن حوية التميمي، وكذلك المؤخرة وعليها عاصم بن عمرو التميمي في الوسط بين ميمنة عبد الله بن المعتم وبين ميسرة شرحبيل بن السمط . ووكل الطـّراد [المبارزة] الى صاحب الطلائع سواد بن مالك الأسدي ، وشغل المسافات والفجوات فخلط بين الجند في القلب والمجنبات . ونادى منادي سعد في جيشه :

« ألا إن الحسد لا يحل إلا على الجهـاد في أمر الله يا أيها الناس ، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد » .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٨٣ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة .
(٢) « ٣ / ٥٨٣ « « « عن مجالد بن سعيد .

سعد مريض

رأينا فيما سبق أهمية القائد العام في المعركة . ولقد اعتاد المسلمون دائماً أن يجدوه بينهم على صهوة جواده كواحد منهم . كذلك كان خالد وكذلك كان المثنى والقعقاع وعاصم والأقرع وغيرهم . أما اليوم فقد تحالفت الأمراض والأدواء على سعد فأصابته بعرق النَّسَا [1] وبحبوب ودمامل منعته من الركوب بل حتى من الجلوس فلم يستطع أن يركب ولا أن يجلس فاعتلى القصر وأكب من فوقه على وسادة في صدره يشرف على الناس ، وأسفل منه في الميدان خليفته خالد بن عرفطة يرمي اليه من أعلى بالرقاع فيها أمره ونهيه . وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر [2] .

شغب

والفرس في مصافهم ، والمسلمون في صفوفهم ، ومن الجائز أن تبدأ المعركة في أي لحظة بأمر يصدره قائد أي من الفريقين اختلف الناس على خالد بن عرفطة وكان ممن شغب عليه واعترض قوم من وجوه الناس .

ورأى سعد أن الأمر لا يحتمل هذا وأنه يحتاج إلى حزم .

فقال : « احملوني وأشرفوا بي على الناس » .

---

(١) عرق النسا مرض يطلق على إصابة عصب الطرف السفلي الأسفل Siatic nerve وهو يتكون من الأعصاب القطنية والعجزية التي تبدأ في أسفل العمود الفقري وتتجمع وتكون العصب الذي يمتد لبعض الوقت على جانب العمود الفقري في أعلى الحوض ثم يتجه خلف عظمة الحوض ويأخذ مجراه خلف الفخذ وخلف بطن الرجل ثم الى أصابع القدم . فإذا التهب هذا العصب فإن المريض به يحس بألم شديد يبدأ من أسفل العمود الفقري في الظهر إلى خلف الفخذ والساق الى أصابع القدم . ويزداد هذا الألم بالحركة والمشي ويقل عند النوم على الظهر دون حركة (العربي ١٣٥ - فبراير ١٩٧٠) .

(٢) الطبري ٣ / ٥٣٠ س ش س عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .

٣ / ٥٣١ « « عن القاسم بن الوليد الهمداني عن أبيه عن أبي نمران .

٣ / ٥٧٣ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن وهب بن كيسان عن عبد الله بن الزبير .

فارتقوا به فأكب على وجهه مطلعاً عليهم وصفهم أسفل حائط قُدَيْس .

فخطبهم وقال : « .. أمَ والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالاً لغيركم » .

ثم أمر بالمشاغبين فحبسوا ، وكان ممن حبس أبو محجن الثقفي ، حبسهم سعد وقيدهم في القصر .

فقال جرير بن عبد الله البجلي يؤازر سعداً : « أما إني بايعت رسول الله ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر وإن كان عبداً حبشياً » .

وقال سعد : « والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سننت سنّة يؤخذ بها من بعدي » .

سكن الناس بعد ذلك ولزموا الطاعة فخطبهم سعد . حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن الله هو الحق لا شريك له في الملك وليس لقوله خلف .

قال جل ثناؤه، ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون .

إن هذا ميراثكم وموعود ربكم وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها وتقتلون أهلها وتَجْبُونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم .

وقد جاءكم منهم هـذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كل قبيلة وعِزُّ من وراءكم ، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ولا يقرّب ذلك أحداً إلى أجله ، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا [1] آخرتكم » .

وكتب سعد الى الرايات :

« إني قـد استخلفت عليكم خالد بن عُرْفُطَة . وليس يمنعني أن أكون

---

(١) الطبري ٣ / ٥٣١ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .

مكانه إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبون . [الحبوب والدمامل] . فإني مكب على وجهي وشخصي لكم باد فاسمعوا وأطيعوا فإنه إنما يأمركم بأمري ويعمل برأيي » .

وقرىء هذا المنشور على المسلمين فزادهم خيراً وانتهوا الى رأيه وقبلوا منه وتحاثوا على السمع والطاعة وأجمعوا على عذر سعد والرضا بما صنع .

الحماس للمعركة

ورجع أمير كل جند الى موقفه من أصحابه وخطب أمير كل قوم أصحابه وتحاضوا على الطاعة والصبر وتواصوا [١] .

قام عاصم بن عمرو [٢] في المجردة فقال : « إن هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم وأنتم الأعلون والله معكم إن صبرتم وصَدَقْتمُوهم الضرب والطعن فلكم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم وبلادهم .

وإن خُرّتم وفشلتم والله لكم من ذلك جار وحافظ لم يبق هذا الجمع منكم باقية مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك .

الله الله .. اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها .

أوَلا ترون أن الأرض وراءكم بسابس قفارٌ ليس فيها خَمَر [غطاء] ولا وَزَر يُعقل اليه ولا يمتنع به ؟ اجعلوا الآخرة همكم » .

عبر المجوس نهر العتيق وعبر رستم ثم سار فنزل بين الحصن والعتيق وقد وافقهم ومؤذن سعد يؤذن لصلاة الغداة . وقد كان رستم حين نزل النجف بعث عيناً منهم الى معسكر المسلمين بالقادسية فانغمس فيهم كواحد منهم — ولا بد أن ذلك العين كان من عرب العراق ، ولم يكن من الفرس — فرآهم يستاكون عند كل صلاة ثم يصلون فيفترقون الى مواقفهم ، فرجع اليه فأخبره بخبرهم وما

---

(١) الطبري ٣ / ٥٣٥ السري عن شعيب عن سيف عن حلام عن مسعود .
(٢) » » » » » » عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.

رأى من سيرتهم حتى سأله ما طعامهم ، فقـال : « مكثت فيهم ليلة ، لا والله ما رأيت أحـــداً منهم يأكل شيئاً إلا أن يمصوا عيداناً لهم حين يمسون وحين ينامون وقبيل أن يصبحوا » .

فلما أذن مؤذن الغداة رآهم رستم يستاكون فنادى في الجوس أن يركبوا .

فقيل له : « ولِمَ ؟ »

قال : « أما ترون إلى عدوكم قد نودي فيه فتحشحشوا [تحركوا] لكم » .

قال عينه ذلك : « إنما تحشحشهم هذا للصلاة » .

فقال رستم: « بادِ تَشهَان مَرَ انْدَر [ومعناها أتاني صوت بالغداة — يقصد الأذان] أكل عمر كبدي أحرق الله كبده . وإنمـا هو عمر الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل ، علـّم هؤلاء حتى [1] علموا » .

وأرسل سعد إلى الذين تنتهي اليهم آراء الناس مثل النفر الذين أتوا رستم : المغيرة بن شعبة وحذيفة بن محصن وبسر بن أبي رهم وعرفجة بن هرثمة وربعي بن عامر وقرفة بن زاهر ومذعور بن عدي والمضارب بن يزيد ومعبد بن مرة ، وإلى أصحاب النجدة مثل طليحة بن خويلد الأسدي وقيس بن هبيرة الأسدي وغالب ابن عبد الله الليثي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي وأمثالهم ، وإلى الشعراء مثل الشماخ بن ضرار والحطيئة وأوس بن مَغراء وعَبْدَة بن الطبيب ، وإلى ذوي الفضل منهم من سائر الأصناف فأرسلهم إلى المسلمين في مواقفهم وقال لهم :

« انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم فسيروا في الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال » .

فساروا في المسلمين بما كلفوا به .

قال قيس بن هبيرة الأسدي: « أيها الناس احمدوا الله على ما هداكم له وأبلاكم

---

(١) الطبري ٣ / ٥٣٢ س ش س عن حلام عن مسعود .
« ٣ / ٥٣٢ « « « عن النضر بن الرفيل .

يَزدِ كم ، واذكروا آلاء الله وارغبوا اليه في عاداته فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم، وإنه ليس وراء هـذا القصر إلا العراء والأرض القفر والظِّراب [1] الخُشُش والفلوات التي لا يقطعها الأدلة » .

وقال غالب بن عبد الله : « أيها الناس احمدوا الله على ما أبلاكم وسلوه يزدكم وادعوه يجبكم ، يا معاشر مَعَدّ ما عِلّتُكُم اليوم وأنتم في حصونكم [يعني الخيل] ومعكم من لا يعصيكم [يعني السيوف] ، واذكروا حديث الناس في غد فإنه بكم غداً يُبدَأ عنده ، وبمن بعدكم يُثنّى » .

وقال ابن الهُذَيل الأسدي : « يا معاشر معد اجعلوا حصونكم السيوف وكونوا عليها كأسود الأجم وتربدوا لهم تربُّد النمور ، وادَّرعوا العجاج [2] . وثقوا بالله ، وغضوا الأبصار، فإذا كلت السيوف فإنها مأمورة ، فأرسلوا عليهم الجنادل [الحجارة] فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه » .

وقال بسر بن أبي رهم الجُهَني : « احمدوا الله وصدقوا قولكم بفعل فقد حمدتم الله على ما هداكم له ووحدتموه ولا إله غيره وكبرتموه وآمنتم بنبيه ورسله فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ولا يكونن شيء بأهون عليكم من الدنيا فإنها تأتي من تهاون بها ولا تميلوا اليها فتهرُب منكم لتميل بكم وانصروا الله ينصركم».

وقال عاصم : « يا معاشر العرب انكم أعيان العرب وقد صمدتم الأعيان من العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون [3] بالدنيا ، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم . لا تحدثوا اليوم أمراً تكونون به شيناً على العرب غداً .

وقال ربيع بن البلاد السعدي : « يا معاشر العرب قاتلوا للدين والدنيا

---

(١) ظراب جمع ظرب وهي الرابية الصغيرة . والخش التل .

(٢) العجاج الغبار ، والدخان أيضاً . والعجاج كل ذي صوت من قوس وريح ونحوهما (مختار الصحاح) .

(٣) الخطر السبق الذي يتراهن عليه – مختار الصحاح . يعني تسابقون على الجنة ويسابقون على الدنيا . وصمدتم : قصدتم .

وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . وإن عظّم الشيطان عليكم الأمر فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار أهل » .

وقال ربعي بن عامر : « إن الله قد هداكم للاسلام وجمعكم به وأراكم الزيادة وفي الصبر الراحة ، فعوّدوا أنفسكم الصبر تعتادوه ولا تعودوها الجزع فتعتادوه » .

وقام كلهم بمثل هذا الكلام وتواثق المسلمون وتعاهدوا واهتاجوا لكل ما كان ينبغي لهم . وفعل أهل فارس فيما بينهم مثل ذلك وتعاهدوا وتواصوا واقترنوا بالسلاسل . وكان المقترنون في صفوف الفرس ثلاثين ألفاً .

أوضاع الجيشين

وقد نظم رستم جيشه في الميدان كالآتي :

١٢٠٠٠٠ مقاتل [بصرف النظر عن التبع] معهم ٣٠ فيلا [بصرف النظر عن ثلاثة أفيال للملوك لا تقاتل] ، مع كل فيل ٤٠٠٠ مقاتل [1] من المشاة والفرسان . ذهبنا فيما سبق إلى أن نصفهم كان فرساناً . وكان آخر صفهم على حافة العتيق ، المشاة في الخلف والأفيال أمامها وأمام الأفيال الفرسان . ثم كانت تعبئتهم كما أوضحنا في الخريطة (ص ١٢٠) ، وهي كالآتي :

هرمزان على الميمنة — ٧ أفيال ١٤٠٠٠ فرسان ١٤٠٠٠ مشاة — جند الأهواز .

جالنوس على يساره — ٦ أفيال ١٢٠٠٠ فرسان ١٢٠٠٠ مشاة — جند الباب .

بهمن في الوسط — ٥ أفيال ١٠٠٠٠ فرسان ١٠٠٠٠ مشاة — جند همدان .

بيرزان على يساره — ٦ أفيال ١٢٠٠٠ فرسان ١٢٠٠٠ مشاة — جند نهاوند وسجستان .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٣٥ س ش س عن مجالد عن الشعبي .
فتوح البلدان ٦٣٤ .

مهران على الميسرة — ٦ أفيال ١٢٠٠٠ فرسان ١٢٠٠٠ مشاة — جند الري والجبـــال .

وكان سرير رستم وطيارته وإلى يمينه راية فارس الكبرى (درفش كابيان) يقع في قطاع بهمن جاذويه .

وكان صف المسلمين مع حائط قُدَيْس ، والخندق [١] من ورائهم ، وكانت تعبئتهم كما أوضحناها في الخريطة (ص١٢٠)[٢]. وكان عامة ما يتقون به البراذع — براذع الرحال — وقد أعرضوا فيها الجريد يترسون بها عن أنفسهم ، وعصب من لم يكن له وقاية رؤوسهم[٣] بالأنساع [الجلد] أنساع الرحال ، يطوي الرجل نِسع رحله على رأسه يتقي به ، والفرس عليهم دروع الحديد واليلامق [اليلمق : ثوب محشو] .

أربع تكبيرات

وأرسل سعد أمراً إلى جيشه « إلزموا مواقفكم . لا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر فإني مكبّر تكبيرة فكبّروا وشدّوا شسوع نعـالكم واستعدوا واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم واعلموا أنمـــا أعطيتموه تأييداً لكم .

فإذا كبرت الثانية فكبروا وتهيّؤوا ولتستتم عدتكم .

فإذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشّط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا .

فإذا كبرت الرابعة فشدّوا النواجذ على الأضراس واحملوا فازحفوا جميعـاً حتى تخالطوا عدوكم وقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله » [٤] .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٣٥ س ش س عن حلام عن مسعود بن خراش .

(٢) هذه الخريطة (ص ١٢٠) سنوضح في الباب الأخير أسس رسمها .

(٣) الطبري ٣ / ٥٥٣ س ش س عن عمرو بن الريان عن اسماعيل بن محمد .

٣ / ٥٧٥ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن عبد الله بن أبي بكر .

(٤) الطبري ٣ / ٥٣٥ س ش س عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .

« « « عن عمرو بن الريان عن مصعب بن سعد .

« « « عن زكرياء عن أبي اسحق .

وكان عمر قد ألزم سعداً غلاماً وكان من القراء . فلما صلوا الظهر أمر سعد الغلام أن يقرأ سورة الجهاد – وهي سورة الأنفال – وكان المسلمون يتعلمونها كلهم . فقرأ على أقرب الكتائب اليه فقرئت في كل كتيبة . فهشّتْ قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها [١] .

الطراد « المبارزة »

فلما فرغ القراء كبَّر سعد من فوق القصر فكبَّر الأقربون اليه الذين يلونه وكبر الناس بتكبير بعض فتحشحش الناس [تحركوا حماساً] .

ثم كبر الثانية فاستتم الناس ووقفوا مستعدين .

ثم كبر الثالثة فبرز أهل النجدة من الفرسان فأنشبوا القتال ، وخرج لهم فرسان من المجوس فتبادلوا الطعنات والضربات . وكان أول من قتل أعجمياً يوم القادسية ربيعة [٢] بن عثمان بن ربيعة أحد بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ابن منصور [يعني كان في الميمنة] .

وخرج أمام صفوف بني أسد ، غالب بن عبد الله الأسدي وهو ينشد :

قد عَلِمَتْ واردةُ المسالح ذات اللبّان والبنان الواضِح
أني سَمامُ البطل المُشايح وفارِجُ الأمر المهم الفادح [٣]

فخرج اليه هرمز وكان من ملوك البـاب على رأسه تاج ، فأسره غالب أسراً فجاء به سعداً فأدخله عليه وانصرف إلى مبارزة جديدة .

وخرج عاصم بن عمرو أمام مواقع بني تميم وهو يقول :

قد عَلِمَت بيضاء صفراء اللبّب مثل اللجَيْن إذ تغشاه الذهب

---

(١) الطبري ٣ / ٥٣٦ السري عن شعيب عن سيف عن حلام عن مسعود بن خراش .
« « « عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .

(٢) فتوح البلدان ٦٤٦ .

(٣) المسالح : مواقع السلاح . اللبان : الصدر . البنان : استعارة لقوائم الخيل . سمام : الذي آتي بالسموم .

أني امرؤ لا من يعينه السبب مثلي على مثلك يغريه العتب [1]

فطارد رجلاً من العجم فهرب منه وتبعه عاصم حتى خالط صفهم فالتقى بفارس معه بغل فترك الفارس البغل واعتصم بأصحابه فاحتمى بهم ، واستاق عاصم البغل والرَّحْل حتى بلغ صف المسلمين فكشف عن الغنيمة فإذا ذلك الرجل كان طبـاخ رستم وإذا ذلك الذي كان معه طعامه من الأخبصة والعسل المعقود فأتى به سعداً ورجع إلى موقفه ، فلما نظر فيه سعد قـال انطلقوا به الى أهل موقفه .

وقال : « إن الأمير قد نفلكم هذا فكلوه » .

وأعطاه لهم ، فتغدى عاصم ومن معه يومها بغداء رستم .

وهذه المبارزات دائرة بين الفرسان على طريقة الكر والفر ، وصفوف المشاة متكتّبة في انتظار التكبيرة الرابعة من سعد ، قام قائد مشاة بني نهد من قضاعة وكان اسمه قيس بن حِذْيَم بن جرثومة يخطب فيمن معه .

قال : « يا بني نهد انهدوا ، إنما سميتم نهداً لتفعلوا » .

هذا أمر منه لجنده بالتحرك قبل أن يأمر القائد العام بذلك فبعث اليه خالد ابن عُرْفُطة [خليفة سعد] يقول :

« والله لتكُفُنَّ أو لأوَلِّيَنَّ عملك غيرك » .

فكف الرجل .

وخرج فارس من الفرس يصيح « مَرْد ومَرْد » يعني رجل لرجل يطلب المبارزة . وكان ذلك أمام القطاع الذي تشغله [2] بجيلة و كندة ، وكان عمرو بن معدي كرب الزبيدي يسير بفرسه بين الصفين يحرض المسلمين ويحمسهم ويقول : « يا معشر المهاجرين [المجاهدين] كونوا أسوداً فإنما الأسد من أغنى شأنه .

---

(١) بيضاء صفراء اللبب يقصد بها فرسه ، السبب : الوسيلة كناية عن ثقته بنفسه أنـه يدخل بدون وسيلة القتال ، كلما عتبوا علي في شدتي عليك يغريني ذلك بك .

(٢) نفس المصدر ، الطبري ٣ / ٥٣٧ س ش س عن اسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم (البجلي) قال مر بنا عمرو بن معدي كرب وهو يحضض الناس بين الصفين ... الخ .

إن الرجل من هذه الأعاجم إذا ألقى مزراقه [فقد قوسه] فإنما هو تيس » ..

ووقف ذلك العجمي بين الصفين وكان من أساورتهم لا يكاد تسقط له نشابة، فرمى عَمْراً بنشابة فأصابت سية قوسه وهو متنكبها [معلقها في منكبه وراء ظهره] فالتفت اليه عمرو ثم حمل عليه فبارزه ثم اعتنقه وأمسكه من حزامه وسحبه من فوق فرسه فحمله ووضعه بين يديه على فرسه هو ثم عـــاد به الى صفوف المسلمين فلما اقترب منهم كسر عنقه ورماه على الأرض ونزل اليه فذبحه من حلقه بالسيف وأخذ سلبه سوارين من ذهب ومنطقة من ذهب ويلمقاً من ديباج وعاد يقول للمسلمين :

« هكذا فاصنعوا بهم » .

قالوا : « يا أبا ثور من يستطع أن يصنع كما تصنع ! » .

التحام

ثم وقع حادث مؤسف فريد من نوعه، فقد خرج من صفوف المسلمين رجل من ثقيف ارتد ولحق بالمجوس، فأخذوا رأيه عمن يوجهون اليه هجومهم فأحالهم على بجيلة وأخبرهم أن بأس المسلمين في الجانب الذي به بجيلة [١] .

فوجه الفرس الى الوجه الذي فيه بجيلة ثلاثة عشر فيلاً هي كل جناحهم الأيمن بقيادة هرمزان وجالنوس [يعني ٥٢٠٠٠ مقاتل] . وألقت هـذه القوة الكبيرة بثقلها على بجيلة، وألقوا تحت أرجل خيولها حسك الحديد ورشقوهم بالنشاب فكأنه المطر عليهم . وربط العجم خيلهم بعضها الى بعض لئلا يفروا، هذا وسائر المسلمين والفرس على مواقفهم .

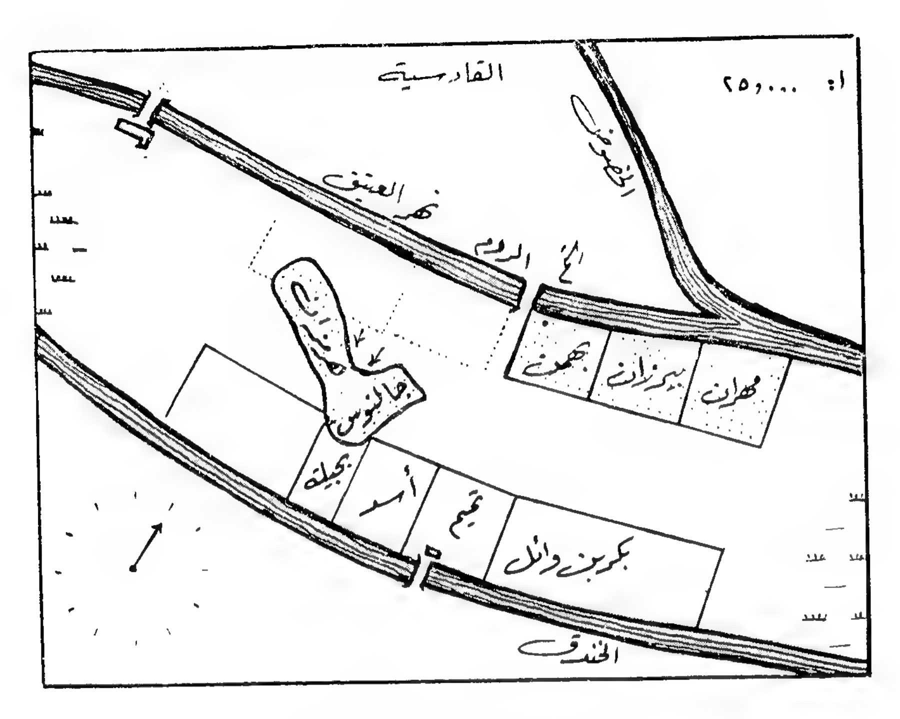
وفرقت الأفيال ما بين الكتائب فنفرت خيول المسلمين وثبت مشاتهم بغير اعتماد على الخيل حتى كاد المجوس أن يطحنوا بجيلة ومن كان معهم في مواقفهم من

---

(١) الطبري ٣ / ٥٧٦ عن ابن حميد عن سلمة بن محمد بن اسحق بن اسماعيل بن أبي خالد مولى بجيلة عن قيس بن أبي حازم البجلي وكان ممن شهد القادسية مع المسلمين .

النخع وصُداء وكندة . وأرسل سعد إلى بني أسد وهم ثلاثــة آلاف على ميمنة بجيلة يقول لهم :

« ذَبِّبوا عن بجيلة ومن لافَّها من الناس » .



خريطة رقم (٨) القادسية (٢)

الزحف

فقام (١) طليحة بن خويلد [الذي كان صاحب ردة بني أسد ثم عاد الى الإسلام وحسن إسلامه وبلاؤه] ، قام في قومه من بني أسد فقال :

« يا عشيرتاه ، إن المنوّه باسمه [يقصد أسداً — هو] الموثوق به .

وإن هذا لو علم أن أحدا أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم .

ابتدئوهم الشَّدَّة وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحَرِبَة ، فإنما سميتم أسدا لتفعلوا فعله .

شدوا ولا تصدوا [يعني اهجموا ولا تقفوا مدافعين] وكروا ولا تفروا .

لله در ربيعة ، أيّ فَرِيٍّ يَفْرُون وأيّ قِرْن يُغْنُون ، هل يوصل إلى مواقفهم !

فأغنوا غناء مواقفكم أعانكم الله .

شدوا عليهم باسم الله » .

وخرج حمّال بن مالك الأسدي والربيل بن عمرو وغالب بن عبد الله الليثي [ليث من كنانة وكنانة إخوة أسد وكانوا ثلاثمائة أخذوا مواقفهم مع أسد] كل خرج من كتيبته نحو الفيلة. قال المعرور بن سويد وشقيق بن سلمة الأسديان:

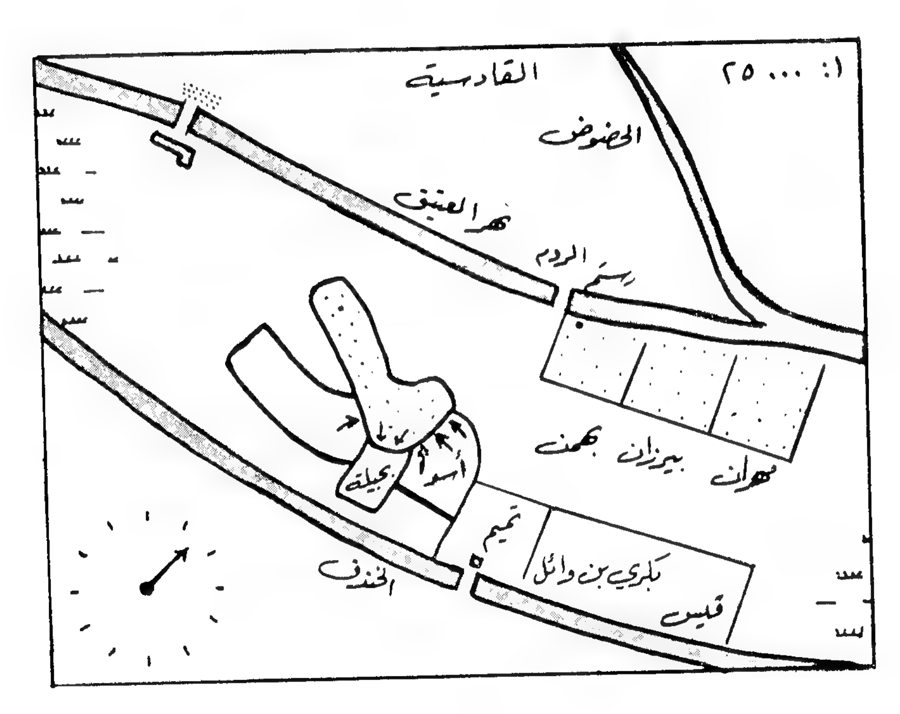
الطبري ٣ / ٥٣٨ س ش س عن محمد وطلحة وزياد .

« « عن محمد بن قيس عن موسى بن طريف .

« فشَدوا والله عليهم فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبسنا الفيَلة عنهم فأخِّرَت [وفي أثناء ذلك] خرج لطليحة عظيم منهم فبارزه فما لبّثه طليحة أن قتله » .

والتقى طليحة بجالنوس وجهاً لوجه فضربه طليحة ضربة على رأسه فشقت مغفره طولاً [1] ولم تنفذ إلى رأسه . وقال :

أنا ضربت الجالنوسَ ضَرْبَهْ حين جيادُ الخيلِ وَسْط الكبَّهْ [2]



خريطة رقم (٩) القادسية (٣)

(١) فتوح البلدان ٦٤٢ و ٦٤٧ .
(٢) الكبة : الكوكبة ، وهي الحاشية .

يقول الرواة : « وإن على كل فيل عشرين رجلا » . ونرى في هـذا الرقم مبالغة فما نظن فيلا يتسع لحمل عشرين رجلا .

وكانت بطولة بني أسد في هـذا الهجوم مثار إعجاب المسلمين وهم ينظرون اليهم ، وكانوا يتسابقون الى البطولة والفداء فقـام الأشعث بن قيس الكندي [زوج أم فروة أخت أبي بكر الصديق] في قومه من كندة فقال :

« يا معشر كندة لله دَرُّ بني أسد أي فَرِيٍّ يَفْرُون وأيَّ هَذٍّ يهذّون عن موقفهم !

منذ اليوم أغنى كل قوم ما يليهم وأنتم تنتظرون من يكفيكم البأس .

أشهد ما أحسنتم إسوة قومكم العرب منذ اليوم وإنهم ليُقتلون ويقاتلون وأنتم جُثاة على الرُّكَب تنظرون » .

وكانت المبارزة جثواً على الركب من الأساليب الدفاعية في القتـال [ارجع إلى فصل السيف من باب أسلحة العرب من كتابنا الطريق إلى المدائن] . فوثب اليه عشرة منهم فقالوا :

« عثّر الله جدّك ، إنك لتؤبّسنا جاهداً ونحن أحسن الناس موقفاً ، فمن أين خذلنا قومنا العرب وأسأنا إسوتهم ، فها نحن معك » .

فتحوّل موقف كندة من الدفاع إلى الهجوم فأزالوا مَن أمامهم من المجوس وردُّوهم إلى الوراء [1] .

ولما رأى العجم مـا يصنع بنو أسد بالأفيال وجهوا اليهم جالنوس وبهمن جاذويه [٤٤٠٠٠ مقاتل نصفهم من الفرسان و ١١ فيلا] . كذلك جمع كناري قائد الجردة [الخيل] فرسانه وألقى بهم ضد أسد . كان هرمزان ملتحماً بميسرة المسلمين ، أمـا سائر المسلمين في القلب والميمنة [كل من عن يمين أسد] فكانوا ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد، وبنو أسد تدور عليهم رحى الحرب ثابتون

---

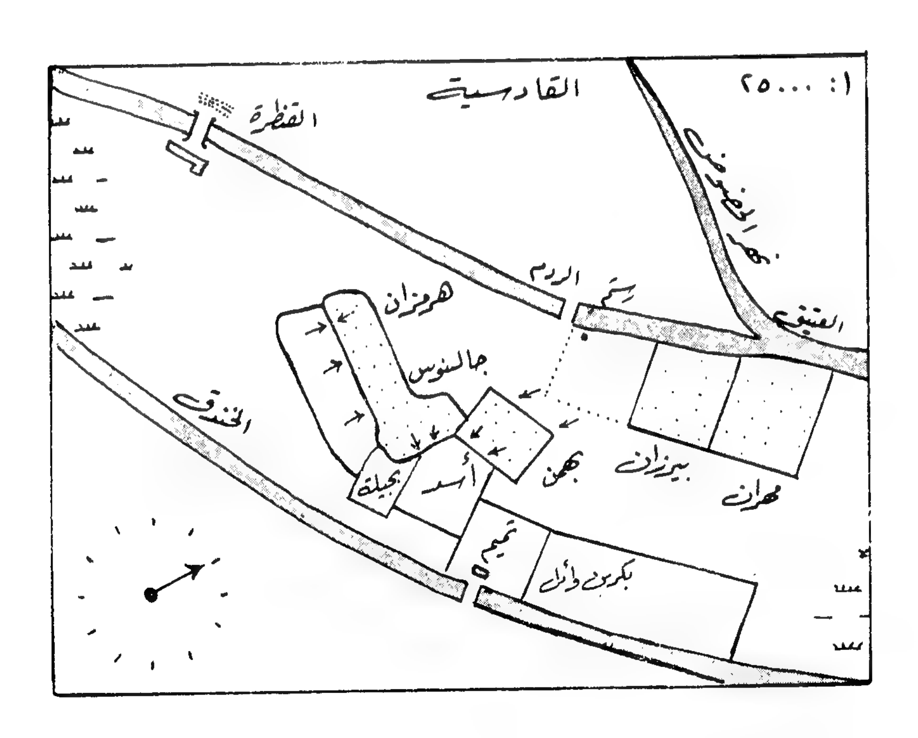
(١) الطبري ٣ / ٥٣٨ س ش س عن محمد بن قيس عن موسى بن طريف .

للمجوس ، فكبّر سعد التكبيرة الرابعـة فزحف جميع المسلمين ونشطت فيول المجوس على طول خط القتـــال فحملت في الميمنة والميسرة على خيول المسلمين فكانت الخيل تخاف منها فتحجم عنها وتحيـد عن طريقها ، وكان فرسانها يلحّون على المشاة أن يمنعوا ظهور الخيل ويردّوها إلى الأمام .

وأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو من يقول له :

« يا معشر بني تميم ، ألستم أصحاب الإبل والخيل ! أما عنـــدكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ »

قالوا : « بلى والله » .



خريطة رقم (١٠) القادسية (٤)

ثم نادى في قومه فجمع أفضل من في بني تميم من الرماة وآخرين لهم مهارة وخفة حركة في القتال، ووضع خطته على أساس مشاغلة ركبان الفيلة ثم مهاجمتها من الخلف في غفلة منهم . قال لهم :

« يا معشر الرماة ذُبُّوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل » .

وقال : « يا معشر أهل الثقافة استدبروا الفيلة فقطعوا وُضُنَها [1] » .

وخرج معهم يحميهم ويقودهم فشقوا طريقهم نحو الأفيال التي تهاجم بني أسد والرحى تدور عليهم .

---

(١) الوضن : الأحزمة التي تثبت توابيتها على ظهورها .

وامثنياه

كان سعد يرقب ذلك من فوق القصر لا يطيق الجلوس ممـا به إلا مستوفزاً أو منبطحاً على بطنه ، فكان يتململ ويتقلب لا يصبر على ما يرى . وكانت امرأته سلمى بنت خصفة أرملة المثنى تنظر معه من فوق القصر وترى ما يرى ، فلما شاهدت ما يصنع جند البـــاب يقودهم جالنوس وجند همدان يقودهم بهمن بقبيلة أسد قالت :

« وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم » .

وكان سعد قــد أضجره ما كان في نفسه وما يرى في أصحابه على مسافة ثلاثمائة إلى أربعمائة متر منه ، فلطم وجهها من الغيظ وقال :

« أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى [يعني أسداً] وعاصماً وخيله ؟ »

وأثارت هذه العبارة ذكريات المثنى الزوج الراحل العظيم .

لو كان المثنى حياً لكان له هنا مع الأعاجم شأن كشأنه يوم الجسر بالمروحة ويوم البويب ويوم بغداد ، ويوم كل يوم لقي المجوس فيه . ولئن لطمها سعد بيده فلتلطمه بلسانها وهو الذي تستطيـع .

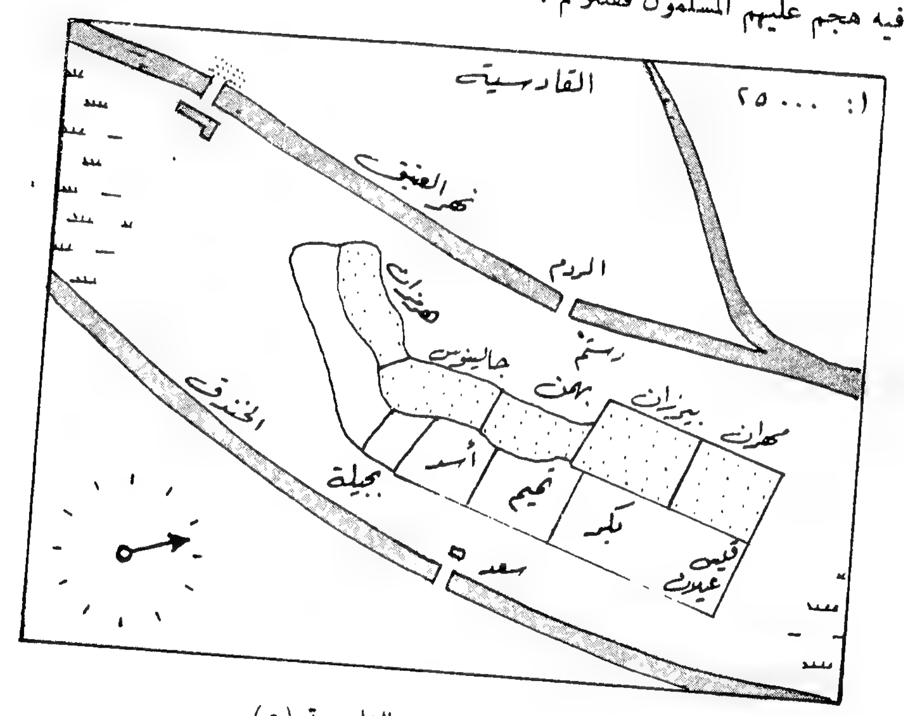
قالت : « أغيرة وجبناً !؟ »

تعيره انبطاحه فوق القصر وعدم ركوبه مع جيشه .

قال : « والله لا يعذرني اليوم أحد إذا أنت لم تعذريني وأنت تَرَيْن ما بي والناس أحق ألا يعذروني »(١) .

نتيجة يوم أرماث

وأمطر رماة تميم الذين كلفهم عاصم ركبان الأفيال بوابل من سهامهم والتحموا معهم في معركة تراشق ، وفيما هم مشغولون بذلك تمكن الآخرون من بلوغ مواقع خلف كل فيل فأخذوا بأذنابها وأربطة توابيتها فقطعوها وارتفع عواء الأفيال فما بقي للمجوس يومئذ فيل إلا أعرى . وكان كلما سقط صندوق بمن فيه هجم عليهم المسلمون فقتلوهم .



خريطة رقم (١١) القادسية (٥)

(١) الطبري ٣ ٥٤٢ عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .
٣ ٥٧٥ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن عبد الله بن أبي بكر .

فتنفست أسد ، وردت تميم عنها هجوم العجم إلى مواقفهم الأولى، ثم اقتتلوا حتى غربت الشمس ودخل بعض من الليل . وكان يوماً مجهدا فرجع المسلمون ورجع المجوس كل إلى مواقعه الأولى وقد قتل من بني أسد يوم أرماث خمسمائة رجل من الآلاف الثلاثة ، فحملت بنو أسد عبء ذلك اليوم عن الناس وكان عاصم بن عمرو حامي الناس الذي رد عادية المجوس عنهم .

وقال عمرو بن شأس الأسدي :

لقد عَلِمَتْ بنو أسَدٍ بأنـّا	أولو الأحلام إن ذكروا الحُلوما (١)
وأنـّا النازلون بكلّ ثغْرٍ	ولو لم نُلْفِه (٢) إلا هَشِيما
ترى فينا الجيـاد مُسوّماتٍ	مع الأبطال يَعْلُكْنَ (٣) الشّكيما
ترى فينا الجيـاد مُجلّحاتٍ	تُنَهْنِهُ عن فوارسها الخُصوما (٤)
بجمعٍ مثل سَلمٍ مُكفَهِرّ	تشبّهُهُم إذا اجتمعوا قروما (٥)
بمثلهمُ تُـلاقي يوم هَيْجٍ	إذا لاقيت بأساً أو خصوما
نفينـا فارساً عمـا أرادتْ	وكانتْ لا تُحاوَل أن تَرِيما (٦)

لماذا أرماث

حملت أيام القادسية أسماء أرماث وأغواث وعماس . ولم نجـد أحداً من الرواة أو المؤرخين القدماء ولا من الكتاب المحدثين حاول أن يفسر هذه الألفاظ أو يقوم لها معنى ، وقد ذكر الدكتور محمد حسين هيكل أنه لم يجد لهذه الأسماء

---

(١) أولو الأحلام : أصحاب العقول ، والحلوم : العقول .

(٢) نلفه : نجده أو نتركه ، فهي من الأضداد .

(٣) يعلكن : يمضغن ، والشكيمة حديدة اللجام التي توضع في فم الحصان .

(٤) مجلحات : هاجمات ، جلح الفرس على القوم حمل عليهم وهجم ، تنهنه تكف وتمنع .

(٥) سلم مكفهر : سلم ساخن ، كناية عن الاستعداد للمعركة ، القروم : اللحم المكوم كناية عن الكثرة .

(٦) يريم من المكان : يتركه .

أي تعليل . والكلمات الثلاث ليست أسماء أماكن . وفي اللغة رمث الشيء بالشيء خلطه – وأرمث الحالب في الضرع أبقى فيه شيئاً – وأرمث واسترمث في حاله أبقى وترك – وحبل أرماث ورماث خلِق . هكذا في المنجد .

ونستطيع أن نلمح هـذه المعاني في ذلك اليوم ، فقد اختلطت فيه شدته على المسلمين وعلى المجوس ، ولم تنته المعركة إلى نتيجة حاسمة شأن كل ما سبق من المعارك التي كانت تنتهي في يوم ، بل بقي منها شيء للأيام التالية . هذا ما نذهب اليه في تعليل تلك التسمية والله أعلم .

ليلة الهدأة

توقف القتال بعد العشاء ، وباتت الجبهة في هدوء ، تحاجز هؤلاء عن هؤلاء ولذلك سميت ليلة الهدأة . وقد أتاحت هذه الهدأة لبعضهم أن ينفلت أثناء الليل إلى العذيب للقاء أهله ونقل الأخبار اليهم .

وفي مضارب نساء المسلمين بالعذيب جلست الخنساء بنت عمرو شاعرة بني سليم المخضرمة ومعها بنوها أربعة رجال تعظهم وتحرضهم على القتال .

قالت [1] : « إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم [جاهدتم] مختارين . وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين . واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية . يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

فإن أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين . فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت

---

(١) الاستيعاب ٢٨٧ نساء - الإصابة ٣٥٥ نساء - وفي النص أنها قالت : « ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم ... » ولكن من المعلوم أن أولاد الخنساء لم يكونوا أبناء رجل واحد فقد تزوجت مرتين ، الأول عبد العزى بن رواحة وأنجبت منه أبا شجرة ، والثاني مرداس بن أبي عامر وأنجبت منه زيد (وقيل يزيد) ومعاوية وعمراً (الخنساء شاعرة بني سليم - د. محمد جابر الحيني ٧٦) . وقد ذهبت الدكتورة بنت الشاطىء إلى أن الرواية موضوعة ، وحسبنا إسقاط هذه الفقرة منها ، ولعل هذه الفقرة في النص أن تكون تسللت إلى قصة الخنساء من قصة المرأة النخعية بعدها .

لظى على سياقها وحللت [تفجرت] ناراً على أرواقها [جوانبها] ، فتيمموا وطيسها [وسطها] وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها [جيشها] تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة ! »

فخرج بنوها قابلين لنصحها عازمين على قولها فلما أضاء الصبح باكروا مراكزهم .

وكانت امرأة من النخع لها بنون أربعة شهدوا القتال ذلك اليوم ، فلما بدأ الصباح ينبلج قالت لهم :

« إنكم أسلمتم فلم تبدلوا ، وهاجرتم فلم تثربوا [1] ، ولم تَنْبُ [2] بكم البلاد تُقْحِمكم السَّنَة [3] . ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين أيدي أهل فارس ، والله إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة . ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم . انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره » .

فانصرفوا عنها مسرعين يشتدون . فلما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء وهي تقول : « اللهم ادفع عن بنيّ » .

فرجعوا اليها بعد ذلك وقد أحسنوا القتال ما جرح منهم رجل جرحاً [4] .

تلك أمهات لم تتضع حتى فقدت عواطف الأمومة ، ولكنها ارتفعت بإيمانها إلى مصاف فوق مستوى ما نعهد من الأمهات . كانت كل منهن تعلم أن الموت حق وأن أحداً لن يموت حتى يستوفي أجله فكانت تضن ببنيها أن يعتد على أحد منهم بجبن أو خور عند الزحف وحين البأس . إذاً كان ذلك هو حال النساء الأمهات العجائز فكيف إذاً كان حال الرجال ! لنعود اليهم في اليوم الثاني .

---

(١) تعني لم تكن هجرتكم إلى يثرب .

(٢) لم تنب بكم البلاد : لم تلفظكم .

(٣) السنة : القحط والجوع .

(٤) الطبري ٣ / ٥٤٤ س ش س عن مجالد عن الشعبي ، ويقول : « فرأيتهم بعد ذلك يأخذون ألفين ألفين من العطاء ثم يأتون أمهم فيلقونه في حجرها فترده عليهم وتقسمه فيهم على ما يصلحهم ويرضيهم » . وكان عطاء أهل القادسية ألفين حين أنشأ عمر الديوان .

الباب السابع

أغواث

الجمعة ١٤ شعبان ١٥ هـ - ٢٠ سبتمبر (ايلول) ٦٣٦ م

صباح جديد

نحن الآن في اليوم الثاني - أغواث - من أيام معركة القادسية . أصبح الصباح والجيشان على تعبئة وقد حمل المسلمون شهداءهم وجرحاهم من أرض المعركة ، بينما ترك المجوس جثث قتلاهم ملقاة كما هي حيث قتلت . وقد وكل سعد رجالاً ينقلون الجرحى إلى مضارب المسلمين بالعذيب حيث النساء يقمن عليهم يمرضنهم إلى قضاء الله عز وجل عليهم . كذلك وكل رجالاً ينقلون الشهداء إلى مُشَرّق وهو واد بين العذيب وبين عين الشمس فدفنوا في جانبيه القريب من العذيب والبعيد عنها وكان النساء يحفرن القبور . سبحان الله .. عجباً لامرأة تحفر قبراً لا تدري يدفن فيه بعد قليل زوج أو أخ أو ابن أو أب او غريب ، إنه شهيد من المسلمين وكفى فكلهم الآن سواء . كان المسؤول عن شؤون الشهداء والجرحى [١] حاجب بن زيد الأنصاري من الأوس وكان ممن شهد أحداً . ووقف المسلمون في الميدان ينتظرون حمل الشهداء والجرحى ، فما أن خرجت [٢] بهم الإبل وتوجهت نحو العذيب حتى طلعت نواصي الخيل الآتية من الشام .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٥٠ س ش س عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .
الإصابة ١٣٥٩ وقال حاجب بن زيد بن تيم بن أمية بن خفاف بن بياضة .

(٢) الطبري ٣ / ٥٤٢ س ش س عن محمد وطلحة .

جيش خالد يعود

لقد خرج خالد من العراق في صفر ١٣ هـ. بنصف جيش العراق حينذاك الى الشام ، فأدرك عمليات الشام . ومن حيث كانت الحـــالة راكدة في العراق في انتظار القادسية والإعداد لهـــا بينما كانت المعارك دائرة في الشام فقد ترك عمر ذلك الجيش في الشام يخوض معاركها الواحدة تلو الأخرى مع أبي عبيدة بن الجراح . فلما أن لاحت بوادر القادسية وكان المسلمون قـــد تم لهم فتح دمشق كتب عمر الى أبي عبيدة بصرف جيش العراق، أصحاب خالد، الى العراق — ولم يذكر خالداً — حينئذ كان أبو عبيدة في خيار بين أن يبعثه مع جيشه أو أن يتمسك به ، فضن به لنفسه حيث كان يعتمد عليه أكبر الاعتماد فبعث الجيش بدونه الى العراق . ذلك الجيش كان تسعة آلاف يوم خرج مع خالد ولكن الروايات [١] تذكر أن العائدين الى العراق كانوا ستة آلاف منهم خمسة آلاف عدنانيين من ربيعة ومضر وألف قحطانيين من أفناء أهل حجاز اليمن من مراد وهمدان وغيرهم . وأمّر عليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو ابن أخي سعد ابن أبي وقاص . وكانت مقدمتهم ألفاً عليها القعقاع بن عمرو وقـد قدمه هاشم أمامه . وكان على الميمنة قيس بن مكشوح المرادي ، ولم يكن قيس المرادي ممن شهد فتوح العراق مع خالد وإنما أتاهم وهم باليرموك ثم انضم الى هـــذا الجيش المنتقل من الشام الى العراق. وكان على الميسرة الهزهاز بن عمرو [٢] العجلي وعلى المؤخرة [الساقة] أنس بن عباس السلمي [٣] . ويبدو لنا أن هذا الجيش كان هو جيش خالد في جملته لا في تفصيله ، فكما رأينا لقد ذهب الجيش تسعة آلاف وعاد ستة آلاف كذلك كان يحتوي على عناصر لم تكن منه حين غادر العراق مع خالد .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٤٣ س ش س عن محمد وطلحة .

(٢) الطبري والإصابة ٨٩٥٩ .

(٣) الطبري والاصابه ٢٧١ ، وكان أنس صحابياً قدم على رسول الله في سبعمائة على بني سليم عام الفتح فأسلموا .

القعقاع في المعركة

وأسرع القعقاع بالمقدمة فسبق أصحابه وطوى المسافة فبلغ القادسية صبيحة يوم أغواث [1] . وقبل دخولهم إلى القادسية قسم القعقاع أصحابه إلى عشرات — مائة عشرة — كلما بلغ عشرة منهم مدى البصر سرحوا في آثارهم عشرة أخرى ، وكان القعقاع في أول دفعة فأتى الناس وسلّم عليهم وبشّرهم بالجنود وقال :

« يا أيها الناس إني قد جئتكم في قوم والله إن لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم حظوتها وحاولوا أن يطيروا بها دونكم . أيها الناس اصنعوا كما أصنع ».

مصرع بهمن جاذويه

وتقدم القعقاع بين الصفين في القطاع الذي يشغله قومه من بني تميم وهو قلب الجيش أمام القصر ثم نادى : « من يبارز ؟ »

أي لياقـة بدنية تلك التي تتيح لصاحبها أن يأتي من سفر بعيد مثل هـذا ثم يلتحم لحظة وصوله ! واطمأن المسلمون كثيراً لتواجد القعقاع معهم ونزلت عليهم السكينة وقالوا فيه بقول أبي بكر :

« لا يهزم جيش فيهم مثل هذا » .

صدق أبو بكر وصدق أيضاً حين قال : « لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل » .

وخرج ذو الحاجب لنداء القعقاع ولم يكن القعقاع قـد التقى به من قبل ولا عرفه إلا سماعاً ، فقال له القعقاع : « من أنت ؟ »

قال : « أنا بهمن جاذويه » .

ففار الدم في عروق القعقاع وكأنما وجـد شيئاً كان يبحث عنه فصاح :

« يا لثأرات أبي عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر » .

---

(١) كان فيهم قيس بن أبي حازم وهو ابن تسع عشرة سنة .
الطبري ٣ / ٥٤٣ س ش س عن محمد وطلحة .

ثم تبارزا بالسيوف فقتله القعقاع ، فكان بهمن جاذويه قائد قلب المجوس في القادسية وقائدهم يوم جسر المروحة أول القتلى يوم أغواث .

الطراد والمبارزة

ثم انضم الى القعقاع ثلاثة نفر لمؤازرته وهم :
نُعَيم بن عمرو بن عتاب .
وعتاب بن نعيم بن عتاب بن الحارث بن عمرو بن همام .
وعمرو بن شبيب بن زنباع بن الحارث بن ربيعة ، أحد بني زيد .
وكلهم رياحيين من بني يربوع بن حنظلة من تميم .

وكان القعقاع يرمي ببصره نحو الطريق وصارت خيله تطلع قطعاً كلما طلعت قطعة كبّر القعقاع وكبّر المسلمون ثم يحمل على المجوس للمبارزة ويحمل معه اليربوعيون الثلاثة . وظلت الخيل تطلع وترد دفعات حتى الليل فينشط المسلمون لذلك ويدب فيهم الأمل وكأن لم يكن بالأمس مصيبة . فبدأ يوم أغواث بمبشرات خففت عنهم وشدّت من أزرهم كثيراً ... تواجد القعقاع .. وصول المدد .. ومصرع بهمن جاذويه .. واختفاء الفيلة جميعاً فقد تكسرت توابيتها بالأمس وبدأوا إصلاحها حين أصبحوا واستغرق إصلاحها منهم طوال يوم أغواث فلم تظهر مرة اخرى حتى كان الغد ولم يقاتل العجم يوم أغواث على فيل . وفتّ ذلك كله في عضدهم .

وخرج القعقاع بين الصفين مرة أخرى ونادى : « من يبارز ؟ »

وأراد قادة المجوس أن يستردوا معنوياتهم وأن يثأروا لبهمن جاذويه الذي كانت جثته ملقاة بين الصفين ينظرون اليها، فخرج اليه رجلان أحدهما بيرزان قائد مؤخرتهم [٢٤٠٠٠ اتخذوا مواقفهم بين رستم وبين ميسرته التي عليها مهران] والآخر بِنْدوان . فانضم الى القعقاع الحارث بن ظبيان [أحد بني تيم اللات من الرباب وكانت صفوفهم الى جوار تميم عن يمينها] ، فبارز القعقاع بيرزان فسدد اليه القعقاع ضربة سيف قوية فوق عنقه أذرت برأسه . وبارز ابن

ظبيان بندوان فضربه ضربة أطاحت برأسه أيضاً . ثم برزت فرسان المسلمين للمبارزة فكان القعقاع يقول لهم :

« يا معاشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنما يحصد الناس بها » .

وتواصى الناس وتشايعوا [1] فاجتلدوا بها حتى المساء .

وبرز رجل من المجوس أمام صفوف بكر بن وائل فنادى : « من يبارز ؟ »

فخرج له علبـاء بن جحش العجلي فنفحه [2] علباء فأصابه في صدره وشقّ رئته ونفحه الآخر فأصابه في بطنه وانتثرت أمعاؤه وسقطا معاً إلى الأرض . أما المجوسي فمـات من ساعته وأما علباء فلم يستطع القيام وحاول أن يعيد أمعاءه إلى مكانها فلم يتأت له ومرّ به رجل من المسلمين فقال له علباء : « يا هذا أعني على بطني » . فأدخل له أمعاءه فأخذ بصفاقيه ثم زحف نحو صف العجم دون أن يلتفت الى المسلمين وراءه فأدركه الموت على ثلاثين ذراعاً من مصرعه وهو يقول :

أرجو بهـا من ربنا ثوابا	قد كنت ممن أحسنَ الضرابا

وفاضت نفسه [3] .

وخرج رجل آخر من العجم فنادى : « من يبارز ؟ »

فبرز له الأعرف بن الأعلم العقيلي من عامر بن صعصعة من قيس عيلان بأقصى الميمنة فقتله ، فخرج له مجوسي آخر فقتله فخرج اليه بعض فرسانهم وأحاطوا به فأوقعوه وسقط سلاحه من يده فأخذوه فغبّر في وجوههم بالتراب حتى رجع الى أصحابه وهو يقول :

---

(١) كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيع ، (مختار الصحاح) .

(٢) النفح الضرب الى خارج اليمين .

(٣) الطبري ٣ / ٥٤٦ س ش س عن الغصن عن العلاء بن زياد والقاسم بن سليم عن أبيه .

وإن يأخذوا بَزّي فإني مُجرَّبٌ خرُوجٌ من الغمّاء مُحتضِر النصْرِ
وإني لحامٍ من وراء عشيرتي رَكوبٌ لآثار الهوى مُحفِل الأمر

وكانت بنو سليم أيضاً من قيس عيلان في الميمنة فخرج منها أبناء الخنساء الأربعة للقتال . قال أولهم :

يا إخوتي إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة وأنتم بين حياة صالحة
أو ميتة تورث غنماً رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل ، فحمل الثاني وهو يقول :

إن العجوز ذات حزم وجلد والنظر الأوفق والرأي السَّدَد
قد أمرتنا بالسداد والرُّشد نصيحة منها وبرّاً بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد إما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عز الأبد في جنة الفردوس والعيش الرغد

وقاتل حتى استشهد . وحمل الثالث وهو يقول :

والله لا نعصي العجوز حرفا قد أمرتنا حدباً وعطفا
نصحاً وبراً صادقاً ولطفا فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تلفوا آل كسرى لفا أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
إنا نرى التقصير عنكم ضعفا والقتل فيكم نجدة وزُلْفى

وقاتل حتى استشهد . وحمل الرابع وهو يقول :

لست لخنساء ولا للأخْرَمِ ولا لعمرو ذي السناء الأقدمِ
إن لم أرِدْ في الجيش جيش الأعجم ماضٍ على الهول خِضَمٍّ خضرم
إما لفوز عاجل ومغنم أو لوفاة في السبيل الأكرم

فقاتل حتى استشهد[1]. وبلغ الخنساء خبر بنيها الأربعة — وهي التي عاشت حياتها تبكي أخاها صخراً الذي قتل في الجاهلية — فقالت:

« الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته ».

وحمل القعقاع ثلاثين [2] حملة على طريقة الكر والفر قتل فيها ثلاثين فارساً ، كلما طلعت قطعة كبّر وهجم فقتل وكان يرتجز ويقول :

أزعجهم عمداً بها إزعاجا — أطعَنُ طعناً صائباً ثجّاجاً
أرجو به من جنة أفواجا

وكان آخر من قتلَ القعقاعُ يوم أغواث بُزُرْجُمهْر الهمذاني وفيه قال القعقاع :

حبوته جيّاشةً بالنفس — هدّارةً مثل شعاع الشمس [3]
في يوم أغواثٍ فـلـيـل الفُرس — أنخُسُ بالقوم أشدّ النّخس
حتى تفيضَ مَعْشري ونفسي

وبارز الأعور بن قطبة شَهْرَبَرَازَ سِجِسْتان فقتل كل واحد منهما صاحبه ، وحُمل الأعور الى العذيب حيث أسلم الروح فقال أخوه الأسود بن قطبة في ذلك:

لم أرَ يوماً كان أحلى وأمَرّ — من يوم أغواث إذ افترّ الثّغرْ
من غير ضحك كان أسْوَى وأبر

---

(١) الاستيعاب ٢٧٨ ، والإصابة ٣٥٥ نساء. وكان عمر بن الخطاب يعطيها أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد منهم مائتي درهم (معاشاً) حتى قتل .

(٢) الطبري ٣ / ٥٤٦ س ش س عن الغصن عن العلاء والقاسم عن أبيه .
« ٣ / ٥٤٧ « « عن محمد وطلحة وزياد .

(٣) حبوته جياشة بالنفس : منحته طعنة قاتلة تذهب بنفسه ، هدارة بالهدير : وهو الحركة مع الصوت ، معشري : عشيرتي .

قعقاعية جديدة

وغلب على يوم أغواث ابتكار قعقاعي طريف وجديد يدلّ على مـا لذلك العبقري من ألمعية وابتكار . فقـد قصّ عليه المسلمون ما كان من الأفيال يوم أرماث وكيف خافتها خيول المسلمين . وكما استوحى خـالد فكرة كمين الولجة من العجم ، كذلك فعل القعقـاع يوم أغواث . أراد أن يرهب خيل الفرس ، ولكن أنـّى له ذلك وليس للمسلمين أفيال ؟ عمد إلى بني عمه من المشاة فجعلهم عشرات كل عشرة بجموعة فحملهم على إبل قـد ألبسوها وجللوها (١) وبرقعوها ببراقع ، وجعل لها خيلاً أطافت بها لتحميها وأمرهم أن يحملوا على خيل المجوس يتشبهون بالفيلة ففعلت هـذه الإبل يوم أغواث بخيل العجم كما فعل العجم بخيل المسلمين يوم أرماث ، فكانت تلك الإبل لا تطلع على قليل ولا كثير من فرسان المجوس إلا نفرت بهم خيلهم وركبهم فرسان المسلمين يطعنونهم .

ويبدو أن من القبائل الأخرى غير تميم من قلد القعقاع فيما فعل ، فكان ممـا ذكر سعد لعمر أن وصف الحارث بن قموم البهزي من بني سليم [من قيس عيلان في الميمنة] بالشجاعة وقال :

« لم أرَ راكباً مثل الحارث بن قموم ، إنـه جلل بعيره وبرقعه ثم ركب للفراديس [ربما كان الصواب الكراديس] ففرق بينها فإذا بصرَ بفارس انحط عليه فعانقه ثم قتله ثم وثب على بعيره من قيام » (٢) .

وكذلك وصف له يعفور بن حسان الذهلي فقال :

« لم أرَ رجلاً مثل يعفور ، إنه قـد جاء في يوم بخمسة فوارس يختل الرجل منهم حتى يرميه ثم يغلبه على عنايته حتى يأتي به مسلماً » (٣) .

الزحف

واستمرت المبارزة والطراد بين الفرسان منذ أصبحوا إلى انتصاف النهار .

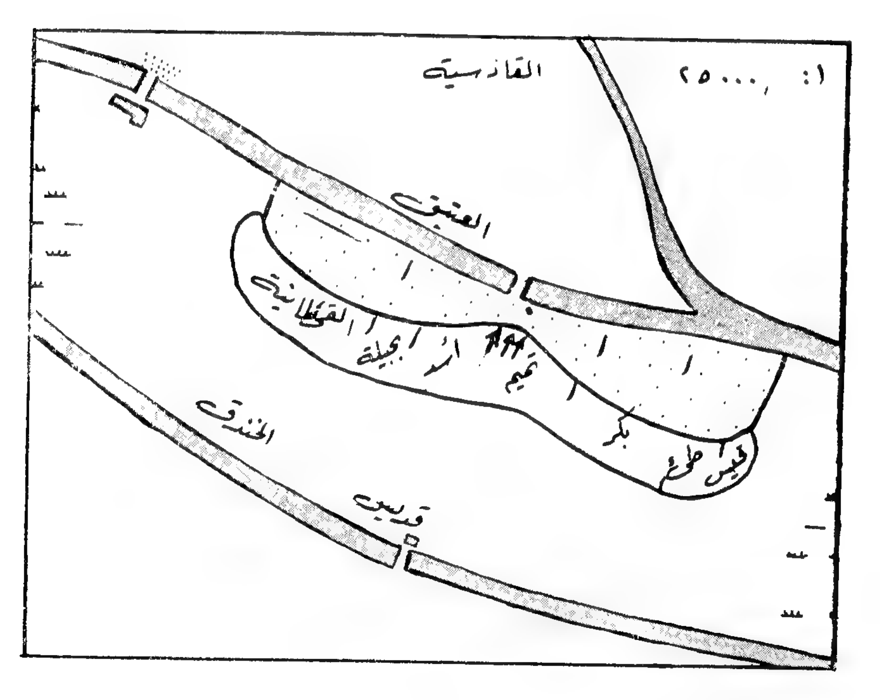
---

(١) الجلال : ما يشد على بطن الدابة من صوف .

(٢) الاصابة ، ١٩٢٥ .

(٣) الاصابة ، ٩٤٢٧ .

فلما صلّوا الظهر تزاحف الناس فاقتتلوا بها حثيثاً اثنتي عشرة ساعة حتى انتصف الليل ، فكانت هذه الليلة تسمى ليلة السواد [والسواد هو النصف الأول من الليل] . وجالت الخيل في القلب وشدد المسلمون ضغطهم عليه واستخدموا في ذلك الإبل المبرقعة فزالت خيل المجوس فيه غير أن مشاتهم ثبتت واستمر المسلمون يضغطون على القلب حتى كادوا أن يصلوا إلى رستم لولا أن خيل المجوس كرّت فاستعادت مواقعها . وقتل في ذلك رجل من بني تميم اسمه سواد كان ممن يحمي العشرة من حماة الإبل جعل يطلب الشهادة ويتعرض لها وظلّ يحمل وتبطىء عليه الشهادة حتى تعرّض لسرير رستم يريده فأصيب دونه [1] .



خريطة رقم (١٢) القادسية (٦)

---

(١) الطبري ٣ / ٥٤٥ س ش س عن القاسم بن سليم بن عبد الرحمن السعدي عن أبيه .

جوائز من عمر

وَقَدِمَ رسولٌ لعمرَ على سعد يحمل أربعة أسياف ومعه أربعة أفراس هدية — أو مكافأة — من أمير المؤمنين يقسمها فيمن انتهى اليه البــلاء إن كان لقي قتالاً. فدعا سعدٌ حمَّالَ بن مالك والربيل بن عمرو بن ربيعة الوالبيَّيْن وطليحة ابن خويلد الفقعسي — وكلهم من بني أسد — وعاصم بن عمرو التميمي فأعطاهم الأسياف . ودعــا القعقاع بن عمرو واليربوعيين نُعَيْم وعتاب وعمرو بن شبيب فحملهم على الخيل . فأصاب ثلاثة من بني أسد ثلاثة أرباع الأسياف وأصاب ثلاثة من بني يربوع من تميم ثلاثة أرباع الأفراس. وفي ذلك قال الربيل بن عمرو الأسدي :

لقــد عَلِمَ الأقوامُ أنَّا أحَقُّهم ... إذا حصلوا بالمُرْهَفَات البواترِ
ومــا فتئت خيلي عشيَّة أرمَثوا ... يذودون رَهْواً عن جموع العشائرِ
لــدُنْ غُدْوَةً حتى أتى الليلُ دونهم ... وقد أفلحَتْ أخرى الليالي الغوابرِ[1]

وقال القعقاع في شأن الخيل :

لم تعرف الخيــل العراب سَواءَنا ... عشية أغوات بجنب القوادسِ
عشية رحنا بالرِّمــاح كأنها ... على القوم ألوان الطيور الرَّسارِسِ[2]

(١) رهواً : على مهل . الغدوة : من بعد الفجر إلى طلوع الشمس .
(٢) الخيل العراب : العربية الأصيلة . الرسارس : النشيطة .

ليلة السواد

قتال في الليل

وسحب الليل رداءه على الميدان والفريقان ما زالا ملتحمين يتقاتلان ، فكان المسلمون ينتمون يعني ينتمي كل منهم إلى وحدته فيصيح الأسدي يا بني أسد فيجاوبونه ويقول التميمي واتمياه وهكذا حتى لا تختلط صفوفهم ويضيعوا في الظلام .

أبو محجن[1] في المعركة

وعلا صليل السيوف وأصوات المعركة فبلغت مسامع الذين حبسهم سعد في القصر مقيدين لاعتراضهم على خالد بن عرفطة . فصعد أبو محجن الثقفي بعد أن دخل الليل إلى سعد وهو مشرف من فوق القصر يستعفيه ويسترضيه ويستميحه أن يفك قيده ويسمح له بالقتـــال ، فزجره سعد ورده إلى محبسه فنزل اليه . ثم جاء إلى امرأة[2] سعد فقال لها :

« يا سلمى يا بنت آل خصفة ، هل لكِ إلى خير ؟ »

---

(١) انظر ترجمة أبي محجن في آخر الكتاب تحت عنوان : « ترجمة مشاهير قادة الفتح » .

(٢) الطبري ٣ / ٥٤٧ س ش س عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم وشاركهم ابن مخراق عن رجل من طيء . وذكر الطبري رواية عن ابن اسحق أن صاحبة هذه الواقعة هي زبراء أم ولد سعد (وليست سلمى) .

قالت : وما ذاك ؟

قال: « تخلّين عني وتعيريني البلقاء ! فلله عليّ إن سلمني الله أن أرجع اليك حتى أضع رجلي في قيدي » .

فقالت : « وما أنا وذاك » .

فرجع إلى مكانه يرسف في قيوده ويقول :

كفى حَزَناً أن ترتدي الخيل بالقنـا ... وأُترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عنّاني الحديدُ وغُلّقت ... مصارع دوني قد تُصِمُّ المناديا
وقد كنت ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... فقد تركوني واحداً لا أخا لِيا
وقد شف جسمي أنني كل شارق ... أعالج كبلاً مصمتاً قد برانيا
فلله دري يوم أُترك مُوثقاً ... ويذهل عني أثرتي ورجاليا
حُبِسْنا عن الحرب العوان وقد بدت ... وأعمال غيري يوم ذاك العواليا
فلله عهـد لا أخيس بعهده ... لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فراجعت سلمى نفسها وقالت :

« إني استخرت الله ورضيت بعهدك » .

فأطلقته وقالت : « أما الفرس فلا أعيرها » .

ورجعت الى بيتها ، فاقتاد أبو محجن الفرس فأخرجها من البـاب الخلفي للقصر المواجه للخندق وكانت يقال لها البلقاء ، فركبها ثم دبّ عليها واتجه الى الميمنة حيث قومه من بني ثقيف فكبّر وحمل على ميسرة الفرس يلعب برمحه وسيفه بين الصفين [قال بعضهم إن البلقاء كانت بسرجها وقال آخرون بل كانت عُرْيا] . ثم رجع من خلف المسلمين واتجه الى الميسرة فكبّر وحمل على ميمنة المجوس يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه . ثم رجع من خلف المسلمين الى القلب فبرز أمام الناس فحمل على العجم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه فكان يقصف المجوس ليلتئذ قصفاً منكراً ولا يحمل على رجل إلا قتله ودق صلبه ، والنـاس منه في أشد العجب وهم لا يعرفونه ، ويغلب على ظننا أنه كان ملثماً إذ لو كان

حاسر الوجه لعرفوه ولم يكن أحد قد رآه بالنهار ، فقال بعضهم لعله أوائل أصحاب هاشم بن عتبة أو لعله هاشم نفسه . وظل أبو محجن يحمل على العجم فلا يقف بين يديه أحد . لقد كان فارساً شديداً مغواراً ولعل حبسه يوم أرماث ويوم أغواث قد حال دون إجهاده فكان جم النشاط موفور القوة والناس متعبون .

وكان سعد من أحد الناس بصراً فجعل ينظر اليه في ظلام الليل وهو مشرف مكب من فوق القصر ويقول :

« من ذلك الفارس ؟ الضبر[1] ضبر البلقاء والطعن طعن أبي محجن وأبو محجن في القيد . والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء » .

وقال بعضهم لولا أن الملائكة لا تباشر القتال لقلنا ملك يثبتنا . ولا يذكر الناس أبا محجن ولا يأبهون له لعلمهم أنه بات في محبسه .

سعد ينام في المعركة

ولم يكن سعد يتوقع تطورات جديدة فنام وقال لبعض من عنده :

« إن تم الناس على الانتماء [ظلوا عليه] فلا توقظني فإنهم أقوياء على عدوهم ، وإن سكتوا ولم ينتم الآخرون فلا توقظني فإنهم على السواء ، فإن سمعتهم ينتمون فأيقظني فإن انتماءهم من السوء » .

لا شك أن نوم سعد يدل على منتهى ما يجب أن يتحلى به القائد من هدوء الأعصاب ... أن ينام والمعركة على قيد أمتار منه . ولكن هذا المسلك من سعد صواب هو أم خطأ ؟

لقد رأينا من كبار القادة في تاريخ العالم من سار على هذا النهج يقلده . فهذا نابليون بونابرت في القرن التاسع عشر الميلادي كان ينام في معاركه . نام في معركة اوسترليتز بالنمسا من أكبر وأشهر معاركه ونام في غيرها وكان يقول إنه

---

(١) إذا جمع الفرس يديه فوثب فوقع مجموعة يداه فذلك الضبر - بلوغ الأرب ٢ / ٩٤ .

يتفاءل من ذلك وأن أحسن أخبار معاركه ما كان يأتيه وهو نائم يوقظوه[1] به.
مثال آخر. الفيلد مارشال مونتغومري الذي قـــاد الجيش الثامن البريطاني في صحراء مصر الغربية في الحرب العالمية الثانية، وقاد الجيوش البريطانية في غزو أوروبا، والذي يُعد من أعظم قادة هـذه الحرب، كتب في مذكراته يقول في معرض وصفه لليوم الأول من معركة هي من أكبر معارك الحرب العالمية الثانية وأشدها حسماً، تلك هي معركة العلمين الذي هجمت فيه قواته على القوات الألمانية والإيطالية يقودها القائد الألماني الشهير روميل:

في صباح[2] ٢٣ اكتوبر (تشرين الأول) [١٩٤٢] تصفحت جرائد اليوم. وبعد الظهر ذهبت قدماً إلى مركز قيادتي بالميدان الذي أُقيم بالقرب من مركز قيادة الفرقة الثلاثين. وفي المساء قرأت كتاباً ثم توجهت الى فراشي مبكراً. وفي العاشرة إلا ثلثاً مساء فتحت فوهات ما يزيد عن ألف مدفع غلالة من النيران وتحرك الجيش الثامن للهجوم بنحو من ١٢٠٠ دبابة. في هذه اللحظة كنت أغط في نومي في عربة النوم الخاصة بي، لم يكن هناك ما أستطيع أن أفعل وكنت أعلم أن الأمر سيحتاج إليّ بعد ذلك. في كل معركة دائماً ما تكون هناك أزمة حينما يتأرجح مصيرها في الميزان، وكان في تقديري أن أحصل على ما أستطيع من الراحة حين يتسنى لي ذلك. لقد أصبت عين الصواب إذ فعلت ذلك فقد كان تدخلي مطلوباً بأسرع مما كنت أتوقع.

وانتصف الليل فتحاجز العجم وتراجع المسلمون وأسرع أبو محجن فأقبل حتى دخل من حيث خرج ووضع عن نفسه وعن دابته وأعـاد رجليه في قيده وأنشد وهو مغتبط سعيد:

لقد علمت ثقيف غيرَ فخرٍ بأنا نحن أكرمهم سيوفا

---

(١) نابليون، اميل لودفيج.

(٢) The Memoirs Field Marshal Viscount Montgomery. p. 128 - 23. 10. 42.

واكثرهم دروعا سابغاتٍ — وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأنا وفدُهم في كل يوم — فإن عَميوا فسَلْ بهم عريفا
وليلة قادسٍ لم يشعروا بي — ولم أشعر بمخرجي الزُّحوفا
فإن أحبس فذلكم بلائي — وإن أُترك أذيقهُمُ الحُتوفا

لماذا اغواث

عرفنا لماذا أُطلق على الأمس اسم أرماث . ونظن أن علة اسم معركة اليوم — أغواث — قد بات الآن مقبولاً، فهو اليوم الذي بلغ الغوثُ فيه المسلمين بوصول القعقاع وطلائع جيش خالد واشتراكهما في المعركة وبظهور أثرهم وفاعليتهم فيها ، وأيضاً بغياب الأفيال ذلك السلاح الجبار من الجبهة المجوسية ، كل أولئك كان غياثاً للمسلمين استحق به اليوم اسم أغواث .



الباب الثامن

عماس

السبت ١٥ شعبان ١٥ ﻫ – ٢١ سبتمبر (أيلول) ٦٣٦ م

اليوم الثالث

هـــذا هو اليوم الثالث على التوالي من أيام القادسية . أصبح المسلمون على مواقفهم وأصبح المجوس على مواقفهم . وكان ما بين المسلمين والعجم بطول ميل في عرض ما بين الصفين مثل الرِّجْلة الحمراء مما خالطه من دماء [١] .

وكانت سلمى ما زالت مغاضبة لسعد منذ لطمها يوم أرماث ، وفي هـذا الصباح أتته فصالحته وأخبرته خبرها وخبر أبي محجن فسامحه سعد ودعا به فأطلقه [٢] .

نخلة على طريق العذيب

جمع المسلمون شهداءهم وجرحاهم الذين أصيبوا يوم أغواث فكانوا جميعاً ألفين ، جمعوهم من الميدان فأحرزوهم خلف صفوفهم وقال لهم سعد :

« من شاء غسل الشهداء ومن شاء فليدفنهم بدمائهم » .

كذلك حكم الشرع. وأقبل رجال حاجب بن زيد الأنصاري يحملون الشهداء

---

(١) الطبري ٣ / ٥٥٠ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .

(٢) في رواية الطبري عن ابن اسحق أن قصة أبي محجن كانت مع الزبراء ، وتذهب الى أن سعداً نزل من رأس الحصن فرأى فرسه تعرق فعرف أنها قد ركبت فسأل زبراء (أم ولده) عن ذلك فأخبرته خبر أبي محجن فخلى سبيله . (الطبري ٤ ـ ١٣٩) .

والجرحى الى العذيب . وسار حاجب ومن معه بذلك الموكب المحمّل على الإبل فمروا بنخلة بين القادسية والعذيب ليس بينهما يومئذ نخلة سواها فبدت في أعين الجرحى وكأنها واحة غنـّاء في تلك الصحراء . فكانوا إذا بلغوها وبالجرحى أحد يعقل ويدرك ما حوله سألهم أن يقفوا به تحتها يستروح إلى ظلها ، فإذا وقفوا جرت ألسنتهم بما درجت عليه طبيعتهم العربية من تسجيل تلك المواقف تسجيلاً شعرياً .

قال رجل يدعى بجيراً وهو مستظل بظلها :

ألا يا اسلمي يا نخلة ً بين قادسٍ وبين العذيب لا يجاورك النخلُ

وقال جريح من بني ضبة [من الرباب] أو من بني ثور يدعى غيلان :

ألا يا اسلمي يا نخلة ً بين جرْعةٍ يجاورك الجمَّانُ دونك والرُّغلُ

فجاوبها ربعي – جريح من بني تيم الله :

أيا نخلة الجرعـــاء يا جرعة العدى سقتك الغوادي[1] والغُيوثُ الهواطل

فقال الأعور بن قطبة – الذي قتل شهربرازسجستان وأصابه هذا :

أيا نخلة الرُّكبان لا زُلْتِ فانضُري ولا زال في أكناف[2] جرْعائك النخل

وقال عوف بن مالك التميمي – ويقال التيمي تيم الرباب :

أيا نخلة ً دون العُذَيبِ بِتَلْعَةٍ سقيت الغوادي المدجنات من النخل[3]

الشهداء والقتلى

وفي العذيب كان نساء المسلمين وصبيانهم يحفرون القبور في اليومين يوم أرماث ويوم أغواث بجانبي وادي مُشَرَّق ، فدفنوا بها ألفين وخمسمائة من أهل القادسية ومنهم من شهد الأيام قبلها في فتوح العراق .

---

(١) السحاب .

(٢) الأكناف : الجوانب – الكامل للمبرد – يقال فلان في كنف فلان يعنى في ظله .

(٣) التلعة ما ارتفع من الأرض وما انهبط فهو من الأضداد ـ المدجنات ذات الغيم .

أما قتلى المجوس فقد بلغوا عشرة آلاف قد أضيعوا فتركت جثثهم ملقاة حيث قتلت ,كانوا لا يعرضون لموتاهم ولا يهتمون بحملهم فكان مكانهم مما صنع الله للمسلمين يشد بها أزرهم ويفت في معنويات الفرس . ولقد مر بنا حين أفردنا فصلاً خاصاً عن المجوسية في الطريق الى المدائن أن ذلك الدين كان يحرّم دفن الموتى !! وإنما كانوا يتركون جثثهم لجوارح الطير تنهشها .

ثم جاء هاشم

وكانت في يوم عماس قعقاعية جديدة إذ بات القعقاع ليلته كلها يسرّب أصحابه سراً إلى المكان الذي فارقهم فيه من الأمس وقال لهم : « إذا طلعت لكم الشمس فأقبلوا مائة مائة كلما توارى عنكم مائة فليتبعها مائة ، فإن جاء هاشم فذاك وإلا جددتم للناس رجاء وجدّاً » .

ولم يشعر بهم وهم يخرجون أحد من جنود المسلمين . وأخذ المسلمون مواقفهم في وقت مبكر قبل طلوع الشمس ، ووقف القعقاع ينظر ويتطلع نحو الطريق ملقياً في روع المسلمين أنه يتوقع هاشماً وأصحابه ، فلما ذرّ قرن الشمس من وراء الأفق طلعت نواصي الخيل فكبّر القعقاع وكبّر المسلمون وقالوا جاء المدد . وكان عاصم بن عمرو قد صنع برجاله مثل صنع القعقاع فجاءوا من جهة خفان وانتعش المسلمون لذلك فتقدم فرسانهم للطراد وتكتبت كتائبهم فتبادلوا الطعن والضرب ومددهم متتابع كلما وصلت مائة شدّ وصولها من أزر المسلمين ، فلما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى اليهم هاشم في سبعمائة من أصحابه ، فأخبروه برأي القعقاع وما صنع في يوميه ، فعبى هاشم أصحابه سبعين سبعين لتتلاحق قطعة وراء قطعة ، وخرج هاشم في أول سبعين منهم معه فيهم قيس بن هبيرة [1] بن عبد يغوث قائد ميمنته وكان قيس قد فقد إحدى عينيه في

---

(١) فتوح البلدان ص ٦٣ . ويذهب البلاذري إلى أن قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي كان على سبعمائة .

اليرموك . وكان فيهم أيضاً سعيد بن نمران الهمداني [١] . ويبدو من هـــذا أن ميمنة هاشم كانت من أهل اليمن القحطانية . وأقبل هاشم حتى إذا خالط القلب كبّر وكبّر المسلمون وهم في مصافهم [٢] .

رجوع الفيلة

في هذا اليوم – عماس – عادت الفيلة الى الظهور ، فقد ظل الفرس نهـــار أغواث وباتوا في علاج توابيتها حتى تمّ لهم إصلاحها فأصبحوا على مواقفهم وقد أخذت الفيلة أماكنها بينهم . وكان رستم يدرك أن ما حدث للفيلة يوم أرماث يمكن أن يحدث مرة اخرى ولذلك اتخذ إجراء مضاداً فجعل مع كل فيل حمـاة من المشاة يحمونه أن تقطع أحزمته ، وجعل مع هؤلاء الحماة فرساناً يحمونهم ، فكانوا إذا أرادوا الهجوم على كتيبة دلفوا لها بفيل وحوله حماته لينفروا بـــه خيلها . غير أن الفيلة لم تكن يوم عماس كما كانت يوم أرماث ، فإن الفيل إذا كان وحده ليس معه أحد كان أوحش أما اذا أطافوا به كما هو الآن كان آنس.

الطراد والمبارزة

وقال هاشم : « أول القتال المطاردة ثم المراماة » .

وأخذ قوسه فوضع سهماً على كبدها ثم نزع فيها فرفعت فرسه رأسها فجأة – وكان لا يقاتل إلا على فرس أنثى لا يقاتل على ذكر – فقطع أذنها ، فضحك وقال : « واسوأتاه من رمية رجل كل من رأى ينتظره . أين ترون سهمي كان بالغاً لو لم يصب أذن الفرس ؟ »

---

(١) الطبري ٣ / ٥٥٢ س ش س عن المجالد عن الشعبي .
الاستيعاب ٢ / ١٤ ، الإصابة ٣٦٨٤ .

(٢) الطبري ٣ / ٥٥٢ س ش س عن محمد وطلحة وزياد .
« ٣ / ٥٥٣ « « « عن عمرو بن الريان عن اسماعيل بن محمد وقال كنا نرى أنه كان في الميمنة .
« ٣ / ٥٥٣ س ش س عن جخدب بن جرعب عن عصمة الوابلي .

قالوا : « كان يبلغ كذا وكذا » [وفي رواية أنه قيل كان يبلغ العتيق] .

فأجال فرسه ثم نزّقها وقد نزع السهم ثم ضربها حتى بلغت حيث قالوا ثم ضربها فأقبلت به تخرقهم حتى عاد إلى موقفه . ورواية أخرى تذهب إلى أنه أجال فرسه [دار بها] ثم نزل وتركه وخرج اليهم يضربهم حتى بلغ حيث [١] قالوا . وما زالت قواته تصل تباعاً .

وخرج رجل من ميسرة المجوس بين الصفين أمام بني عبد قيس فهدر وشقشق ونادى : « من يبارز ؟ » فلم يجبه أحد .

فقال شَبْر بن علقمة — وكان قصيراً دميماً : « يا معشر المسلمين قد أنصفكم الرجل فلم يجبه أحد ولم يخرج اليه أحد، أمَ والله لولا أن تزدروني لخرجت اليه ».

فلما لم يمنعه أحد أخذ سيفه وحجفته وتقدم سائراً على رجليه . فلما رآه الأعجمي هدر وصاح ثم نزل اليه من على فرسه وقد ربط لجامها بحزامه وهجم على شَبْر فاحتمله فجلس على صدره ثم استل سيفه ليذبحه فتحرك الفرس فجذبه باللجام المثبت بحزامه فقلبه عن شبر واستمر الفرس يسحب صاحبه على الأرض فقام شبر مسرعاً وأقبل عليه فافترشه فصاح الفُرس به فقال لهم :

« صيحوا ما بدا لكم فوالله لا أفارقه حتى أقتله وأسلبه » .

فذبحه وسلبه ثم أتى به سعداً . فقال : « إذا كان حين الظهر فأتني » .

فوافاه بالسَّلَب فحمد سعدٌ الله وأثنى عليه ثم قال :

« إني رأيت أن أنحله إياه وكل من سلب سلباً فهو له » .

فباعه باثني عشر ألف درهم[٢] . يروي ابن حجر العسقلاني عن شبر بن علقمة العبدي قال :

---

(١) الطبري ٣ / ٥٥١ س ش س عن محمد وطلحة وزياد .
« ٣ / ٥٥٣ « « « عن عمرو بن الريان عن اسماعيل بن محمد بن سعد .

(٢) الطبري ٣ / ٥٥٤ « « « عن عبد الله بن المغيرة العبدي عن الأسود بن قيس عن أشياخ لهم شهدوا القادسية .

« بارزت رجلاً يوم القادسية فقتلته فبلغ سلبه اثني عشر ألفاً فنفلني الأمير سعد سلبه » [١] .

كان شبر بن علقمة نموذجاً لرجل فقَدَ بسطة الجسم وقوته ولكنه لم يفقد إيمانه ومعنويته وفتوّة قلبه .

وقام قيس بن المكشوح في الميسرة فقال :

« يا معشر العرب إن الله قد منّ عليكم بالإسلام وأكرمكم بمحمد ﷺ فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، دعوتُكم واحدة وأمركم واحد بعد إذ أنتم يعدو بعضكم على بعض عدو الأسد ويتخطف بعضكم بعضاً اختطاف الذئاب ، فانصروا الله ينصركم وَتنَجَّزُوا من الله فتح فارس ، فإن إخوانكم أهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام وانتثال القصور الحمر والحصون الحمر » [٢] .

ونظر عمرو بن معدي كرب إلى فيل كان تجاهه وقال لمن معه من بني زبيد [في الميسرة] : « إني حامل على الفيل ومن حوله فلا تدعوني أكثر من جَزْر جَزُور [مقدار ذبح جمل] فإن تأخرتم عني فقدتم أبا ثور فإني لكم مثل أبي ثور . فإن أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف » .

ثم حمل عليهم فما انثنى عن عزمه حتى ضرب فيهم وستره الغبار عن أصحابه .

فقالوا : « ما تنتظرون ؟ ما أنتم بخلقاء أن تدركوه وإن فقدتموه فَقَدَ المسلمون فارسهم » .

فحملوا حملة فانفرج الفرس عنه وقد أوقعوه وطعنوه وطعنوا فرسه وما زالْ سيفه في يده يضاربهم به . فلما رأى أصحابه وقد مرّ به رجل من العجم على فرس له ، أخذ عمرو برجل الفرس فلما حرّكه راكبه اضطرب والتفت الفارس إلى عمرو فهمّ به ولكن المسلمين حملوا عليه فنزل عن فرسه — الذي قيد عمرو أقدامه — وجرى نحو أصحابه .

---

(١) الاصابة ٢٩٥٦ .

(٢) الطبري ٣ / ٥٥٤ س ش س عن أبي كبران الحسن بن عقبة .

قال عمرو : « أمكنوني من لجامه » .

فأمكنوه [1] منه فركبه بدلاً من فرسه .

الافيال في المعركة

واستعمل الفرس الأفيال فوجهوها ضد كتائب الفرسان فعادت تفرقها كيوم أرماث . فلما رأى سعد ذلك أرسل إلى الفرس الذين أسلموا وانضموا اليه ، ضخم ومسلم ورافع وعَشَنَّق [2] والرُّفيل وأصحابهم فدخلوا عليه . فسألهم عن الفيلة وهل لها مقاتل ؟

فقالوا : « نعم . المشافر والعيون لا ينتفع بها بعدها » .

وكان أكبر الأفيال فيلان وضعهما [3] رستم في القلب أحدهما أبيض وكان أمام بني تميم والثاني أجرب وكان حيال بني أسد . وكانت جميع الفيلة الأخرى آلفة لهذين الفيلين تقلدهما وتتبعهما . فأرسل سعد إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو :

« اكفياني الفيل الأبيض » .

وأرسل إلى حمال بن مالك — أمير المشاة — والربيل بن عمرو :

« اكفياني الفيل الأجرب » .

وأوضح لهم مقاتل الأفيال .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٥٤ س ش س عن المقدام الحارثي عن الشعبي .

(٢) « ٣ / ٥٥٥ « « « عن محمد وطلحة وزياد .

ومسلم هو الذي أسره طليحة بن خويلد في غارته على معسكر الفرس بالنجف وجاء به الى سعد فأسلم . والرفيل هو الذي رغب في الاسلام بعد أن رأى رستم في المنام وهو بالنجف أن ملكاً ختم سلاح أهل فارس ثم دفعه الى النبي فدفعه الى عمر ، فلما بلغوا العتيق عبر القنطرة ومال الى زهرة فأسلم . أما الآخرون ضخم ورافع وعشنق فلم نقف على قصص إسلامهم .

(٣) نفس المصدر .

الطبري ٣ / ٥٥٦ س ش س عن المجالد عن الشعبي .

« « « « « عن عمرو عن الشعبي .

فأخـــذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين ليّنين ودبّا في كتيبة من خيل ومشاة وقالا لهم : « اكتنفوه لتحيروه » .

وهمـــا معهم فأطافوا به وخالطوا حراسه والتحموا معهم . وظلّ الفيل متخبطاً ينظر يمنـة ويسرة وهو متحير ، فحمل القعقاع وعاصم على الفيل وهو متشاغل بمن حوله فوضعا رمحيهما معاً في وقت واحد وتنسيق في عينيه . وجلس الفيل على يديه ورجليه ونفض رأسه فألقى سائسه من فوقه ودلّى خرطومه ، فنقل القعقاع رمحه إلى يسراه واستلّ سيفه فنفح الخرطوم فقطعه ورمى به على الأرض ، ووقع الفيل على جنبه وقد أعمي ، وسقط من كان في التـابوت فوقه فقتلتهم كتيبة القعقاع وعاصم .

وفي نفس الوقت كان حمـال بن مالك والربيل بن عمرو يقولان لبني أسد : « يا معشر المسلمين أي الموت أشد ؟ »

قالوا : « أن يشد على هذا الفيل » .

فخرجا اليه في خيل ومشاة حتى أطافوا بالفيل الأجرب عن يمينه وشماله ليحيروه وقال حمال للربيل :

« اختر إما أن تضرب المشفر [بالسيف] وأطعن في عينه [بالرمح] أو تطعن في عينه وأضرب مشفره » .

فاختار الربيل أن يضرب الخرطوم . وحملا مع كتيبتهما فلمـا تشاغل الفيل بملاحظة من أحاط به من المسلمين وانشغل سائسه أيضاً لا يخاف إلا على بطانـه [أحزمته] فقـد كان ما زال معقداً من تقطيع أحزمة الأفيال يوم أرماث ، فكان مشغولاً بذلك ينظر الى أجنابه وإلى خلفه في ملاحظة مستمرة لأولئك الذين أحاطوا بـه . إذ ذاك نفذ حمال والربيل ونزّقا فرسيهما [غمزاهما] حتى إذا قاما على أطراف حوافرهما ضرباهما على الفيل وسدّد حمـال طعنة برمحه إلى عين الفيل ، وفوجىء الفيل بالرمح في عينه قـد عوّره فأقعى على إسته مفترشاً رجليه وناصباً يديه ووطىء من خلفه من العجم ثم استوى واقفاً فنفح الربيل

خرطومه بسيفه فقطعه وبصر سائسه بالربيل فضربه على وجهه وجبينه بالطبرزين [1] ضربة منكرة حطم بها أنفه غير أنه أفلت بها .

وبقي الفيل الأبيض – الذي أعماه القعقاع وعاصم وقطعا خرطومه – متلدداً بين الصفين ، كلما أتى صف المسلمين وخزوه وإذا أتى صف المجوس نخسوه وهو يصيح صياح الخنزير . وولّى الفيل الأجرب – الذي عوّره مالك والربيل – وهو يصيح أيضاً فمرق غاضباً بين صفوف الفرس يدوسهم ، وأثار صياحه انتباه الأفيال الأخرى والتفتت اليه فرأته يثب في العتيق فاتبعته كلها وخرقت صفوف الأعاجم وعبرت العتيق في أثره وظلّت منطلقة حتى بلغت المدائن في توابيتها وقد هلك من كان فيها .

الزحف بعد الظهر

تمّ إخراج الأفيال من المعركة قبل الظهر فلما ذهبت [2] وخلص المسلمون بالفرس ومال الظل تزاحف المسلمون وحماهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار فاجتلدوا بالسيوف على حرص حتى المساء . وتكتبت كتائب الإبل المجففة المبرقعة فكانوا يضربونها على عرقوبها لتقدم وكفكفوا عنها فحموها . وفي ذلك قال القعقاع بن عمرو :

حضّضَ قومي مَضْرَحِيُّ بن يَعْمَرٍ ... فلله قومي حين هَزّوا العَوَالِيا
وما خام عنها يوم سارت جموعُنا ... لأهل قُدَيْسٍ يمنعون المواليا
فإن كنتُ قاتلتُ العدوَّ فَلَلْتُهُ ... فإني لألقى في الحروب الدَّوَاهِيا
فيولاً أراها كالبُيوت مُغِيرةً ... أُسَمِّلُ أعياناً لها ومآقِيا

أمسى الناس يوم عماس وطعنوا في الليل وهم على قتال . وكان عشرة إخوة

---

(١) في المنجد ، الطبر والطبرزين : الفأس من السلاح وهما من الدخيل (على العربية) اهـ. وهو نوع من البلطة كان يتسلح بها سائسو الأفيال وظهر استعماله في الجيوش الفارسية القديمة والتركية بعد ذلك ، راجع « الطريق الى المدائن » فصل النظام الحربي للفرس ـ دار النفائس .

(٢) الطبري ٣ / ٥٥٦ س ش س عن محمد وطلحة وزياد .

من بني كاهل بن آسد يقـال لهم بنو حرب هم عفاق بن حرب وإخوته فكان أحدهم [1] يرتجز ليلتئذٍ ويقول :

أنا ابن حَرْبٍ ومعي مِحراقي أضربهم بصارمٍ رَقْراق
اذكره الموت أبو اسحق وجاشت النفسُ على التَّراقي
صَبْراً عِفَاقُ إنه الفِراق

فأصيب في فخذه فقال :

صبراً عِفـاقُ إنها الأساوِرَهْ صبراً ولا تَغْرُرْكَ رجْلٌ نادِرَهْ

فاستشهد من ضربته تلك .

ونما إلى علم سعد أن هنـاك مخاضة أسفل من العسكر [ممر ضحل في المستنقعات الواقعة إلى يمينه وفي العتيق] فخشي [2] أن يكون الفرس قد فطنوا اليها فانتقى اثنين من أشد فرسانه وأقواهم وهمـا طليحة بن خويلد الأسدي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي ، فبعثهما ليقوما عليه خشيه أن يتسرب المجوس من جهتها وقال لهما :

« إن وجدتما القوم قـد سبقوكما اليها فانزلا بحيالهم وإن لم تجداهم علموا بها فأقيما حتى يأتيكما أمري » .

فخرجا في بعض من معهما وقـد كانا من رؤساء أهل الردة ، وكان عمر قد عهد إلى سعد أن لا يولي أحداً منهم على مائة . فلما انتهيا إلى المخـاضة لم يرَيا فيها أحداً .

قال طليحة : « لو خضنا فأتينا الأعاجم من خلفهم » .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٥٨ قال : كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن قدامة الكاهلي عمن حدثه .

(٢) الطبري ٣ / ٥٥٨ س ش س عن النضر عن ابن الرفيل عن أبيه عن حميد بن أبي شجار .
« ٣ / ٥٥٧ « « « عن عمرو بن محمد عن عبد الرحمن بن جيش . (ذكره ابن حجر ، عبد الرحمن بن حبيش الأسدي) وكان ممن ثبت على إسلامه في بني أسد وفارق طليحة لما ارتد – الاصابة ٦٣٧٠ وكان من رواة الفتوح .

فقال عمرو : « لا بل نعبر أسفل » .

فقال طليحة : « إن الذي أقول أنفع للناس » .

فقال عمرو : « وإنك تدعوني إلى ما لا أطيق » .

فافترقا . فاتجه طليحة بمفرده نحو الأعاجم من وراء العتيق وقد عبره . أما عمرو فقد ساير العتيق إلى أسفل من الموضع الذي عبر منه طليحة ومعه من الجند من كان معه ومع طليحة ثم أغاروا فشعر بهم الفرس . وكان الذي خشيه سعد فبعث قيس بن المكشوح المرادي [1] في آثارهما في سبعين رجلاً ، وقال : « إن لحقتهم فأنت عليهم » .

فلما بلغ المخاضة وجد الفرس يكررون عمراً وأصحابه فكفهم قيس عنهم ، ثم أقبل على عمرو يلومه فتجادلا واشتدا فقال أصحاب قيس لعمرو : « إنه قد أُمّر عليك » .

فغضب وسكت على مضض [2] وقال :

« يتأمر عليّ رجل قد قاتلته في الجاهلية عُمر رَجُل ! »

تصرف من طليحة

أما طليحة فقد مضى حتى بلغ ردم العتيق خلف جيش الفرس ، فوقف تجاهه ثم كبّر ثلاث تكبيرات ثم ذهب فطواه الظلام ، فراع الفرس وتعجب المسلمون وكف بعضهم عن بعض للنظر في ذلك وأرسل الفرس في طلبه فلم يدروا

---

(١) يقول الطبري : « وكان من أولئك الرؤساء الذين نهى عنهم أن يوليهم المائة » ، ونظن ذلك خطأ فقد كان قيس بن المكشوح المرادي قائد ميمنة هاشم في انتقاله من الشام إلى العراق ، وكان من الثابتين على إسلامهم حين الردة وكان له دوره وذكره في قمع ردة اليمن .

(٢) كانا متباغضين وكانت بينهما أمور في الجاهلية ، وفي عمرو قال قيس :

فلو لاقيتني لاقيت قرناً	وودعت الأحبة بالسلام
لعلك موعدي ببني زبيد	وما قامعت من تلك اللئام
ومثلك قد قرنت له يديه	إلى اللحيين يمشي في الخطام

الاستيعاب ٣ / ٢٣٥ - الاصابة ٧٣١٥ - ٧٣١٩ - ٧٢٤١ .

أين سلك . وفرح المسلمون وسألوا عن ذلك وما يدرون ما هو . وسفل طليحة حتى خاض المخاضة ثم أقبل الى العسكر فأتى سعداً وأخبره بما كان .

لماذا عماس

كان التفوق ظاهراً للفرس يوم أرماث . وكان التفوق ظاهراً للمسلمين يوم أغواث . أما يوم عماس فقد كان من أوله إلى آخره شديداً : المسلمون والمجوس فيه على السواء . ولا يكون شيء إلا تناقله الرجال بالأصوات حتى بلغ يزدجرد الثالث بن شهريار في إيوانه ، وقد بعث اليهم بأهل النجدات ممن بقي عنده فقووا به ، فلولا ما ألهم الله القعقاع في اليومين وما أتيح لهم بوصول هاشم لكسر ذلك المسلمين . وقد انتهى الطرفان يوم عماس على سواء كلهم على ما أصابه كان صابراً،وكلما بلغ المسلمون من المجوس بلغ المجوس من المسلمين[1] مثله.

عرفنا تعليلنا لمعنى اسم اليوم الأول من أيام القادسية ـ أرماث ، وكذلك لمعنى اليوم الثاني أغواث . وقبل أن نمضي مع الأحداث نفسر معنى يوم عماس وليلة الهرير .

في اللغة يقال : عَمِس اليوم وعَمُس إذا اشتد وأظلم ، ويوم عَماس شديد وحرب عماس وعميس شديدة ، وليل عماس شديد الظلام [2] . والعماس أيضاً الأسد الشديد . ولقد كان يوم عماس يوماً شديداً يفسر لنا اسمه على هذا الضوء.

والهرير من هرّ الكلب هريراً إذا صات دون نباح . ويقال : هرّت القوس صوّتت . والهار : الكلب إذا كشّر عن أنيابه . ولقد كانت ليلة الهرير أصواتاً في صمت دون كلام ومن ذلك اكتسبت اسمها .

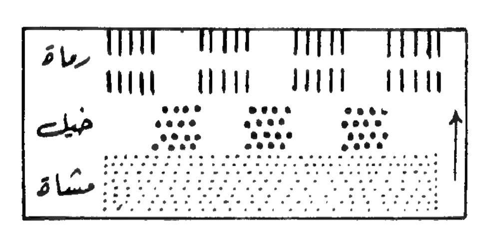
---

(١) الطبري ٣ / ٥٥٣ س ش س عن مجالد عن الشعبي .

(٢) المنجد .

ليلة الهرير

كان حادث طليحة هذا الذي أدى إلى تحاجز الطرفين مهلة لتجديد التعبئة . فكان المسلمون على تعبئتهم السابقة في ثلاثة صفوف . الصفوف الأولى للرماة ، والصفوف الثانية للخيول ، والصفوف الثالثة للرّجّالة المشاة من حملة الرماح وأصحاب السيوف بطول الجبهة .

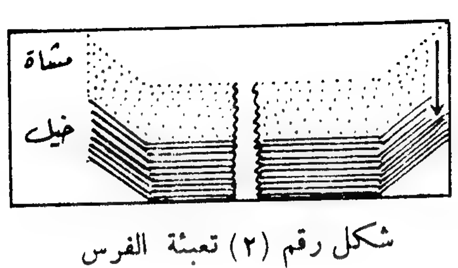


شكل رقم (١) تعبئة المسلمين

وخرج فرسان المسلمين للطراد ، فخرج عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي وخرج مسعود بن مالك الأسدي وقيس بن هبيرة الأسدي وعاصم بن عمرو التميمي وابن ذي البردين الهلالي وأمثالهم ، فانبعثوا للقتال . ولكن الفرس لم يتحركوا وإذا هم لمّة لا يشدون ولا يريدون غير الزحف ، وإذا رستم قد جدد تعبئته على أمر لم يكونوا عليه في الأيام الثلاثة السابقة . لقد رأى في المبارزات السابقة أن المستوى القتالي للمسلمين يفوق المستوى الفارسي وأن النتيجة كانت دائماً في غير صالحه فقرر أن يكون قتاله الليلة زحفاً لا كراً وفراً . فقدم صفاً من الفرسان في القلب له أذنان في المجنبتين واتبعه آخر مثله ، وآخر حتى تمت صفوفه من الخيل ثلاثة عشر صفاً .

وأقدم فرسان المسلمين يبغون الطراد والمبارزة فلم يخرج اليهم أحد ، فرموهم بالنبال فلم يثنهم ذلك عن ركوبهم وهم على مواقفهم . ثم تكتبت الكتائب من مشاتهم خلف فرسانهم .

هذا الذي فعله رستم في صف صفوفه ليلة الهرير هو الذي وصف الضابط الروماني آمين مارسلين شبيهاً له وأثبتناه في الجزء الأول من كتاب « الطريق إلى المدائن » فصل « النظام الحربي للفرس » من باب « فارس تحت حكم الساسانيين » .



شكل رقم (٢) تعبئة الفرس

زحف بغير إذن

الفريقان وقوف كل في انتظار أوامر قائده فيما عدا التراشق بالسهام تئز ذهاباً وإياباً في هذا الاتجاه أو ذاك . وأتى من جهة الفرس سهم مزدلف [١] فأصاب خالد بن يعمر التميمي [من بني عمرو من تميم] . ويبدو أن القعقاع كان يتشوق للقتال وملّ الوقوف فحركته إصابة خالد فحمل على الجهة التي خرج منها ذلك السهم وقام من معه على ساق فحملوا معه وهو يقول :

سَقى اللهُ يا خَوْصاءُ قبرَ ابن يعمرٍ	إذا ارتحل السُّفَّارُ لم يترحَّل
سقى الله أرضاً حلّها قبرُ خالدٍ	ذِهابَ غوادٍ مُدْجِناتٍ تُجلجل
فأقسمت لا ينفكُّ سيفي يحُسُّهم	فإن زحل الأقوام لم أتزحَّل [٢]

فزاحفهم القعقاع — والناس على راياتهم وقوف — بغير إذن سعد وبقي

---

(١) المزدلف الذي يسقط بقرب الهدف ثم يثتن فيصيب الهدف — أنظر الإصابة بالسهام في فصل القوس من باب أسلحة العرب — الجزء الأول من « الطريق الى المدائن » .

(٢) الخوصاء : الريح الحارة يكسر الانسان عينه من حرها ، والظهيرة الخوصاء : أشدها حراً . يحسهم : يقتلهم . زحل : هرب .

المسلمون بسائر الجبهـة وقوفاً في انتظار تكبيرات سعد إلا من خرج للطراد أو تكتب مع القعقاع .

قال سعد : « اللهم اغفرها له وانصره ، قد أذنت له إذ لم يستأذني . واتمياه سائر الليلة » [١] .

وأقر سعد أمام الناس ما فعل القعقاع وقال :

« إن الأمر الذي صنع القعقاع ، فإذا كبّرت ثلاثاً فازحفوا » .

ثم كبّر تكبيرة فتهيأ المسلمون للزحف ورحى الحرب تدور على القعقاع ومن معه .

وقام قيس بن هبيرة المرادي فقال :

« إن عدوكم أبى إلا المزاحفة ، والرأي رأي أميركم وليس بأن تحمل الخيل ليس معها الرجّالة [المشاة] . فإن القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوهم على الخيل لا رجال معهم عقروا بهم ولم يطيقوا أن يقدموا عليها ، فتيسروا للحملة » . [تهيؤوا لها] .

فتهيؤوا وانتظروا تكبير سعد وهجوم المسلمين . حينذاك كانت نشاب الفرس ما زالت تجوز صف المسلمين ورماة المسلمين يرمونهم [٢] .

وقام الأشعث بن قيس الكندي فقال :

« يا معشر العرب إنـه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت ولا أسخى أنفساً عن الدنيا . تنافسوا الأزواج والأولاد ولا تجزعوا من القتل فإنـه أماني الكرام ومنايا الشهداء » .

وترجل عن فرسه [٣] .

وقال حنظلة الكاتب [بن الربيع – من بني عمرو من تميم] ، وأمراء الأعشار

---

(١) الطبري ٥٥٩/٣ س ش س عن النضر عن ابن الرفيل عن أبيه عن حميد بن أبي شجار .
« ٥٦١/٣ « « « عن الوليد بن عبد الله بن أبي طيبة عن أبيه .

(٢) « ٥٦٠/٣ « « « عن عبيد الله بن الأعلى عن عمرو بن مرة .

(٣) « ٥٦٠/٣ « « « عن الأجلح .

« ترجّلوا أيها الناس وافعلوا كما نفعل ولا تجزعوا ممـــا لا بد منه فالصبر أنجى من الفزع » .

وفعل غالب بن عبد الله الليثي في بني كنانة وطليحة بن خويلد وحمّـال بن مالك في بني أسد وأهل النجدات في كل القبـــائل فعلوا [١] مثل ذلك . ونزل ضرار بن الخطاب القرشي . وكان كل المسلمين في أوج حماسهم وقمـــة معنوياتهم فاستبطأوا تكبيرات سعد .

وزحوف أخرى بغير إذن

فلما كبّر سعد التكبيرة الثانية لم ينتظر عاصم بن عمرو التكبيرة الثالثـــة فحمل وانضم الى القعقاع . ولم تنتظر أسد أيضاً فزحفت ولحقت بالقعقاع وسعد ينظر اليهم من فوق قديس . قيل حملت أسد .

قال : « اللهم اغفرها لهم وانصرهم ، وأسداه الليلة » .

وقـــام دريد بن كعب النخعي وكان معه لواء النخع إحدى قبائل الميسرة فقال : « إن المسلمين قد تهيّأوا للمزاحفة فاسبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد ، فإنه لا يسبق الليلة أحد إلا كان ثوابه على قدر سبقه. نافسوهم في الشهادة وطيبوا بالموت نفساً فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحيـــاة وإلا فالآخرة ما أردتم » [٢] .

وحمل وحملت النخع فقيل لسعد : « حملت النخع » .

قال : « اللهم اغفرها لهم وانصرهم ، وانخعاه سائر الليلة » .

وكان أرطاة بن كعب بن شراحيل النخعي يحمل لواء النخع الذي كان رسول الله ﷺ عقده له يوماً . تقدم به أرطاة فقتل فحمله بعـده أخوه دريد [وقيل زيد] بن كعب فقتل ، ثم أخوهما قيس بن كعب فقتل [٣] .

---

(١) الطبري ٣/٥٦٠ س ش س عن عمرو بن محمد .
(٢) « ٣/٥٦٠ « « « عن المستنير بن يزيد عمن حدثه .
(٣) أسد الغابة ٦٨ - الإصابة ٧٢ - ٢٣٩٥ .

ثم حملت بجيلة فقال سعد : « اللهم اغفرها لهم وانصرهم ، واجيلتاه » .
وكان أمام كندة قائد مجوسي يدعى تُرْك الطبري فقال الأشعث بن قيس :
« يا قوم ازحفوا لهم » .
فزحف لهم في سبعمائة ، فقيل : « حملت كندة » .
قال سعد : « واكندتاه » .
وقتلَ الأشعثُ تركاً فقال راجزهم [1] :
نحن تركنا تُرْكهم في المَصْطَرَهْ   محتضباً من بَهَرانِ الأبهَرَهْ
وقال الحارث بن سمي الهمداني [2] :
أقــدم أخا فهم على الأساورة   ولا تهــالن لرؤوس نادرة
فإنمــا قصرك موت الساهرة   ثم تعود بعــدها في الحافرة

وتتابع أكثر الناس على الزحف فعصوا سعداً ولم ينتظروا التكبيرة الثالثة إلا الرؤساء. ثم كبر سعد الثالثة فزحف الرؤساء بمن انتظرها فلحقوا بأصحابهم وخالطوا العجم المجوس وكان ذلك بعد أن صلوا العشاء [3] فاستقبلوا الليل وقامت الحرب على ساق حتى الصباح واحتدم القتال بضراوة وعنف ، واجتلدوا طوال الليل لا ينطقون، كلامهم الهرير كأنهم يضبحون مثل الخيل ولذلك سميت ليلة الهرير [4] .

وكان تجاه جُعْفى [في الميسرة أيضاً] كتيبة من كتائب العجم عليهم السلاح التام ودروع الحديد فزحفت جعفى اليهم والتحموا بهم فرأوا أن السيوف غير مؤثرة ولا تعمل في الحديد فارتدعوا عنهم .

---

(١) الطبري ٣/٥٦٣ س ش س عن مجالد عن الشعبي .
المصطرة : المصاف . محتضباً : قاطعاً . الأبهرة : عرق العنق .
(٢) الإصابة ١٩١٩ وقـال الحارث بن سمي بن رواس بن دالان بن مصعب بن الحارث بن مرهب . وقيل : إن هذا الرجز لغيره .
(٣) الطبري ٣ / ٥٦١ س ش س عن عمرو والنضر بن السري .
(٤) « ٣ / ٥٦٢ « « عن عمرو عن الأعور، ومحمد عن عمه والنضر عن ابن الرفيل.

فقال لهم حميضة بن النعمان البارقي « مالكم ؟ »
قالوا : « لا يجوز فيهم السلاح » .
قال : « كما أنتم حتى أريكم » .
وحمل على رجل منهم فداوره حتى دق ظهره بالرمح ثم التفت إلى أصحابه يبشرهم ويشجعهم ويقول : « ما أراهم إلا يموتون دونكم » .
فحملوا عليهم على طريقة حميضة فأزالوهم [1] إلى مواقفهم الأولى .

التحام رهيب

وقال أنس بن الحُلَيْس: «شهدت ليلة الهرير فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون [الحدادين] ليلتهم حتى الصباح أفرغ عليهم الصبر إفراغاً وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وعن سعد . وأقبل سعد على الدعاء حتى إذا كان وجه الصبح انتمى الناس [المسلمون] فاستدل بذلك على أنهم الأعلون وأن الغلبة لهم [2]».

في انقطاع الأخبار عن سعد كان يحملق في الظلام يحاول أن يرى شيئاً ويصيخ السمع يحاول أن يسمع شيئاً فكان أول شيء سمعه ليلتئذ مما يستدل به على غلبة المسلمين صوت القعقاع بن عمرو في النصف الثاني من الليل يقول [3] :

نحن قتلنا معشرا وزائدا   أربعـة وخمسة وواحدا
نُحْسَبُ فوق اللبد الأساودا   حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا
الله ربي واحترزت عامدا

وبحث سعد عن أحد عنده ليبعثه ، فلم يجد إلا غلاماً يدعى بِجَاد فأرسله إلى الصف وقال له :

---

(١) الطبري ٣ / ٥٦٢ س ش س عن محمد بن جرير العبدي عن عابس الجعفي عن أبيه .
(٢) « ٣ / ٥٦١ « « عن محمد بن نويرة عن عمه أنس بن الحليس .
(٣) « ٣ / ٥٦٢ « « عن عمرو بن محمد عن الأعور بن بيان المنقري .

« أنظر ما ترى من حالهم » .
فذهب ورجع فسأله سعد : « ما رأيت أي بُني ؟ »
قال : « رأيتهم يلعبون » .
فقال سعد مازحاً : « أو يجِدُّون !! » [1] .

(١) الطبري ٣/٥٦٢ س ش س عن عمرو بن الريان عن مصعب بن سعد .

الباب التاسع

يوم القادسية

الاحد ١٦ شعبان ١٥ هـ – ٢٢ سبتمبر (ايلول) ٦٣٦ م

الصباح المريع

تنفس الصباح وما زالت الملحمة الرهيبة دائرة، تلك الملحمة التي بدأت صباح أمس لم يتخللها إلا فترة تحاجز قصيرة حين كبّر طليحة من وراء الردم الذي على العتيق. هذا الصباح يطلق عليه الرواة اسم « ليلة القادسية » ولا ندري لماذا قالوا عن الصباح ليلة. يقول الطبري [١] :

« وأصبحوا ليلة القادسية وهي صبيحة ليلة الهرير، وهي تسمى ليلة القادسية من بين تلك الأيام ... » .

أصبحوا والناس كالـّون متعبون لم يغمض لهم جفن ليلتهم كلها . المسلمون والمجوس في ذلك سواء . ودخلت المعركة يومها الرابع وقد اشتعلت خلالها ليلتين وما زالت تتأرجح في الميزان . ومع ذلك فقد صار واضحاً أنها تقترب الآن من نهايتها وأن هذه النهاية ستكون لمن صبر ، فقد بلغ الجهد من الفريقين وما هي إلا أن يخور أحدهما قبل الآخر أو يصبر أحدهما بعد الآخر .. ليس إلا هذا .

رأس حربة نحو رستم

كان القعقاع العظيم أكثر الناس إدراكاً لهذا فسار في المسلمين يشدُّ أزرهم ويبثُّ الصبر فيهم ويقول لهم :

---

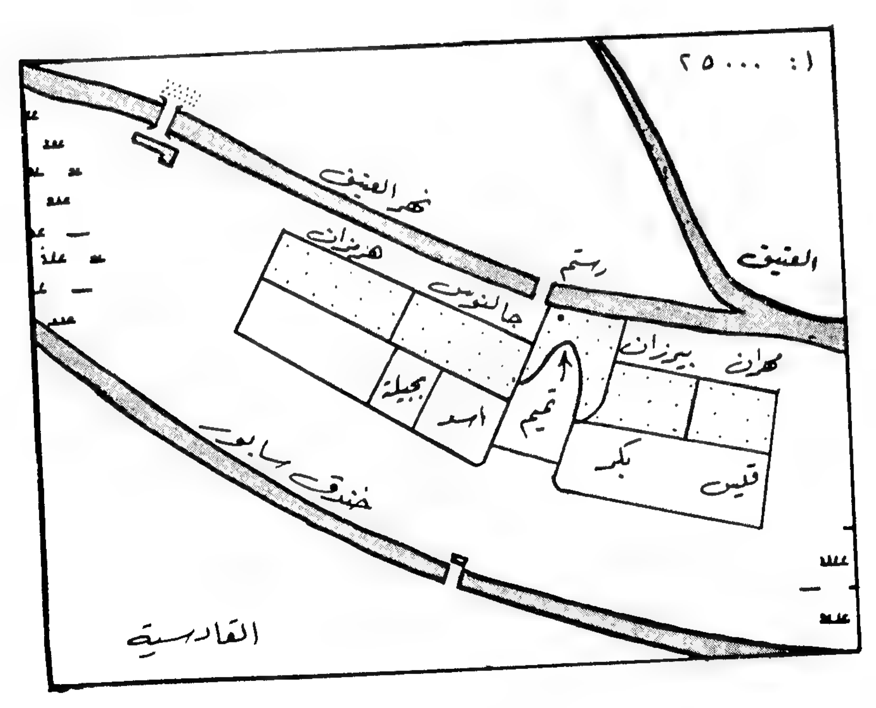
(١) الطبري ٣ / ٥٦٣ س ش س عن محمد وطلحة وزياد .

« إن الدَّبْرة [الهزيمة] بعد ساعة لمن بدأ القوم [بالتخاذل] فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر مع الصبر ، فآثروا الصبر على الجزع » .

وكان القعقاع مقتنعاً بما يقول فأراد أن يصنع شيئاً يشد به أزر المسلمين ويكون لهم به أسوة وقدوة ويبدأ به تحطيم جبهة الفرس فقد نضجت الطبخة بما فيه الكفاية . وصدق والله القعقاع إذ يقول عن نفسه :

يدعون قعقاعاً لكل كريهة ... فيجيب قعقاع دعاء الهاتف

فاجتمع اليه جماعة من الرؤساء فكانوا رأس حربة وجعلوا هدفهم ووجهتهم « رستم » ، وشدُّوا عزائمهم وهم يتجهون نحوه والفرس يدافعون بإعياء على قدر ما بقي من طاقتهم ، حتى خالط القعقاع ومن معه حماة رستم الذين يقفون من دونه .



خريطة رقم (١٣) القادسية (٧)

كان ذلك مع الصبح . ومعنى هـــذا أن القعقاع ومن معه من تميم والرباب استطاعوا أن يحدثوا فدغاً في قلب الفرس وأن يدقوا إسفيناً يتقدم إلى الأمـام نحو رستم . وكان على المسلمين أن يوسعوه ويتدفقوا فيه .

ورأت القبائل ذلك فقام فيها رجال . قـــام قيس بن عبد يغوث المرادي والأشعث [1] بن قيس الكندي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي وعبـد الله بن ذي السهمين الخثعمي [كلهم في الميسرة] وقام ابن ذي البردين الهلالي ، فقالوا : « لا يكونن هؤلاء [تميم] أجدّ في أمر الله منكم ، ولا يكونن هؤلاء القُلْف[2] [يقصد المجوس] أجرأ على الموت منكم ولا أسخى أنفساً عن الدنيا،تنافسوها ».

فحمل كل من جهته حتى ضغطوا على من أمامهم . وقام رجال في ربيعـــة – بكر بن وائل وعبد القيس – فقالوا :

« أنتم أعلم النـــاس بفارس وأجرؤهم عليهم فيما مضى ، فما يمنعكم اليوم أن تكونوا أجرأ مما كنتم بالجرأة ! »

فحملوا كما حمل غيرهم .

كان هذا الالتحام محتدماً منذ حوالي ثلاثين ساعة دون توقف يُذكر ، فأي جديد إذاً في قول القعقاع ومن حـــذا حذوه من أبطال المسلمين ؟ الجديد أنه استثارة لهممهم وصلب لعودهم وبث للصبر فيهم . إنه تجديد لحيويتهم حين كلّ الجميع من مجوس ومسلمين . هنا وبعـــد هذا الإجهاد المضني والاختبار الشاق الصعب تظهر خواص ومميزات العنصر البشري في المعركة . لقـد عرضنا لذلك في باب « أثر البيئة على الفرد العربي » من الجزء الأول من كتاب « الطريق إلى المدائن » ، وسنعرض في باب ختـامي لعوامل نجاح الفتح الإسلامي ، ذلك عن جانب المسلمين . كذلك عرضنا للعنصر البشري للجانب الفارسي المجوسي حين تعرضنا لطبقات المجتمع الفارسي وأثر ذلك على النظام الحربي عندهم . هذا وذاك

---

(١) نفس المصدر + فتوح البلدان ٢٤٢ .

(٢) قلف الصبي : لم يختن . القلفة : جلدة عضو التناسل ، والأقلف من لم يختن . أقلف القلب لا يعي خيراً – المنجد . والمقصود بهم هنا المجوس .

بدأت آثاره تظهر على أرض المعركة في القادسية بعد أن طال انصهارهما في بوتقة على نار اشتعلت حوالي خمسين ساعة في خلال السبعين ساعة الأخيرة .

بدأت آثار هذه المواجهة الساخنة جداً بين المسلمين والمجوس تظهر . فقد كان محالاً على التصور أن يستمر هذا الالتحام الى ما لا نهاية . كان عليه حتماً أن ينتهي وأن يسفر عن شيء . هذا الشيء لم يكن يحكمه ما يظهر للعين المجردة من أعداد ضخمة ومن أفيال تظهر وتغيب ومن فرسان ومشاة ودروع ورماح وسيوف ورايات وأعلام ومادة وعتاد ، بقدر ما كان يحكمه ما رسب في أعماق كل من الفريقين من ميزات وخصائص . فمن المؤكد أن نتيجة أي معركة تتحدد في قلوب المتعاركين قبل أن تظهر على أرض المعركة .

الايمان سلاح المسلمين

لقد كانت معنويات المسلمين تزداد علواً كلما احتاج الأمر الى ذلك ، وهنا نستطيع أن نقول إن النصر في هـذه المعركة كان الإيمان هو عدته وأداته . ولقد رأينا كيف كان يقف صحابة الرسول ﷺ والتابعون يقارعون التاريخ . إن الدهر اليوم ليتلفت ويصيخ بأذنيه ليسمع من وراء أربعة عشر قرناً من الزمان حديث الخنساء لأولادها ومقالة المرأة النخعية مجهولة الاسم لبنيها ، وكلمات أبطال المسلمين في مواقفهم في الميدان .

عبد الله بن أم مكتوم القرشي صحابي رسول الله ﷺ كان كفيفاً ضريراً وهو الذي أنزل الله فيه قوله تعالى : « عبس وتولى إن جاءه الأعمى » ، وشريعة الله لا تفرض الجهاد على أعمى « ليس على الأعمى حرج » عبد الله هـذا شهد القادسية ! يقول أنس بن مالك [1] صحابي رسول الله ﷺ : «رأيت يوم القادسية

---

(١) أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان غلاماً كاتباً ، وقد كان الساقي يوم حرمت الخمر فلما سمع المنادي بتحريمها بادر فأراق ما كان عنده منها . وكان يخضب بالصفرة أو بالحنة أو بالورس على أقوال وكانت له ذؤابة . شهد بدراً وكان عمره حين قدم النبي المدينة عشر سنوات . وهو من المكثرين في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دعا له بكثرة =

عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وعليه درع يجر أطرافها وبيده راية سوداء، فقيل له أليس قـد أنزل الله عذرك ؟ قال : بلى ولكنني أُكثِّر المسلمين بنفسي ! » وقال : « فكيف بسوادي في سبيل الله ! » [1] .

ومر المسلمون على رجل يوم القادسية وقد قطعت يداه ورجلاه وهو يفحص ويقول : « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

فقال له رجل : « من أنت يا عبد الله ؟ » قال :« رجل من الأنصار » [2] .

وأرسلنا عليهم ريحا

وحين قام قائم الظهيرة بدأ قطاع هرمزان يتراجع أمام ضغط قبائل اليمن من بني قحطان ، كذلك تراجع قطاع بيرزان أمام ضغط بني بكر بن وائل . هذه البادرة بعد تقدم القعقاع في القلب كانت بداية النهاية . تراجع هذان القطاعان حتى عادا إلى حافة العتيق فثبتا مرة أخرى ثبوتاً اضطرارياً. واستطاع

= المال والولد، فولد له من صلبه ثمانون ذكراً وبنتان ومات وله من أولاده وأولادهم مائة وعشرون ولد . وكان له بستان يجمع محصوله صيفاً وشتاء وكان له خاتم عليه نقش أسد رابض كما كان يشد أسنانه بالذهب . وكان أنس أحد الرماة المصيبين فكان يأمر ولده أن يرموا بين يديه وربما رمى معهم فيغلبهم بكثرة إصابته، وكان يلبس الخز ويتعمم به . أراد الحجاج إذلاله فختم عنقه فيمن ختم من الصحابة . وتوفي فيما بين عام تسعين وثلاث وتسعين على روايات وهو آخر من توفي بالبصرة من الصحابة وكان موته بقصره ودفن على فرسخين من البصرة. (أسد الغابة ٢٥٨)

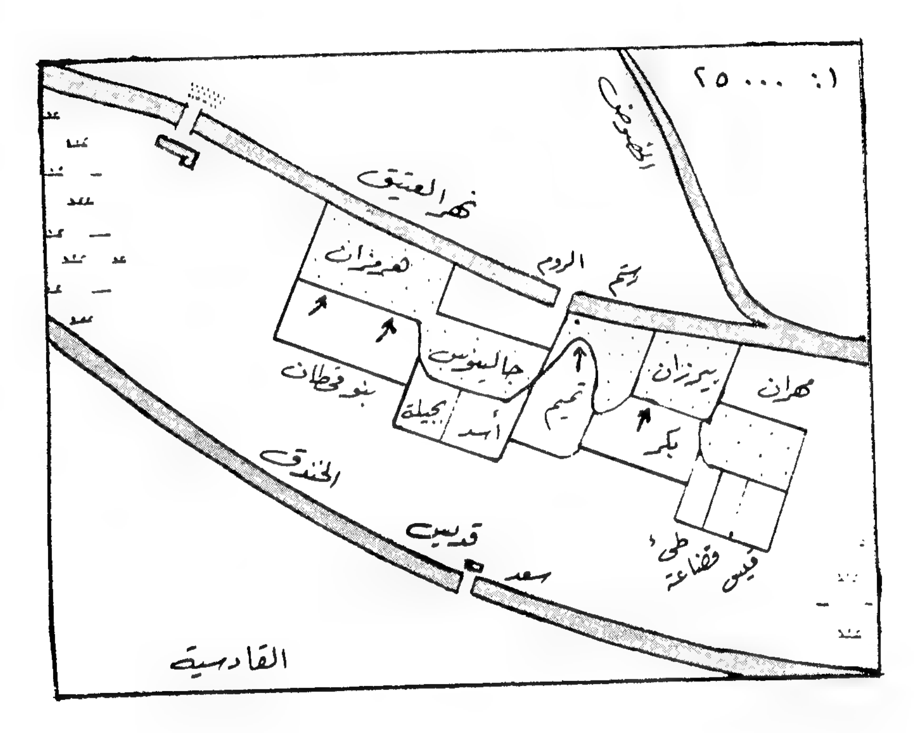
(١) القرطبي في تفسير آية ١٦٧ من سورة آل عمران «وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم...» قال السدي وابن جريج وغيرهما: كثروا سوادنا وإن لم تقاتلوا معنا فيكون ذلك دفعاً وقمعاً للعدو .

وابن أم مكتوم هو مؤذن الرسول (مثل بلال) وهو ابن خال خديجة بنت خويلد أولى زوجات الرسول . أسلم قديماً بمكة ومن المهاجرين الأولين الى المدينة مع مصعب بن عمير . استخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته . وله أحاديث عن النبي . وقد استشهد بالقادسية .

(الاستيعاب ٢ / ٤٩٤ - الإصابة ٥٧٦٦) .

(٢) الفاروق القائد ٥٣ عن الخراج لأبي يوسف ٣٦ .

القعقاع أن يوسع الإسفين الذي دقه فانفرج قلب جيش رستم. كانت الرياح نشطة في اتجاه يحمل غبار المعركة ويلقى به فوق المجوس . ثم اشتدت وهي دبور [1] وعصفت فاقتلعت طيارة رستم عن سريره وأطاحت بها فهوت في نهر العتيق . ومع اقتراب القتال من رستم ازداد الغبار تجاهه مع تعرضه للشمس فقام عن سريره.وقدمت عليه يومئذ بغال من المدائن بأموال فكانت واقفة خلف سريره



خريطة رقم (١٤) القادسية (٨)

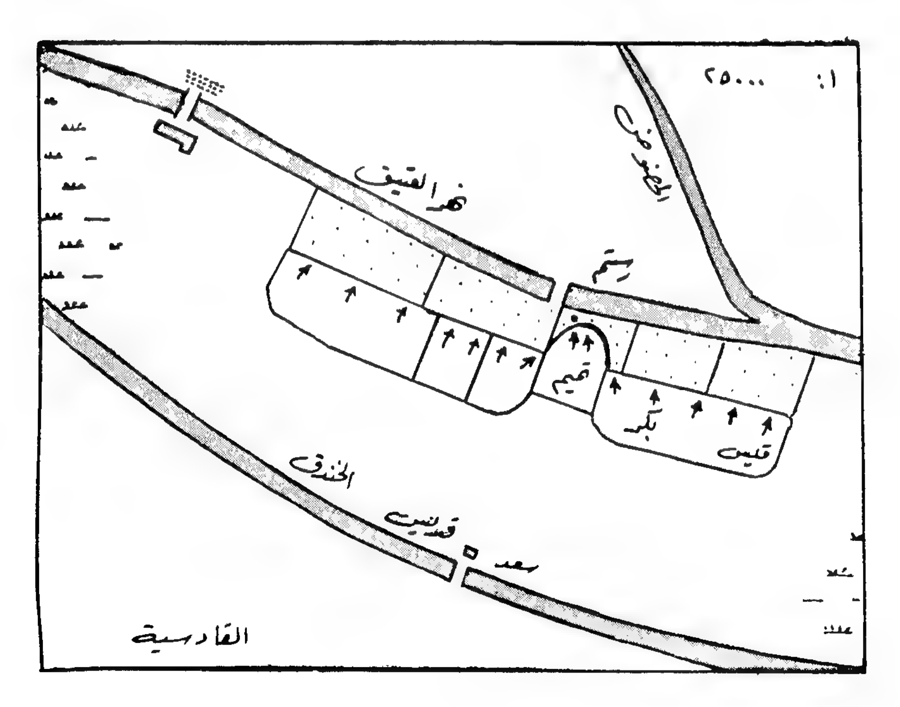
---

(١) الصبا ريح ومهبها المستوى أن تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار.ومقابلتها الدبور . ودبرت الريح تحولت (مختار الصحاح). والصبا:الريح الشرقية والدبور:الريح الغربية. وفي معركة القادسية اتخذت الريح اتجاهها من الغرب إلى الشرق مع نشاط شديد ، وكانت مع المسلمين ضد الفرس من يوم أرماث حتى نهاية المعركة .

على ضفاف العتيق ، فوقف رستم إلى جوارها يستظل بظل بغل منها وحمله ، وكان يحمل عِدْلين [حملين متساويين على جانبيه] .

مصرع رستم

واختفى سرير رستم عن الأنظار حين طارت عنه الطيارة . وانتهى القعقاع وكتيبته من تيم والرباب إلى السرير فعثروا به وقد قام عنه رستم . واقترب هلال بن عُلَّفَة التيمي [من تيم الرباب] على صهوة جواده من ذلك البغل الذي يقف خلفه رستم وهو لا يشعر برستم ، فضرب الحبال التي تحمل العدلين بسيفه فقطعها ووقع أحد العدلين [نصف حمولة البغل] فوق رستم فأصاب ظهره إصابة بالغة ، يقول الرواة : « فأزال من ظهره فقاراً » وعاد هلال يضرب الحمل



خريطة رقم (١٥) القادسية (٩)

فنفح مسكاً . ومضى رستم نحو العتيق ، وأبصر به هلال وعرفه فتوجه اليه فرماه رستم بنشابة أصابت قدمه وشكتها إلى ركاب سرجه – وكان الركاب يصنع من الخشب [١] – وهو يصيح بالفارسيه [٢] : « ببايه » أي « كما أنت ». ومضى رستم نحو العتيق وراح يتخفف مما عليه فألقى عنه ثقل حمله من سيف ودروع ثم رمى بنفسه في العتيق . وأسرع هلال فاقتحمه وراءه وقد عام رستم وهلال قائم فيه على قدميه قد أدركه وأخذ برجله ثم جذبه فخرج به إلى البر وضرب جبينه بالسيف ففلق هامته وضرب [٣] أنفه فقتله . ثم جر جثته حتى رمى بها بين أرجل البغال .

حدث هذا والجميع مشتبكون في ضراوة حتى أنه يبدو أن أكثرهم لم يلحظ ما حدث فصعد هلال بن علفة السرير ونادى يقول :

« قتلت رستم ورب الكعبة ، إلي » .

فأطافوا به وهم لا يرون السرير ولا يحسون به وكبروا وتنادوا فاتخذوا من مكان هلال فوق سرير رستم بؤرة تجمع . وانهار عند ذلك قلب جيش المجوس وانهزموا، وبلغ الإسفين مداه حتى السرير وما وراء السرير إلى العتيق وانفصل ما بين ميمنة الفرس وميسرتهم .

---

(١) يرجع الى الجزء الأول باب الخيل والفروسية من كتاب « الطريق إلى المدائن » .

(٢) الطبري ٣ / ٥٦٨ س ش س عن المجالد عن الشعبي وسعيد بن المرزبان عن رجل من بني عبس .

الطبري ٣ / ٥٧٦ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن اسماعيل بن خالد مولى بجيلة عن قيس بن أبي حازم البجلي وكان ممن شهدها .

(٣) الطبري ٣ / ٥٦٤ س ش س عن عطية عن عمرو بن سلمة .

« « « عن محمد وطلحة وزياد .

« ٣ / ٥٦٦ « « عن النضر عن ابن الرفيل .

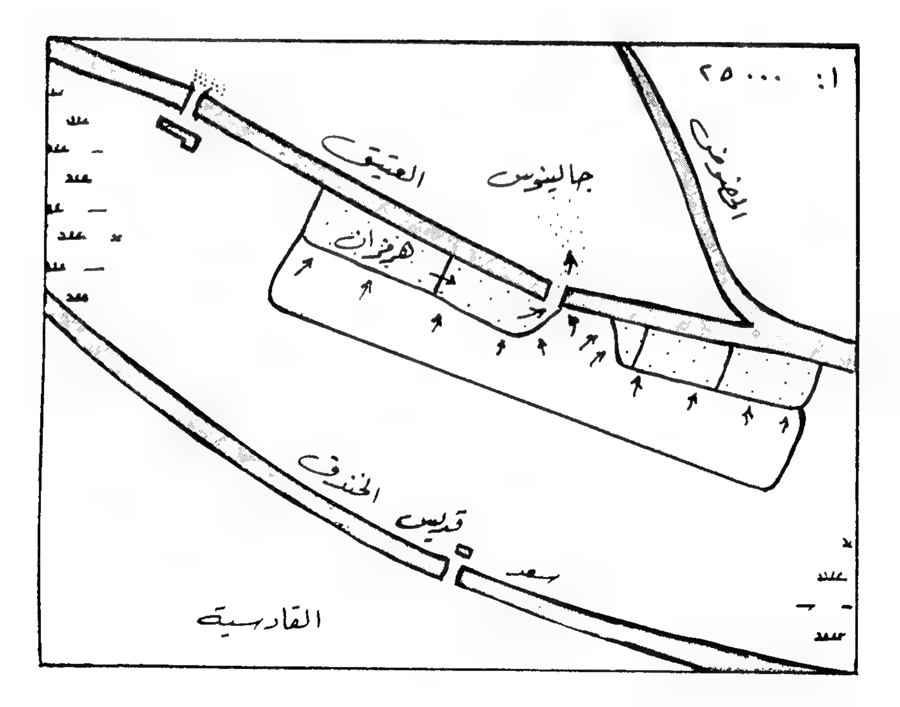
وفي رواية ابن اسحق (الطبري ٣ / ٥٧٦) أن هلالاً احتز رأس رستم فعلقه وهي تناقض سائر الروايات .

محاولة انسحاب

ووقف جالنوس على الردم ونادى العجم إلى عبوره للانسحاب . حينذاك كان يستحيل على ميسرتهم أن تتراجع عبر الردم وقد أخذت تميم والرباب عليهم السبيل . وتمكن جالنوس وهرمزان [جنـــاح الميمنة] أن يعبرا على الردم والمسلمون يقتلون منهم .

وركب الرعب المقترنين في السلاسل – وهـذا طبيعي – فتهافتوا في نهر العتيق ، وأدركهم المسلمون فوخزوهم بالرماح فما أفلت منهم أحد ، أولئك كانوا ثلاثين ألفاً .

ووصل ضرار بن الخطاب القرشي إلى ساري « درفش كابيان » فأنزلهـا من عليائها لآخر مرة فلم ترتفع بعد أبداً . هــذه راية فارس الكبرى التي رآهـا



خريطة رقم (١٦) القادسية (١٠)

المسلمون مرة واحدة قبل هذه ، فهي التي كان يرفعها بهمن جاذويه في المروحة حين هزم أبا عبيد الثقفي وقتله يوم الجسر . هـــذه الراية الحمراء ذات الشمس البنفسجية والقمر الذهبي « درفش كابيان » لعلهـا أشهر راية في التاريخ وقـد أوردنا وصفاً لها في الجزء الأول من كتاب « الطريق إلى المدائن » .

ومحاولة للصمود

واستحيا بعض العجم من الفرار فثبت بعد أن استبانت الهزيمة بضعة وثلاثون كتيبة واستقتلوا ولم يتبعوا الفُرّار ، ولكنه كان قتال شراذم . فتصدى لهم بضعـــة وثلاثون من رؤساء المسلمين [١] فيمن معهم ، فكان أولئك العجم على وجهين : فمنهم من ثبت حتى ُقتل ومنهم من عاد وهرب .

فكان ممن هرب :

الهرمزان وكان أمام عطارد بن حاجب التميمي .

وأهود وكان أمام حنظلة بن الربيع التميمي ، وهو حنظلة الكاتب .

وزاذ بن ُبهَيْش وكان أمام عاصم بن عمرو التميمي .

وقارن وكان أمام القعقاع بن عمرو التميمي .

وكان ممن ثبت حتى ُقتل :

َفرُّخان الأهوازي وكان أمام بسر بن أبي رُهْم [٢] الخثعمي .

وخُسْرَوْشنُوم الهمذاني وكان أمام ابن الهذيل الكاهلي [٣] .

وابن الهربذ وكان تجاه ذي النور عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، مال عليهم عبد الرحمن وقد تكتبوا ونصبوا للمسلمين فطحنهم بخيله [٤] .

---

(١) الطبري ٣/٥٦٩ س ش س عن المهلب ومحمد وطلحة وأصحابه .

(٢) بسر بن أبي رهم قيل الجهني وقيل الخثعمي (وهو بشر بن أبي ربيعة) ومن حيث كان جند الأهواز هم ميمنة جيش رستم وهم الذين ينتسب اليهم فرخان فإن هذا يعني أن بسر كان في ميسرة المسلمين ومن ذلك نذهب إلى أنه كان من خثعم .

(٣) في رواية أخرى لنفس الرواة وعمرو وسعيد أن يزدجرد حين هرب من حلوان عـــام ١٦ هـ. ترك خسروشنوم للدفاع عنها ـ الطبري ٤/٣٤ .

(٤) الطبري ٣/٥٦٩ س ش س عن يونس بن أبي اسحق عن أبيه عمن شهدها .

وشهريار بن كنارا وكان حيال سلمان بن ربيعة الباهلي ، وقد أبصرهم سلمان تحت راية لهم قد حفروا لها وجلسوا تحتها وقالوا لا نبرح حتى نموت ، فحمل عليهم فقتل من كان تحتها وسلبهم (١) وأخذ الراية . وكان سلمان فارس الناس يوم القادسية وكان يقال: «لَسَلمان أبصر بالمفاصل من الجازر بمفاصل الجزور»(٢). وكان سلمان من مدد الشام .

وكان مع رستم في القادسية أربعة آلاف من الديلم يسمون « جند شاهنشاه » كان كسرى پرويز قد أتى بهم من الديلم حين وجه اليها جيوشه فكانوا خدمه وخاصته ثم ظلوا على تلك المنزلة بعده . فلما قتل رستم وانهزم المجوس اعتزلوا جانباً وقالوا ما نحن كهؤلاء [الفرس] ولا لنا ملجأ ، وأثرنا عندهم غير جميل ، والرأي لنا أن ندخل معهم في دينهم فنعز بهم ، فاعتزلوا ، وأبصر بهم سعد فقال :« ما لهؤلاء ؟ » فأتاهم المغيرة بن شعبة فسألهم عن أمرهم فأخبروه بخبرهم وقالوا ندخل في دينكم. فرجع إلى سعد فأمّنهم فأسلموا وحالفوا زهرة بن حوية فأنزلهم سعد بحيث اختاروا (٣) .

زال تماماً كل ما كان لدى الفرس من معنوية وعز وأصابهم الانهيار التام وركبهم الذل والهوان . قال رجل من بني عبس (٤) :

« أصاب أهل فارس يومئذ بعد ما انهزموا ما أصاب الناس قبلهم ، قُتلوا حتى أن كان الرجل من المسلمين ليدعو الرجل منهم فيأتيه حتى يقوم بين يديه فيضرب عنقه ، وحتى إنه ليأخذ سلاحه فيقتله به ، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدهما بصاحبه وكذلك في العدة » [يعني يأمر العدد منهم فيقتل العدد] .

---

(١) نفس المصدر السابق + فتوح البلدان ٢٦٤ عن الواقدي .

(٢) الطبري ٥٦٩/٣ س ش س عن الغصن عن القاسم عن البهي أن الشعبي قال ...
فتوح البلدان ٢٦٤ عن أحمد بن سلمان الباهلي عن السهمي عن أشياخه .

(٣) فتوح البلدان ٢٠٨ عن أبي مسعود الكوفي عن بعض الكوفيين عن مسعر بن كدام .
« « ٢٠٩ عن المدائني .

(٤) الطبري ٥٦٩/٣ س ش س عن سعيد بن المرزبان عن رجل من بني عبس .

ولقد شهد شقيق بن سلمة الأسدي القادسية غلاماً بعد ما احتلم[1] يروي[2] فيقول :

« ... فهزمهم الله ، فلقد رأيتني أشرت إلى إسوار منهم فجاء إليّ وعليه السلاح التام فضربت عنقه ثم أخذت ما كان عليه » .

وفي رواية عن الأسود النخَعي قال : « شهدت القادسية ، فلقد رأيت غلاماً منا من النخع يسوق ستين أو ثمانين رجلاً من أبناء الأحرار ، فقلت أذل الله أبناء الأحرار »[3] .

وتم تطهير ميدان المعركة الذي كان يعج منذ قليل بأكثر من مائتين وستة وسبعين ألفاً من البشر من الطرفين ، لم يعد فيه الآن إلا نحو من ثلاثين ألفاً من المسلمين المنتصرين بخلاف أعداد من أسرى الفرس وقتلاهم الذين ملأوا الميدان .

مطاردة قريبة

كان ذلك بعد الظهر ولم يبلغ العصر . فأمر سعد القعقاع بن عمرو بمطاردة من سفل في هربه نحو الشرق وخرج معه في تلك المطاردة أخوه[4] عاصم . وأمر شرحبيل بن السمط بقوة من ميسرته بمطاردة من علا في هروبه نحو الشمال والشمال الغربي وذلك في مطاردة سريعة غير عميقة فالفلول ما زالت قريبة . وأمر خالد بن عرفطة بسلب القتلى وبدفن الشهداء .

دفن الشهداء

ما أعنفها معركة .. لم يتح للمسلمين منذ صباح أمس – عماس – حتى بعد ظهر اليوم – يوم القادسية – أن يجمعوا شهداءهم . لقد حملوا في الأيام السابقة ألفين وخمسمائة . أما في يوم عماس وليلة الهرير ويوم القادسية فقد استشهد منهم

---

(١) الطبري ٣/٥٢٥ س ش س عن عبيدة عن شقيق .
(٢) « ٣/٥٦٨ نفس السند .
(٣) « ٣/٥٧٦ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن عبدالرحمن بن الأسود النخعي.
(٤) « ٣/٥٦٥ س ش س عن محمد وطلحة وزياد .

ستة آلاف استقبلتهم ملائك الرحمن بالبشرى والسلام . فدفنهم إخوانهم الذين لم يبلغوا بعـــد منزلتهم بين خندق سابور ووادي [1] مُشَرّق . فكان شهداء الهرير والقادسية ألفين وخمسمائة دفنوا وراء الخندق تجاه مشرق ودفنوا شهداء عماس ثلاثة آلاف وخمسمائة على وادي مشرق .

وخرج صبيان المسلمين ونساؤهم ومعهم الأداوَى [أوعية الماء] فانحدروا من العذيب مع العشاء يسقون من به رمق من المسلمين ويقتلون من به رمق من المشركين . عن أم كثير امرأة همام [2] بن الحارث النخعي قالت :

« شهدنا القادسية مع سعد مع أزواجنا فلما أتانا أن قد فُرِغَ من النـــاس شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهَراوَى ثم أتينا القتلى ، فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنـــا الصبيان نوليهم ذلك ونصرفهم به » .

أما المجوس فقد قتل منهم يوم عماس وليلة الهرير ويوم القادسية عشرة آلاف خلاف من قتل في الأيام السابقة وخلاف الثلاثين ألفاً المقترنين بالسلاسل الذين تهافتوا في العتيق .

جثة رستم

وجمع خالد بن عرفطة الأموال والأسلاب فكان شيئاً لم يجمع قبل ولا بعـــد في ميدان القتال مثله . ويروي الرفيل الفارسي قال :

« دعاني سعد فأرسلني أنظر له في القتلى وأسمّي له رؤوسهم فأتيته وأعلمته ولم أرَ رستم في مكانه [عند السرير] فأرسل إلى رجل من التَّيْم يدعى هلالاً فقال : ألم تبلغني أنك قتلت رستم ؟

قال : بلى .

قال : فما صنعت به ؟

---

(١) الطبري ٥٦٤/٣ س ش س عن ابن مخراق عن أبي كعب الطائي عن أبيه .

(٢) « ٥٨١/٣ « « « عن سليمان بن بشير عن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي.

قال : ألقيته تحت قوائم الأبغل .

قال : فكيف قتلته ؟

فأخبره حتى قال : ضربت جبينه وأنفه .

قال سعد : فجئنا به .

فذهب هلال فجاء به حتى رماه أمام باب القصر .

فقال له سعد : جرّده إلا ما شئت .

فأخذ هلال سلبه حتى لم يدع عليه شيئاً وكان قد تخفف حين ألقى بنفسه في مياه العتيق فباع هلال الذي كان عليه بسبعين ألف درهم [حوالي ٦٠٠٠ جنيه مصري] وضاعت قلنسوته فلم يعثر عليها ولعلها سقطت في العتيق فغرقت أو جرفها التيار وكانت قيمتها وحدها مائة ألف لو ظفر بها » .

وجاء نفر من العباد [لعلهم الفرس الذين أسلموا] حتى دخلوا على سعد فقالوا :

« أيها الأمير ، رأينا جسد رستم على باب قصره وعليه رأسُ غيره » .

وكان الضرب قد شوّهه ، فضحك سعد [1] . [وهذا يناقض أن هلالاً قد احتز رأس رستم وعلقها] .

ثم مطاردة عميقة

ورجع القعقاع وشرحبيل من المطاردة ، فقال سعد للقعقاع :

---

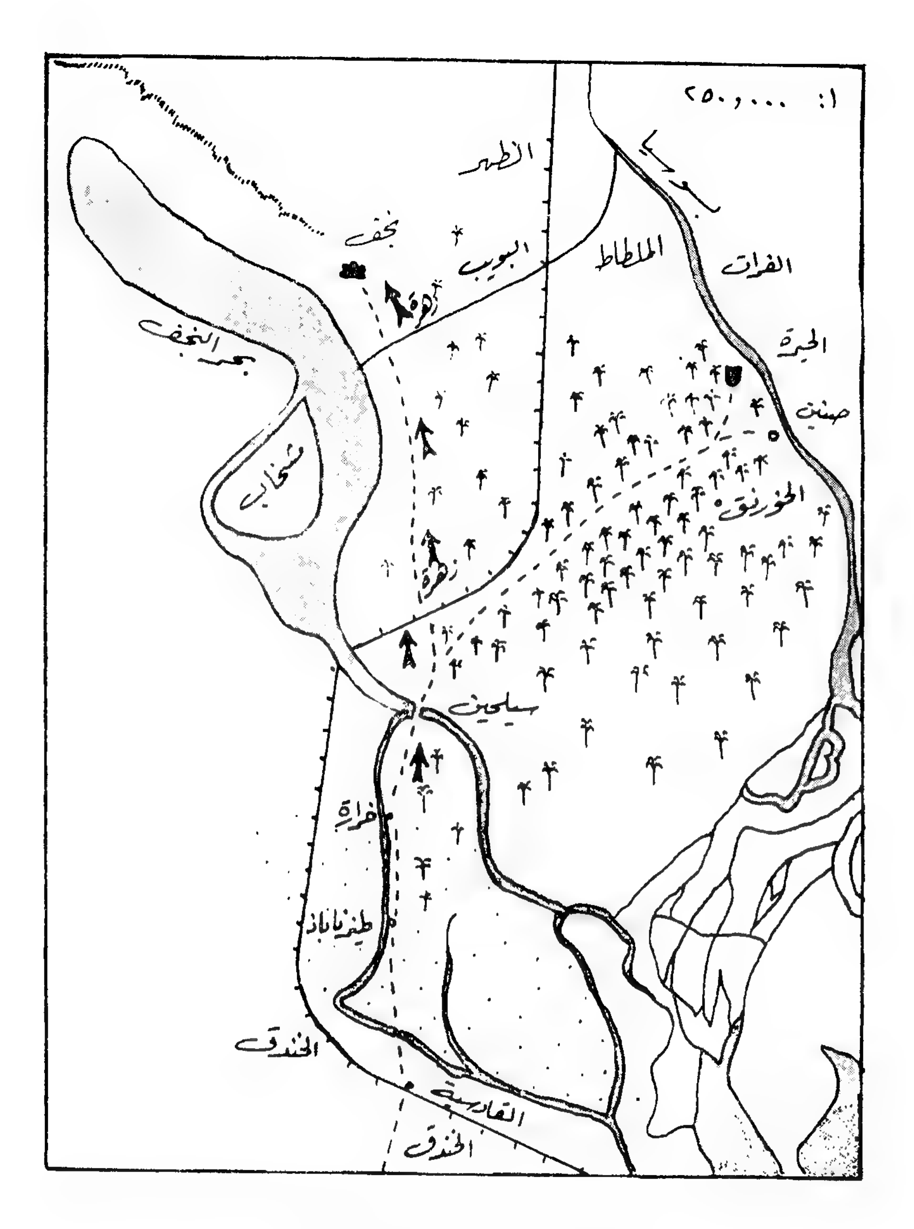
(١) الطبري ٣ / ٥٦٦ س ش س عن النضر عن ابن الرفيل عن أبيه .

وفي فتوح البلدان ٦٤٤ . يقول : « وقتل رستم فوجد بدنه مملوءاً ضرباً وطعناً فلم يعلم من قاتله . وكان قد مشى اليه عمرو بن معدي كرب وطليحة بن خويلد الأسدي وقرط بن جماح العبدي وضرار بن الأزور الأسدي، وقيل قتله زهير بن عبد شمس البجلي وقيل عوام بن عبد شمس وقيل هلال بن علفة التيمي » . وقد أخذنا بأن هلال بن علفة هو الذي قتله ،

أولاً : لتضافر الروايات على ذلك .

وثانياً : لاكتمال تفاصيلها .

وثالثاً : لاستحالة الاقتناع بالأقاويل الأخرى إذا ضاهيناها بواقع من ذكر مع مواقف المسلمين بالقادسية .



خريطة رقم (١٧) القادسية (١١)

« أغد فيما طلب شرحبيل » .

وقال لشرحبيل :

« أغد فيما طلب القعقاع » .

فملا القعقاع وسفل شرحبيل حتى بلغا مقدار الخرارة من القادسية يقتلون فلول رستم في كل قرية وأجمة وشاطىء نهر . ورجعوا ، فهنأ سعد المسلمين وأثنى على كل حي خيراً [١]. جميل من سعد ألا ينسى تهنئة جنوده وهو القائد المنتصر.

ثم أمر سعد زهرة بن الحوية أن يخرج في آثارهم في مطاردة أكثر عمقاً . فنادى زهرة في المقدمات وانطلق حتى إذا أتى الردم وجد المجوس بثقوه خلفهم ليعوقوا المسلمين عن طلبهم . وكان زهرة على حصان ذكر ، فقال لبكير بن الشداخ [٢] الليثي : « يا بكير أقدم » . كان بكير على فرس أنثى اسمها أطلال وقد اشتهر بها فعرف بفارس أطلال ، فضربها بكير وصاح بها :

« ثبي أطلال » .

فتجمعت ثم وثبت وكان البثق واسعاً فاجتازته ، وأوثب زهرة حصانه خلفها وكذلك سائر الخيل فاقتحمته وتتابع على ذلك ثلاثمائة فارس يجتازون تلك الفجوة ، ولم تستطع كل الخيل ذلك ولاحظ زهرة أن بعض الخيل كاعت [٣] فنادى :

« خذوا أيها الناس على القنطرة وعارضونا » .

ثم مضى بالثلاثمائة ومضى الآخرون يتبعونه عبر القنطرة .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٦٦ س ش س عن محمد وطلحة وزياد .

(٢) وقيل كان اسمه بكر نسبه ابن الكلبي فقال بكير بن شداد بن عامر بن الملوح بن يعمر (وهو الشداخ) بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث . وهو الذي فتح موقان وجهه اليها سراقة ابن عمرو . وفيه قال الشماخ :

وغيبت عن خيل بموقان أسلمت ... بكير بني شداخ فارس أطلال

(٣) كاع الجواد : مشى وتمايل على كوعه من شدة الحر أو عقر فمشى على كوعه .

مرع جالنوس

كان جالنوس قد بلغ الخرارة جريحاً [1] بمن فرّ معه ، وبعضهم تجاوزها ، كان جالنوس في أخرياتهم يحمي فرارهم ويعمل عمل حرس المؤخرة . نزلوا لخرارة فطعموا وشربوا الخمر !! ثم قاموا يتعجبون من نتيجة هذه المعركة وأن ميهم وقتالهم لم يؤثر في المسلمين . ورفعوا لجالنوس كرة فهو يرميها بالنشاب شقه فيها ، وهم على ذلك دهمهم زهرة ومن معه فحمل على جالنوس وهو لا مرفه فطاعنه فاختلفا ضربتين ثم قتله [2] زهرة وانهزم عن جالنوس أصحابه أخذ زهرة سلبه ، كان عليه يارقان [أساور تلبس في العضد] وقُلبان قرطان ، وإن حصان زهرة يومئذ ما عنانه إلا حَبل مضفور وما حزامه إلا شعر منسوج .

وقَتَلَ زهرة في هذه المطاردة من وجد من الفلول بين الخرارة إلى السيلحين م أمعن حتى بلغ النجف ، بينما كان هرمزان يجدُّ في فراره فاستطاعت بعض لمك الفلول أن تصل الى ديرة قرة [3] . ورجع زهرة وأصحابه حتى باتوا ليلتهم القادسية [4] ، ثم أصبحوا وقد اجتمعوا جميعاً لا ينتظرون أحداً من جندهم .

وحدث حين حانت الصلاة أن وجدوا المؤذن المعتاد في الشهداء ، فاختلف لناس على الأذان حتى كادوا أن يجتلدوا بالسيوف ، فأقرع سعد بينهم فخرج سهم رجل فأذن [5] .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٦٧ س ش س عن سعيد بن المرزبان .

(٢) الطبري ٣/٥٧٦ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن اسماعيل بن أبي خالد مولى بجيلة عن قيس بن أبي حازم البجلي .

فتوح البلدان ٦٤٥ . وفي رواية له أن كثير بن شهاب الحارثي طعن جالنوس ويقال قتله ، ثم يقول : وقال ابن الكلبي قتله زهرة بن حويه السعدي وذلك أثبت .

(٣) لم نقف على موقعه .

(٤) الطبري ٣/٥٦٦ س ش س عن محمد وطلحة وزياد .

(٥) » » » » » عن عبد الله بن شبرمة عن شقيق (بن سلمة الأسدي وقد شهدها) .

بين سعد وزهرة

وحين [1] عاد زهرة من المطاردة التي خرج فيها كان قــد تدرع بما كان على جالنوس فعرفه الأسرى الذين كانوا عند سعد وقالوا : « هذا سلب جالنوس » .

فقال له سعد : « هل أعانك عليه أحد ؟ »

قال : « نعم » .

قال : « من ؟ »

قال : « الله » .

وكان زهرة يومئذ شاباً له ذؤابة وقـــد سُوّد في الجاهلية وحسن بلاؤه في الاسلام . وغضب سعد أن تسرع زهرة فلبس ما كان على جالنوس واستكثره عليه فنزعه عنه وقال : « ألا انتظرت إذني ؟ »

لا عليك يا أخي

من سعد الى عمر [2]

« أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزَلـْزال شديد . ولقد لقوا المسلمين بعـــدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم الى المسلمين واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج .

وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء [3] ، وفلان وفلان ... ورجال من المسلمين لا نعلـَمُهم ، الله بهم عالم ، كانوا يدوون بالقرآن إذا جنّ عليهم

---

(١) الطبري ٥٦٧/٣ س ش س عن سعيد بن المرزبان .
  « « « « « عن عبيدة عن ابراهيم .
  « ٥٦٨/٣ « « « عن عبيدة عن عصمة .

(٢) « « « « « « عن محمد والمهلب وطلحة .

(٣) انظر ترجمته في آخر الكتاب تحت عنوان : « ترجمة مشاهير قادة الفتح » .

الليل دَوِيٌّ النحل . وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود . ولم يفضُل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم » .

كتب سعد هذه الرسالة الى عمر صباح اليوم التالي ، يعني كان تاريخها الاثنين ١٧ شعبان ١٥ هـ ٢٣ سبتمبر (ايلول) ٦٣٦ م بشَّره فيها بالفتح وبعدة من قتلوا ومن أصيب من المسلمين وسمى لعمر فيها من يعرف . وكتب أيضاً بما كان من شأن زهرة وسلب جالنوس . كذلك كتب زهرة في هـذا الشأن الى عمر . وكان سعد بن عميلة الفزاري هو رسول سعد بالفتح الى عمر .

وكان عمر ما زال يخرج إلى ظهر المدينة حين يصبح يستخبر الركبان عن أهل القادسية فإذا انتصف النهار رجع إلى أهله ومنزله . فلما لقى البشير سعد بن عميلة سأله : « من أين ؟ »

قال : « من القادسية » .

قال : « يا عبد الله حدثني » .

قال : « هزم الله العدو » .

هذا وسعد على ناقته لا يعرف عمر وعمر يخب معـه ويستخبره حتى دخلا المدينة وهما على ذلك فإذا الناس يقولون لعمر : « السلام عليكم يا أمير المؤمنين» .

فقال سعد : « فهلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين ! »

فجعل عمر يقول : « لا عليك يا أخي » (١) .

وقام عمر في الناس فقرأ عليهم كتاب سعد بالفتح ثم قال :

« .. إني حريص على أن لا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف .

---

(١) الطبري ٣/٥٨٣ س ش س عن مجالد بن سعيد .
الإصابة ٣٦٧٣ .

ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم ، ولست مُعلِّمكم إلا بالعمل .

إني والله ما أنا بِمَلِك فأستعبدكم وإنما أنا عبد الله عُرِض عليَّ الأمانة فإن أبيتُها ورددتها عليكم واتّبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وتروا سعدتُ .

وإن أنا حملتها واستتبعتكم إلى بيتي شقيت ففرحت قليلاً وحزنت طويلاً وبقيتُ لا أُقال ولا أُرَدُّ فأستعتب » [1] .

واغتمّ عمر كثيراً لمصاب سعد بن عبيد وقال : « لقد كاد قتله ينغص عليَّ هذا الفتح » [2] .

من عمر الى سعد

وكان جواب عمر إلى سعد في شأن زهرة :

« .. أنا أعلم بزهرة منك . وإن زهرة لم يكن ليغيّب من سلب سلبه شيئاً ، فإن كان الذي سعى به اليك كاذباً فلقاه الله مثل زهرة في عضُدَيْه يارقان .

تعمد إلى مثل زهرة وقد صَلِي بمثل ما صلي به وقد بقي عليك من حربك ما بقي تكسر قرنَه وتفسد قلبه !؟

أمْضِ له سلبه وفضّلْه على أصحابه عند العطاء بخمسمائة .

وإني قد نفلت كل من قتل رجلاً سلبه » .

ردّ عمر إلى زهرة اعتباره بهذا ، وردّ سعد اليه ما كان نزعه منه فباعه بسبعين ألف درهم [حوالي ٦٠٢٠ جنيهاً مصرياً] .

وفي معركة القادسية قطعت يد زيد بن صوحان العبدي ، فقد روي من عدة وجوه أن النبي ﷺ كان في مسيرة له إذ هَوَّم [التهويم أول النوم] فجعل يقول : زيد وما زيد ، جندب وما جندب . فسئل عن ذلك فقال : رجلان من

---

(١) الطبري ٣/٥٨٤ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وزياد .
(٢) فتوح البلدان ٦٤٧ .

أمتي ، أمـا أحدهما فتسبقه يده إلى الجنة ثم يتبعها سائر جسده ، وأما الآخر فيضرب ضربة تفرق بين الحق والباطل . فكان زيد بن صوحان قطعت يده يوم جلولاء[1] وقيل بالقادسية وقُتل يوم الجمل. وأما جندب فهو الذي قتل الساحر عنـد الوليد بن عقبة — نقول إن يده قطعت بالقادسية لأن بني ربيعة كما سوف نرى لم يكونوا في جيش جلولاء — .

---

(١) أسد الغابة ١٨٤٨ . وقال زيد بن صوحان بن حجر بن الحارث بن الهجرس بن صبرة ابن حدرجان بن عساس بن ليث بن حداد بن ظالم بن ذهل بن عجل بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس . (انظر ترجمته في آخر الكتاب تحت عنوان « ترجمة مشاهير قادة الفتح ») .

الباب العاشر

بعد المعركة

مهرجان الشعر

انتهت المعركة الحاسمة في القادسية ، وتمت المطاردة بعدها وتنفس المسلمون الصعداء ، فراحوا كعادتهم يسجلون انتصارهم شعراً .

قال عمرو بن شأس الأسدي [1] :

جَلَبْنا الخيلَ من أكنافِ نِيقٍ ... إلى كِسْرى فوافَقَها رِعالاً [2]
تَرَكْنَ لهم على الأقسام شجواً ... وبالحقْوَين أياماً طوالا [3]
وداعيةٍ بفارسَ قد تَرَكْنا ... تُبَكِّي كلما رأتِ الهلالا
قَتَلْنا رستماً وبنيه قَسْراً ... تُثير الخيلُ فوقهُمُ الهَيالا
تركنا منهُمُ حيث التقينا ... قياما ما يريدون ارتحالا
وفرَّ البيرزانُ ولم يُحارم ... وكان على كتيبته وبالا
ونجَّى الهرمزانَ حِذارُ نفسٍ ... ورَكْضُ الخيلِ مُوصلةً عِجالا

وقال أشعث بن عبد الحجر [4] بن سراقةَ العامري الكلابي ، وكان شهد الحيرة مع خالد والقادسية مع سعد :

---

(١) الطبري ٣/٥٤٠ س ش س عن الغصن عن القاسم عن رجل من بني كنانة .

(٢) الرعال : الجماعات المتفرقة واحدها رعلة ـ الكامل للمبرد ١/٤٨ .

(٣) الأقسام : يقصد أقسام العراق وأنحائها ، الشجو : الهم والحزن ـ مختار الصحاح .

(٤) فتوح البلدان ٦٤٧ . وقد ذكره ابن حجر باسم عبد الحجر بن سراقة وقال : يغلب أنه لم يترك على اسمه في الاسلام ـ الإصابة ٦٣٦٥ .

وما عُقِرَت بالسَّيْلحين مطيتي ... وبالقصر إلا خيفة أن أُعيَّرا
فبئس امرؤٌ يَبْأى عليّ برهطه ... وقد ساد أشياخي معدّاً وحِمْيَرا

وقال قيس بن المكشوح [1] :

جلبت الخيل من صنعاءَ تَرْدَى ... بكلّ مدجَّج كالليث سامِ
إلى وادي القرى فديار كلبٍ ... إلى اليرموك فالبلد الشآمي
وجئنا القادسية بعد شهر ... مسومة دوابرُها دوامي
فناهضنا هنالك جمع كسرى ... وأبناء المرازبة الكرام
فلما أن رأيتُ الخيلَ جالتْ ... قَصَدْتُ لموقف الملك الهُمَام
فأضرب رأسَه فهوى صريعاً ... بسيفٍ لا أفَلّ ولا كِهَام
وقد أتْلى الإله هنا خيراً ... وفعلُ الخير عند الله نام

وقال عصام بن المقْشَعِر :

فلو شَهِدَتْني بالقوادس أبْصَرَتْ ... جلاد امرىءٍ ماض إذا القوم أحجموا
أضارب بالمخشُوب حتى أفُلَّه ... وأطعن بالرمح المِتلّ وأقْدِمُ

وقال طليحة بن خويلد

طرقت سُليمى أرْحُلَ الرّكب ... أنى اهتديتِ بِسَبْسَبٍ سَهْب
اني كلفْتُ سلام بُعدَكُمُ ... بالغارة الشعواء والحرب
لو كنتِ يوم القادسية إذ ... نازلتهم بمهنَّدٍ عَضْب
أبصرتِ شداتي ومُنْصَرَفي ... وإقامتي للطعنِ والضرب

وكان أبو مفزّر الأسود بن قطبة شاعر المسلمين في تلك الأيام وهو القائل :

ألا بلّغا عني الغريب رسالة ... فقد قسمت فينا فيوء الأعاجم

---

(١) فتوح البلدان ٦٤٧ .

وردت علينا جزية القوم بالذي فككنا به عنهم ولاة المعاصم [1]

وقال جندب بن عمار الطائي [2] :

زعم العواذل أن ناقة جندب تلوي القرية عريت وأجمت
كذب العواذل لو رأين مناخها بالقادسية قلن لج وذلت
لو يضرب الطنبور تحت جرانها رجل أجش إذا ترنم حنت

وقال النسير بن ديسم [3] العجلي [كان قائد الطلائع يوم البويب] :

لقد علمت بالقادسية أنني صبور على اللأواء عف المكاسب

وقال منقع بن الحصين [4] — وكان له فرس اسمه جناح شهد به المعركة :

لما رأيت الخيل زيل بينها طعان ونشاب صبرت جناحا
فطاعنت حتى أنزل الله نصره وود جناح لو قضى فأراحا
كأن سيوف الهند فوق جبينه مخاريق برق في تهامة لاحا

وغير هؤلاء كثير من الشعراء مثل ربعي الذهلي [5] السدوسي والربيع بن مطر بن بلخ التميمي [6] وربيعة بن مقروم الضبي [7] من الرباب . وفي غمرة ذلك

---

(١) الإصابة ٤٥٦ .
(٢) الاصابة ١٢٢٥ . وقال : جندب بن عمار بن نعيم بن شهاب بن لام بن عمرو بن طريف . كان شاعراً . وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وشهد القادسية وقال الأبيات .
(٣) الاصابة ٧٧٧ - ٨٦٦٠ .
(٤) الطبقات الكبرى ٤٣/٧ . وقال منقع بن الحصين التميمي السعدي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ممن سكن البصرة واختط بها داراً . أتى النبي بصدقة إبلهم فسمعه يقول : « اللهم لا أحل لهم أن يكذبوا علي » ، قال المنقع : فلم أحدث بحديث عن النبي صلى عليه وسلم إلا حديثاً نطق به كتاب أو جرت به سنة، يكذب عليه في حياته فكيف بعد موته.
(٥) الاصابة ٢٧٢٣ .
(٦) « ٢٧٢٩ .
(٧) « ٢٧٣٦ .

التسجيل الشعري ذكر بعضهم مسألة بقـــاء سعد في القصر فلم يبقَ شاعر إلا عيَّره بها [١] .

قال رجل من بني أسد بيتين من أقذع الشعر :

نقـاتل حتى أنزل الله نصره ... وسعد بباب القادسية مُعْصِمُ
فأبْنا وقد آمَتْ نساءٌ كثيرةٌ ... ونسوة سعدٍ ليس فيهن أيِّمُ

فدارت على ألسن الناس . وقال جرير بن عبد الله البجلي :

أنا جريرٌ كنيتي أبو عَمْرو ... قد نصر الله وسعد في القصر

وبلغ سعداً ما يقول الناس فأشرف عليهم وأراهم ما به من القرح في فخذيه وإليتيه فعذره المسلمون ، وقال سعد يجيب جريراً :

وما أرجو بَجيلةَ غير أني ... أُؤَمِّلُ أجْرَها يوم الحسابِ
فقد لَقِيَتْ خيولُهمُ خيولاً ... وقد وقعَ الفوارسُ في ضرابِ
وقد دَلَفَتْ بعَرْصَتهم فيولٌ ... كأن زُهاءها إبلٌ جِراب [٢]
فلولا جمعُ قعقـاعِ بن عمروٍ ... وحَمَّال لَلَجُّوا في الكذاب
همُ منعوا جُمُوعَكمُ بطعنٍ ... وضربٍ مثل تَشْقيق الإهاب
ولولا ذاك أُلْفِيتم رَعَـاعاً ... تُشَلُّ جموعكم مثل الذباب

يقول قيس بن أبي حازم البجلي : « ... ولم يكن سعد لعمري يجبن » .

---

(١) الطبري ٣/٥٧٧ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن اسماعيل بن أبي خالد مولى بجيلة عن قيس بن أبي حازم البجلي وكان ممن شهد القادسية .
الطبري ٣/٥٨٠ س ش س عن المقدام بن شريح الحارثي عن أبيه .
« ٣/٥٧٩ « « « عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر (الأسدي) .
« ٣/٥٨٠ « « « عن القاسم بن سليم بن عبد الرحمن السعدي عن عثمان ابن رجاء السعدي .
(٢) دلفت : أسرعت ، عرصتهم : حوشهم وحوزتهم .

وقال عثمان بن رجاء السعدي : « كان سعد بن مالك أجرأ الناس وأشجعهم ، إنه نزل قصراً غير حصين بين الصفين فأشرف منه على الناس ، ولو عراه الصف فُوَاقَ ناقة أُخِذ برُمَّته ، فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه » .

أسر الشهداء

أمر آخر مما كان بعد المعركة ولعله من أبرز الظواهر في معسكر المسلمين ، ذلك أن هجوم الفرس بالأفيال يوم أرماث على بجيلة ومن جاورها قد أصابها بكثير من الضحايا . وفي بعض الروايات [1] :

« لم يكن من قبائل العرب أحد أكثر امرأة يوم القادسية من بجيلة والنخع. وكان مع الناس نساؤهم وفي النخع سبعمائة امرأة فارغة وفي بجيلة ألف ، فصاهر هؤلاء ألف من أحياء العرب وهؤلاء سبعمائة ، وكانت النخع – وبجيلة – تسمى أصهار المهاجرين – أو أختان المهاجرين » .

والمهاجرون هم المجاهدون هنا . ونعتقد أن عملية المصاهرة هذه لم تتم مباشرة بعد المعركة ولا بد أن تكون قد امتدت زمناً هو على الأقل عدة المتوفى عنها زوجها [أربعة أشهر وعشرة أيام] ولا يمنع أن تكون قد بدأت في أعقاب المعركة بالنسبة لغير أرامل الشهداء من بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم . وهو علاج اجتماعي سليم لمشكلة من مشاكل الحرب فيحسمها حسماً كريماً . وفي بعض الروايات عن نساء النخع أن المجاهدين تزوجوهن قبل الفتح وبعد الفتح حتى استوعبوهن فصار اليهن سبعمائة رجل من أفناء العرب .

وعن حنش بن الحارث بن لقيط النخعي عن أبيه قال [2] :

« ... فأتينا القادسية فقتل منا كثير ومن سائر الناس قليل ، فسئل عمر عن ذلك فقال : إن النخع وُلُّوا عظم الأمر وحده » .

---

(١) الطبري ٣/٥٨١ س ش س عن عطية وهو ابن الحارث عمن أدرك ذلك .
« « « « « عن محمد والمهلب وطلحة .

(٢) الاصابة ٧٢ .

وكانت هنيدة بنت عامر الهلالية هلال النخع امرأة القعقاع بن عمرو ، فخطب أختها أروى يوم القادسية بكير بن عبد الله الليثي وعتبة بن فرقد السُّلَمي ، وسماك بن خرشة الأنصاري [وهو خلاف أبي دجانة] وذلك بعد الفتح . فطلبت أروى من هنيدة أن تستشير لها القعقاع فيمن تختار منهم ، فقال القعقاع :

إن كنتِ حاولتِ الدراهم فانكِحي ... سِماكاً أخا الأنصار أو إبنَ فرْقَد
وإن كنتِ حاولتِ الطعان فيَمِّمي ... بُكَيْراً إذا ما الخيل جالت عن الرَّدي
وكلُّهُمُ في ذِروة المجد نازلٌ ... فشأنكم إن البيان عن الغَدِ

الغالب والمغلوب

وفي الأيام التالية للمعركة راح المسلمون يقوّمون أقباضهم ويرممون أمورهم . هذا ووحدات جيش خالد العائدة من الشام تصل تباعاً بعد أن شهدوا اليرموك وفتح دمشق ، بدأ وصولهم مع القعقاع يوم أغواث ، ثم يوم عماس مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ثم يوم القادسية واليوم التالي ليوم القادسية بعد أن انتهت المعركة والمطاردة . بعضهم أدرك المعركة فشارك فيها وبعضهم لم يدركها . فكتب سعد الى عمر يسأله عما ينبغي أن يسير [1] به فيهم . وكان هذا هو الكتاب الثاني بعد الفتح أرسله مع نذير بن عمرو ولما يأته بعد جواب الكتاب الأول .

سعد يسأل

ويبدو أن سعداً استمر يكتب كل يوم الى عمر ، فكان كلما عرضت له قضية كتب بها الى عمر . فكتب كتاباً آخر أرسله مع أنس بن الحُلَيْس يقول :

« إن أقواماً من أهل السواد ادعوا عهوداً .

---

(١) الطبري ٣/٥٨٤ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وزياد .

ولم يُقِيم على عهد أهل الأيام لنا ولم يفِ به أحدٌ علمناه إلا أهل بانقيا وبسما وأهل أُلـَّيْس الآخرة .

وادعى أهل السواد أن فارس أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا الينا ولم يذهبوا في الأرض » .

وكتب إيضاحاً أكثر مع أبي الهيّاج بن مالك الأسدي :

« إن أهل السواد جلوا ، فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم ، وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن . فأحْدِث الينا :

١ – فيمن تم . [على الوفاء بالعهد وهم أهل بانقيا وبسما وأُليس الآخرة] .

٢ – وفيمن جلا .

٣ – وفيمن ادعى أنه استُكره وحُشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم .

فإنا بأرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل ، وقد كثر أهل صلحنا ، وإنَّ أعمَر لها وأوهن لعدونا تألُّفهم » .

فقام عمر في الناس فقال :

« إنه من يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظه ولا يضر إلا نفسه .

ومن يتبع السُّنَّة وينتهِ الى الشرائع ويلزم السبيل النهج ابتغاء ما عند الله لأهل الطاعة أصاب أمره وظفر بحظه ، وذلك بأن الله عز وجل يقول : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

وقد ظفر أهل الأيام والقوادس بما يليهم ، وجلا أهله ، وأتاهم من أقام على عهدهم .

فما رأيكم فيمن زعم أنه استُكره وحُشر ؟

وفيمن لم يدَّعِ ذلك ولم يُقِيم وجلا ؟

وفيمن أقام ولم يدع شيئاً ولم يجْلُ ؟

وفيمن استسلم ؟ »

فأجمعوا على الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبُه إلا خيراً .

وأن من ادعى دعوى فصدقوه فيها أو وفى فبمنزلتهم ، وإن لم يصدقوه أعادوا سلحهم .

وأن يجعل أمر من جلا اليهم فإن شاءوا وادعوهم وكانوا لهم ذمة ، وإن شاءوا ظلوا على جلائهم ومنعوا من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال ، وأن يخيروا فمن عاد وأقام واستسلم فعليه الجزية وإلا فالجلاء وكذلك بالنسبة للفلاحين .

وكتب عمر جواب الكتاب الذي حمله أنس بن الحليس :

« أما بعد . فإن الله جل وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين ، العدل في السيرة ، والذكر .

فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرض منه إلا بالكثير .

وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء. والعدل إن رُؤيَ ليناً فهو أقوى وأطفأ للجَوْر وأقمع للباطل من الجور وإن رؤي شديداً فهو أنكش للكفر .

١ — فمن تمَّ على عهـــده من أهل السواد ولم يُعِن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية .

٢ — وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم اليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بما ادّعوا من ذلك إلا أن تشاؤوا ، وإن لم تشاؤوا فانبذ اليهم وأبلغوهم مأمنهم » .

وكتب رداً على الكتاب الذي حمله أبو الهيّاج بن مالك الأسدي :

« ... أما من أقام ولم يحلُ وليس له عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم ، وكفهم عنكم إجابة ، وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك . وكل من ادّعى ذلك فصُدِّق فلهم الذمة ، وإن كُذِّبوا نُبذ اليهم .

وأما من أعان [عليكم] وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فإن شئتم فادعوهم

إلى أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية . وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم » .

فلما قدمت كتب عمر على سعد والمسلمين عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية ، فتراجعوا وصاروا ذمة كمن بقي على عهده إلا أن خراجهم أثقل ، وأنزلوا من أقام منزلة ذي العهد وكذلك الفلاحين . ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم إلى واحدة من اثنتين الإسلام أو الجزية ، فصارت هذه فيئاً لمن أفاء الله عليه ، وكان سائر السواد الذمة .

وأخذوهم بخراج كسرى وكان على رؤوس الرجال على ما في أيديهم من الحصة والأموال . وكان مما أفاء الله عليهم ما كان لآل كسرى [البيت المالك] ومن انحاز اليهم وعيال من قاتل معهم وأمواله وما كان لبيوت النيران [معابد المجوس] والآجام ومستنقع المياه وما كان موقوفاً للسكك ، وكان ذلك متفرقاً في كل السواد فلم يتأت قسمته ، ولذلك تركوه يقوم به لأهل الفيء من وثقوا به وتراضوا عليه . وقد أكثرت المصادر والمؤلفات في ذكر النظام المالي الذي وضعه عمر والمسلمون لما فتح الله عليهم وأفاضوا في ذلك بما يغنينا عن الاستطراد وراءه اكتفاء بما ذكرنا .

الأنفال

وقسمت الغنائم على المجاهدين فكان نصيب الراجل ألفين ونصيب الفارس ستة آلاف . وقد أمر عمر سعد أن يفضل أهل البلاء عند العطاء فزادهم سعد خمسمائة لكل منهم وكانوا خمسة وعشرين رجلاً منهم [1] زهرة وعصمة الضبي

---

(١) الطبري ٣/٥٦٨ س ش س عن عبيدة عن ابراهيم وعامر .

والكلج [هؤلاء ذكرهم الرواة ، ولا بد أن كان منهم القعقاع وعاصم والربيل بن عمرو وسواد بن مالك] . كذلك أمره ان يعطي من لحق بهم من جيش الشام ممن لم يدرك القتال .

ووزع سعد وأعطى ثم بقي عنده شيء كثير فكتب الى عمر يسأله ، فأمره أن يعطي حملة القرآن ، فجاءه عمرو بن معدي كرب وبسر بن أبي رهم [وهو بشر بن ربيعة بن عمرو الخثعمي] ، فقال سعد لعمرو :

« ما معك من كتاب الله تعالى ؟ »

فقال عمرو إنه أسلم ثم شغله الجهاد عن حفظ القرآن ، فلم يعطه شيئاً .

وسأل بسراً عما معه من القرآن فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم » . فلم يعطه شيئاً فقالا أبياتاً يهجوانه بها .

فقال بسر [1] :

ألمَّ خيال من أميمة مَوْهِناً ... وقد جعلت أولى النجوم تغورُ
ونحن بصحراء العذيب ودارها ... حجازية إن المحل شطيرُ
ولا غَرْوَ إلا جَوْبُها البيدَ في الدجى ... ومن دوننا رَعْنٌ أشَمُّ وقورُ
تَحِنُّ بباب القادسية ناقتي ... وسعد بن وقاص عليَّ أميرُ
وسعد أمير شره دون خيره ... طويلُ الشذى كابي الزناد قصير
تذكَّرْ هداك الله وَقْعَ سيوفنا ... بباب قديس والمَكَرُّ عسير
عشية ودَّ القوم لو أن بعضهم ... يعار جناحَيْ طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قِراع كتيبة ... دلفنا لأخرى كالجبال تسير

---

(١) فتوح البلدان ٦٤٧ .

الاصابة ٧٦٨ – ٨٦٩ .

وعنـــد أمير المؤمنين نوافل | وعند المثنى فضة وحرير [1]

وقال عمرو بن معدي كرب :

إذا قتلنا ولا يبكي لنـــا أحد | قالت قريش ألا تلك المقـــادير
نُعطَـى السوية من طعن به نَفَذٌ | ولا سوية إذ تعطى الدنانير

وكتب سعد بذلك إلى عمر فأجابه عمر : « أن أعطهما على بلائهما » .

---

(١) جوبها : قطعها ، جوب الشيء قطع وسطه .
الرعن : أنف الجبل ، والأرعن طويل الأنف وهو أيضاً الأحمق .
الشذى : الشر والأذى .
يقال : فلان واري الزند أي فالح مفلح . وفلان كابي الزند أو الزناد أي خاسر .

خريطة القادسية

لقد أسسنا كثيراً مما ذكرنا في شرح مراحل المعركة على الخريطة التي رسمناها للقادسية ولمواقع الوحدات فيها . وهي خريطة أنشأناها ولم ننقلها عن سوانا ، تشمل أوضاع قوات الفريقين ثم تطبيق هـذه الأوضاع على طبوغرافية المكان . ونشرح هنا الأسس التي بنينا عليها تفاصيل هذه الخريطة .

أولا — الأساس الجغرافي

١ — ان القادسية بين الخندق والعتيق كما ذكر سعد لعمر. وقد أخذنا موقع القادسية من خريطة العراق الأثرية وكذلك عن خريطة غير مطبوعة مرسومة بمقياس ١ : ١٠٠٠٠٠ وافتنا بها مشكورة مديرية الآثار العراقية ببغداد .

٢ — وقُدَيْس حصن على الخندق كان يقال له أيضاً « قصر قديس » ، وهو الذي اتخذه سعد مقراً له يشرف منه على المعركة . ذلك القصر نذهب إلى أنه كان من ثلاث طوابق على الأقل ، أخذنا ذلك مما جاء في حادث أبي محجن إذ صعد من محبسه إلى سعد ليسترضيه فلما ردّه سعد نزل إلى محبسه ، فلما وافقته سلمى على فك قيده نزل فأخذ البلقاء، يفيدنا هذا أن سجن أبي محجن كان طابقاً فوق الأرضي وأن سعداً كان في سطح فوق ذلك .

٣ — أضفنا إلى الخريطة من المعالم الهامة وفق الأوصاف التي وردت في

المصادر التاريخية مما لم نجده فيما بين أيدينا من خرائط . وقد كان هـذا يكفينا من الناحية العلمية ، ولكن رغبة منا في زيادة الاستيثاق وفي إشراك خبراء من أهل العراق ، فقد أعدنا الخريطة بعد الإضافات التي أدخلناها إلى مديرية الآثار العراقية ببغداد للعرض وإبداء تأييدها لما أضفنا الى خرائطها الأصلية أو نقده مع بعض استفسارات منا ونعتب على الهيئة العلميـة ان لم توافنا بأي رد في هذا الشأن .

ولم نجد الخندق في خرائط القادسية فماذا قالت عنه المصادر التاريخية ؟

كانت هناك قناة صناعية غربي نهر الفرات وهي نهر كَرْى سعده المسمّى خندق سابور الذي نسب بعض المؤرخين حفره إلى نبوخذنصر واتخذه سابور ذو الأكتاف الملك الساساني ٣٠٩ – ٣٧٩ م بعد أن أهمل قليلاً ، اتخذه خندقاً فأجرى فيه الماء وبنى عليه المخافر كخط دفاعي لمراقبة البادية والحيلولة دون تسرب الموجات العربية الى العراق . وقد شيّد في ضفته الغربية جداراً ضخماً مبنياً بالحجـارة . ويمتد هذا النهر أو الخندق من مكان جنوبي هيت بنحو سبعة عشر كيلومتراً ويمتد على طول الحدود الغربية لأرض العراق السهلة وينتهي في البحر قرب نهر بوبيان وهو مصب نهر الفرات القديم الواقع على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً إلى الغرب من شط العرب [خور عبد الله الحالي بين البصرة والزبير] وإلى الشرق من جبل سنام . وقد أحياه المسلمون بعد تحرير العراق فسمي نهر كَرْى سَعْده [نسبة إلى سعد بن عمرو بن حرام] الذي أمره سعد ابن أبي وقاص بِكَرْيِهِ [حفره] ويبلغ طوله حوالي تسعمائة كيلومتر ويسلك الضفة الغربية لبحيرة الحبـانية فجبل سعده فوادي أبي فروخ ثم ينحدر الى الجنوب الشرقي حتى يصل أكناف طف كربلاء من ناحية الغرب حيث يتصل بخندق سابور قرب مدينة الكوفة غربي الفرات ويستمر في سيره نحو الجنوب مارّاً بغربي آثار خورنق النعمان ثم ينحدر إلى الطرف الشرقي من بحر النجف الذي جف الآن . وهنا تسكت المصادر عن سير الخندق بجهة القادسية ولكنها

تعود فتقول ثم يمتد على طول الجانب الغربي من هور الحمار [بمنطقة البصرة] فيمتد جنوباً غربي هور عبد الله قريباً من ميناء أم قصر . وعندما كان نهر كرى سعده عامراً كانت منطقة هور الحمار أيضاً عامرة بالمزارع والقرى وما زالت آثار الأبنية القديمة قائمة في منتصف البحيرة كتلّ شعيب وأم الساح وأبو زركي وأبو صلابيخ . [عن تقرير مديرية الآثار العراقية] .

٤ – ونهر العتيق لم نجد له أثراً على أي خريطة ولكننا وجدنا في خريطة مديرية الآثار المذكورة وادٍ يمرُّ شمالي القادسية مباشرة هو وادي مصب، لم نجد أي معالم أخرى بالمنطقة يمكن أن تكون وفق أوصاف نهر العتيق سواء من حيث موقعه ومن حيث مساره فاعتبرناه هو وكان ذلك مما عرضنا على الآثار العراقية فلم نتلقّ جواباً. وعند القادسية يقترب العتيق من الخندق بحيث يكون بين القنطرة التي عليه وبين قديس مسافة ميل [والميل ١٨٤٨ متراً] .

٥ – هذه القنطرة لم تكن تجاه قديس وإنما كانت أعلى من مكان الردم . دليلنا على ذلك أن رستم حين بلغ العتيق – في الموضع الذي ردمه بعد ذلك – ساير العتيق نحو خفان إلى الجنوب الشرقي ينظر إلى المسلمين حتى بلغ منقطع عسكرهم ، ثم رجع وصعد حتى بلغ منقطع عسكرهم ، ثم رجع وصعد حتى بلغ القنطرة .

٦ – عن يمين القادسية وعن يسارها فيوض من بطائح العراق التي خلّفها فيضان الفرات فيما انخفض من الأرض . فعن يسارها منخفض الجوف يتجه نحو الحيرة والنجف وعن يمينها بطيحة طويلة تصل إلى الولجة – كذلك وصفها سعد لعمر في خطابه – وهي البطيحة العظمى ، فكأنما كانت القادسية معبراً جافاً يجتاز تلك الفيوض بين الصحراء والسواد . [الطبري ٣ / ٤٩٢] .

٧ – قدرنا عمق خطوط الفرس بحوالي مائتي متر. قدرنا ذلك من أن هاشم ابن عتبة وقف أمام صف المسلمين ونزع سهماً فأصاب أذن فرسه ، قال : أين ترون سهمي كان بالغاً ؟ فقيل : العتيق .. إذاً كان بين موقف هاشم أمام صف

المسلمين والمعركة دائرة وبين العتيق وهو آخر صفوف الفرس مرمى سهم. ولقد كان المرمى المؤثر للسهم مائتي ذراع [حوالي مائة متر] ونفترض أن أقصى مدى للسهم يجاوز المدى المؤثر بمقدار الضعف .

٨ – في موضع آخر وجدنا نشاب الفرس يجوز صفوف المسلمين والمعركة دائرة ، ومعنى هذا أيضاً أن عمق صفوف المسلمين كان نحواً من ذلك . وحين يتحاجز الطرفان فلا بد أن يكون ما بينهما من مسافة يكفل حد الأمان وذلك بأن يتجاوز مدى الرمي بالسهام . وإذاً كان بين الخندق والعتيق [أي بين قديس والردم] حوالي ٦٠٠ متر .

٩ – بقيت القنطرة بين خيلين من خيول الفرس وخيول المسلمين .

١٠ – كان ردم العتيق تجاه قديس. هذا الردم كان المعبر الوحيد الذي يصل جيش رستم بقاعدته ، وقد انضغط المجوس حتى كان آخر صفهم على شفا العتيق فلم يتسع خلف صفوفهم مكان لمواصلاتهم حتى وجدنا طعام رستم كان يمر أمام الصفوف . معنى هـذا أن الفرس تركوا ممراً أمام الردم الى أمام صفوفهم كما رسمنا بالخريطة .

١١ – كانت الجبهة بطول ميل بين الصفين وبطولهما .

ثانيا – تعبئة رستم

١٢ – هرمزان على الميمنة . وجالنوس بينه وبين القلب .

١٣ – مهران على الميسرة . وبيرزان بينه وبين القلب .

١٤ – بهمن جاذويه بين رستم وجالنوس منذ كانوا بالنجف فجعله بالقلب ويبدو أن رستم اطمأن اليه منذ انتصر يوم الجسر على أبي عبيد .

١٥ – وإذاً كان ترتيب فرق الفرس من الميمنة الى الميسرة كالآتي ، هرمزان – جالنوس – بهمن جاذويه – بيرزان – مهران .

١٦ — أفيال الفرس كانت ٣٠ في رواية و ٣٣ في رواية أخرى . رواية ثالثة تفسر لنا هذا التعارض بأنها كانت ٣٠ فيلاً للقتال و ٣ للملوك تركبها لا تقاتل . وضع رستم ١٨ فيلاً منها بالقلب [إذاً منها واحد غير مقاتل] ، و ٨ في الميمنة [إذاً منها واحد غير مقاتل] ، و ٧ في الميسرة [إذاً منها واحد غير مقاتل] . [الطبري ٤ / ١١٣] . مع كل فيل ٤٠٠٠ مقاتل من الفرسان والمشاة . وهكذا ينضبط تعداد جيش الفرس المقاتل ٣٠ فيلاً × ٤٠٠٠ مقاتل = ١٢٠ ٠٠٠ مقاتل . ذهبنا إلى أن نصفهم من الفرسان ونصفهم من المشاة .

إذاً كانت فرقة هرمزان [الميمنة] = ٧ × ٤٠٠٠ = ٢٨ ٠٠٠ .

وكانت فرقة مهران [الميسرة] = ٦ × ٤٠٠٠ = ٢٤ ٠٠٠ .

١٧ — يوم أرماث وجه الفرس إلى الوجه الذي به بجيلة [في ميسرة المسلمين] ١٣ فيلاً ، منها ٧ أفيال ميمنتهم الخاصة بهرمزان ، وإذاً كان معها ٦ أخرى من أفيال القلب هي أفيال جاره في موقفه ، جالنوس .

إذاً كانت فرقة جالنوس = ٦ × ٤٠٠٠ = ٢٤ ٠٠٠ .

١٨ — هذه الأفيال الستة كانت من عدد أفيال القلب السبعة عشر . ومعنى هذا أنه يبقى منها أحد عشر فيلاً تحت قيادتيْ بيرزان وبهمن . فإذا كان رستم قد جعل في يمين القلب ستة أفيال [جالنوس] فإن المنطق يقضي بأنه وضع في يسار القلب ستة أفيال أيضاً [بيرزان] ويبقى لبهمن خمسة أفيال .

١٩ — كان صف الفرس على حافة العتيق ، فوضعنا فرقهم على الخريطة بأبعاد تتناسب مع تعداد كل فرقة .

٢٠ — كان جالنوس أول من دعا المجوس إلى عبور العتيق للانسحاب ، وعبره فكان الردم خلفه أو على الأقل بمكان قريب يسمح له أن يكون أول من عبر . ثم عبر بعده هرمزان .

ثالثاً – تعبئة سعد

٢١ – عبد الله بن المعتم العبسي على الميمنة – عبس من قيس عيلان ، إذاً كانت قيس عيلان في الميمنة .

٢٢ – شرحبيل بن السمط الكندي على الميسرة – كندة من قبائل اليمن القحطانية . إذاً كانت سائر قبائل قحطان في الميسرة . يدعم هذا .

ا – ان النخع نافست بجيلة في كثرة شهدائها فكانت تجاورها وتدور الدائرة عليها معها حين طحنتها الأفيال يوم أرماث .

ب – رواية قيس بن أبي حازم الأحمسي البجلي [من بجيلة] ، قال مرّ بنا عمرو بن معدي كرب [الزبيدي] وهو يحضض الناس بين الصفين [الطبري ٣ / ٥٣٧] .

جـ – وروايته أيضاً ان الأعاجم وجهت الى الوجه الذي فيه بجيلة ١٣ فيلاً. إذاً كانت مواقف زبيد [من اليمنيين القحطانيين] قريبة من بجيلة وزبيد من سعد العشيرة .

د – ان الأشعث بن قيس قام في بني كندة يدفع عن بجيلة . وكندة أيضاً من اليمنيين القحطانيين – عشيرة شرحبيل بن السمط قائد الميسرة .

تفيدنا كل هذه الأدلة وأمثالها أن القحطانيين جميعاً قد اجتمعوا في الميسرة تحت قيادة شرحبيل بن السمط . ومن لم يرد له ذكر معين يحدد لنا بدقة موقع مواقفه بين القحطانية رتبناهم وفق تجاور مساكنهم حسب ما ذكرنا عن ابن خلدون في الجزء الأول من كتاب « الطريق إلى المدائن » .

٢٣ – أرسل سعد يوم أرماث إلى بني أسد أن يردّوا هجوم الفرس عن بجيلة [الطبري ٣ / ٥٣٨] . وإذاً فقد كانت أسد تجاور بجيلة في مواقفها . وكانت أسد من ولد عدنان ولم تكن من القحطانية ، ومعنى هذا أنها لم تكن عن يسار بجيلة حيث تدور الدائرة مع قبائل القحطانيين وإنما كانت عن يمينها حيث

لم تكن المعركة قد امتدت اليها بعد . يفيدنا هـذا أيضاً أن بجيلة كانت منتهى يمين القحطانية .

٢٤ — وجدنا غالب بن عبد الله الليثي يخرج مع فرسان بني أسد يدفعون عن بجيلة ، وليث من كنانة وكانت كنانه ثلاثمائة فقط في المعركة — يدلنا هذا على انضمام كنانة الى أسد ، وقد كان أسد وكنانة أخوين وهما ابنا خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر . فكان انضمام كنانة الى أسد في المعركة هو انضمام القليل الى إخوتهم الأكثر عدداً .

٢٥ — وجه الفرس ضغطهم يوم أرماث على أسد فوجهوا اليهم جالنوس وبهمن [الطبري ٣ / ٥٤٠] . يوافق هذا تعبئة الفرس فيما تواجه بالنسبة لموقع أسد من الجبهة .

٢٦ — رد عاصم وبنو تميم أفيال الفرس عن أسد ، واذاً كانت تميم الى اليمين من أسد فقد كانت بجيلة هي التي عن يسارها . ويصل هذا بمواقف المسلمين ان تقع تميم في صميم قلب المسلمين أمـــام القصر وفي مواجهة قلب جيش الفرس . يؤيد هذا :

أ — أنه عنـد التعبئة أدخل سعد مقدمة زهرة ومؤخرة عاصم — وكلاهما كان من تميم — في الوسط .

ب — أسر عاصم بن عمرو التميمي يوم أرماث البغل الذي يحمل طعام رستم وبطبيعة الحال كان مكان رستم في قلب الفرس يواجه قلب جيش المسلمين .

جـ — بارز القعقـاع بن عمرو التميمي بهمن جاذويه وكان مكانه في القلب من جيش رستم .

د — ثم بارز بيرزان وكانت مواقفه إلى جوار بهمن .

هـ — انتهى القعقاع ومن معه يوم القـــادسية إلى سرير رستم ، فكان إذاً قبالته .

و — هلال بن علفة التيمي تيم الرباب قتل رستم . وكانت الرباب وتميم أبناء عمومة وتتجاور مساكنهم في جزيرة العرب ، وبعض النسابة يجعل الرباب من تميم مما يجعل من المعقول أن تكون مواقفهم مع تميم .

٢٧ — سقطت «درفش كابيان» في يد ضرار بن الخطاب الفهري [القرشي] وفهر من كنانة وكنانة كانت مع أسد . ومن البديهي أن ينصب رستم رايته الكبرى الى جوار سريره ونرى أن ذلك كان الى يمين السرير حيث يواجه موقف كنانة .

٢٨ — توزيع قبائل المسلمين على طول الجبهة بمعدل يتناسب وعدد كل قبيلة يستقيم مع كل ما سبق .

٢٩ — لم نجد في الروايات ما يدلنا على مواقف ١٠٠٠ من قضاعة و ١٠٠٠ من طيء وكان هناك لذلك احتمال من اثنين ، إما أن يكونوا اتخذوا مواقفهم في الميمنة بحكم تجاور مساكنهم في شبه الجزيرة مع عبس وذبيان من قيس عيلان — وفق تحليل ابن خلدون — وإما أنهم كانوا في الميسرة بحكم أنهم قحطانيون [كانوا أصلاً من قحطانية اليمن ثم نزحوا شمالاً] ، وقد رجحنا الاحتمال الأول واخترناه لأنه هو الذي يتفق به أن تكون سائر القبائل في مواقفها تلك التي رسمناها على الخريطة فاستقامت بذلك ، ولو وضعنا طيئاً وقضاعة في الميسرة لانزاحت كل من بجيلة وأسد وتميم الى اليمين مسافة تباعد مواقفها بعض الشيء عما أمامها من تعبئة الفرس التي التحمت معها .

على هذه الأسس رسمنا خريطة تعبئة القادسية التي أعانتنا كثيراً على تتبع سير المعركة وفهم مراحلها وأحداثها في أيامها كلها ، وجاءت في كل جزئية منها موافقة لكل ما ذكرته روايات المصادر .

ونرجو أن نكون قد وفقنا في ذلك الى عين الصواب .

توقيت القادسية

تضاربت الأخبار عن توقيت موقعة القادسية والأيام السابقة لها . وقد جمعنا فيما يلي مـا وجدناه من ذلك ثم قمنا بالنظر فيه ومقارنته ببعضه ومطابقته على الأحداث حتى خلصنا إلى النتيجة التي أخذنا بها :

١ — كانت وقعة القادسية في أول محرم ١٤ هـ [١] .

٢ — بدأ توافد المسلمين لهذه الحملة على المدينة في أول محرم ١٤ هـ . فأنزلهم عمر بصرار [٢] .

٣ — كانت وقعة القادسية وافتتاحها سنة ستة عشر [٣] .

٤ — كان بعض أهل الكوفة يقول كانت وقعة القادسية سنة خمسة عشر[٤].

٥ — قال [لا ندري من] والثبت عندنا أنها كانت في سنة أربعة عشر[٥].

٦ — وأما محمد بن اسحق فإنه قال كانت سنة خمسة عشر [٦] .

٧ — في آخر سنة خمسة عشر قتل الله رستم بالعراق ، وشهد أهل اليرموك حين فرغوا منه يوم القادسية مع سعد بن أبي وقاص ، وذلك أن سعداً حين حسر

---

(١) الطبري ٣ / ٥٣٨ س ش س عن اسماعيل بن أبي خالد .
(٢) « ٣ / ٤٨٠ « « « عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .
(٣) (٤) (٥) (٦) الطبري ٣ / ٥٩٠ عن الواقدي .

عنه الشتاء سار من شراف يريد القادسية ، وفي رواية ابن اسحق أن اليرموك كانت في رجب سنة خمسة عشر [1] . [الطبري ٤ / ١٣٦] .

٨ – نزل سعد زرود أول الشتاء [2] .

٩ – أقام سعد بزرود [الثعلبية] ثلاثة أشهر حتى لحق به أصحابه ثم قدم العذيب في ١٥ هـ [3] .

١٠ – أقـــام سعد بالقادسية شهراً ثم كتب إلى عمر : « لم يوجه القوم الينا أحداً » [4] .

١١ – أقام رستم بين الحيرة والسيلحين أربعة أشهر لا يقدم على المسلمين [5] .

١٢ – كان بين خروج رستم من المدائن وعسكرته بساباط وزحفه إلى أن لقي سعداً أربعة أشهر [6] .

١٣ – كان بين قدوم خالد العراق ونزول سعد القادسية سنتان وشيء. وكان مقام سعد بها شهرين وشيئاً حتى ظفر [7] .

١٤ – خطب سعد يوم أرماث وذلك يوم الاثنين في المحرم ١٤ هـ فكان مما قال : « .. وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ... »

وقال عاصم يومها لقومه : « ... وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين... » [8]

١٥ – كان مقام سعد بالقادسية بعد الفتح شهرين في مكاتبة لعمر.. ثم ارتحل

---

(١) الطبري ٣ / ٥٧٢ عن ابن اسحق عن وهب بن كيسان عن عبد الله بن الزبير .

(٢) الطبري ٣ / ٤٨٦ س ش س عن محمد وطلحة عن ماهان وزياد بإسناده .

(٣) فتوح البلدان ٦٣٣ .

(٤) الطبري ٣ / ٤٩٤ س ش س عن عبد الله بن مسلم المكلي ، والمقدام بن أبي المقدام عن أبيه عن كرب بن أبي كرب العكلي .

(٥) فتوح البلدان ٦٣٤ .

(٦) الطبري ٣ / ٥٠٩ س ش س عن محمد وأصحابه وشاركهم النضر بإسناده .

(٧) « ٣ / ٥٠٢ « « « عن عمرو عن الشعبي .

(٨) « ٣ / ٥٣١ « « « عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .

إلى برس لأيام بقين من شوال ١٥ هـ – كذلك أورد الطبري برس ضمن أحداث عام ١٥ هـ [١].

١٦ – علم سعد بمخاضة أسفل العسكر فأرسل اليها طليحة بن خويلد فعبر منها العتيق إلى خلف عسكر الفرس وراء الردم [٢].

١٧ – كان قتال القادسية يوم الخميس والجمعة وليلة السبت وهي ليلة الهرير [٣].

من جملة هذه الروايات نجد لها اتجاهاً عاماً واحداً إذا استثنينا من بينها القليل الشاذ. فمن حيث كان بدء توافد المسلمين على المدينة في أول محرم ١٤ هـ فإنه ينتفي أن تكون القادسية في أول محرم ١٤ هـ. والذين قالوا إن القادسية كانت عام ١٦ هـ يختلفون مع الثابت أن فتح المدائن كان في صفر ١٦ هـ وكان بين القادسية والمدائن من الزحف والمعارك ما لا يتسع له ما قبل صفر من عام ١٦ هـ، كما سنرى في الكتاب التالي.

أما الرواية التي تقرر أن سعداً نزل زرود أول الشتاء، فكأنها تقرر أن ذلك كان في أواخر شعبان ١٤ هـ فهو الذي كان يوافق منتصف اكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٥ م الذي يمكن اعتباره أول الشتاء، ويكون مسيرهم ونزولهم زرود قبل حلول شهر الصوم رمضان، وهو أول شتاء يجيء بعد محرم ١٤ هـ. يتفق مع هذا، الرواية التي تقول أن سعداً سار من شراف حين حسر عنه الشتاء، يعني في مارس (آذار) ٦٣٦ م الموافق صفر ١٥ هـ، وهو ما يتفق أيضاً مع بقاء سعد في زرود ثلاثة أشهر وكأنه أقام في شراف حوالي شهرين في عملية تنظيم لقواته. ويطابق هذا الرواية التي حددت قدومه على العذيب في عام ١٥ هـ. لقد توفي المثنى وسعد بزرود وتزوج سعد سلمى قبل خروجه من شراف. بين نزول سعد زرود وبين خروجه من شراف يتحتم أن يكون قد انقضت عدة

---

(١) الطبري ٣ / ٦١٩ س ش س عن محمد والمهلب وعمرو وسعيد.
(٢) « ٣ / ٥٥٧ « « « عن محمد وطلحة وزياد.
(٣) فتوح البلدان ٢٦٤.

المتوفى عنها زوجها وهي أربعة أشهر وعشرة أيام . ولكن سعداً كان في زرود قبل وفاة المثنى بزمن لا تذكره المصادر ، ومن حيث كان كل منهما ينتظر قدوم الآخر فلم يكن ذلك الانتظار ليطول بين الرجلين دون أن يتكاتبا لتحديد مكان اللقاء ، كما لم تكن تلك الأيام لتقصر حتى ينتفي مفهوم الانتظار . ولربما يكون سعد قد أقام بشراف أياماً بعد زواجه من سلمى. والتاريخ الذي قدرناه لخروج سعد من شراف يجعل تلك المدة كلها خمسة أشهر ونصف منذ نزوله زرود وهي مدة معقولة ومنطقية مع هذا التقدير، بل إن نقصانها أو زيادتها كثيراً عن ذلك يخرجها عن حدود المعقول .

لقد نزل سعد بشراف وكتب الى عمر بمنازل الناس فكتب له عمر بتنظيم جيشه وقــام سعد بإجراء ذلك التنظيم ثم كتب الى عمر بذلك فأجابه بخطته لمعركة القادسية وأمره بالسير اليها . وإذاً فلا بــد أن يكون الزمن الذي أقامه سعد بشراف يتسع لانتقال البريد بينه وبين المدينة أربع مرات علاوة على ما اقتضته عملية التنظيم ، ووفق تقديرنا أنه أقام بشراف حوالي شهرين .

بناء على ذلك قدرنا نزول سعد القادسية في حوالي ١٦ صفر ١٥ هـ — ٢٩ مارس (آذار) ٦٣٦ م على أساس أن بين شراف والقادسية مسير ثلاثة أيام . وأقــام سعد بالقادسية شهراً قبل أن يعين يزدجرد رستم لحرب المسلمين ثم عينه بعـــد ذلك وسار ذلك السير البطيء الذي استغرق أربعة أشهر على روايتين ، إحداهما تقول من خروجه من المدائن والثانيــة تجعل الأربعة أشهر بين الحيرة والسيلحين .

يضاف الى ما سبق الاعتبارين الآتيين :

١ — ان ارتحال سعد الى برس من القادسية بعد أن أقام بها شهرين بعد المعركة كان لأيام بقين من شوال ١٥ هـ.

٢ — في رواية ابن اسحق أن اليرموك كانت في رجب ١٥ هـ . وأن أهل اليرموك حين فرغوا منه شهدوا القادسية .

يجعلنا هذا وذاك نضع القادسية من أحداث شعبان ١٥ هـ .

يؤيدنا في هذا كافة الروايات التي تجعلها في عام ١٥ هـ . ويؤيدنا أيضاً خطبة سعد في القادسية التي قال فيها : « .. وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج » . وخطبة عاصم التي قال فيها : « .. وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين .. » ومن حيث بدأت حملات فتح العراق منذ عام ١٢ هـ . فلا يتفق فوات ثلاث حجج إلا في عام ١٥ ، أما في عام ١٤ فتكون حجتان فقط هما عام ١٢ وعام ١٣ ، وأما في عام ١٦ فتكون قد بلغت أربع حجج .

ويلاحظ من عبور طليحة بن خويلد نهر العتيق خوضاً أن الوقت لم يكن وقت فيضان بل كان زمن تحاريق . ولقد وافق شعبان ١٥ هـ . شهر سبتمبر (أيلول) ٦٣٦ م وهو ما يتفق مع ما ذهبنا اليه .

هذا ويدعم ما ذهبنا اليه أيضاً الخطة العامة للقادسية ، فقد كان مما كتب عمر إلى سعد :

« فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله » .

يعني أن الخطة انبنت على معركة حاسمة بالقادسية يعقبها اندفاع خاطف إلى المدائن . وقد كان فتح بهرسير والمدائن في صفر ١٦ هـ . مما لا يستقيم معه أن تكون القادسية عام ١٤ هـ . وإنما يطابق أن تقع في شعبان ١٥ هـ .

ولو أن سعداً كان حاد البصر ، إلا أن رؤيته أبا محجن والبلقاء ليلة السواد يدلنا على أنها كانت ليلة مقمرة صافية ، ولا نتصور أن يراه على الصورة التي مرّت بنا ليلة السواد في غير إضاءة قمرية واضحة . وفي فتوح البلدان ٦٤٢ أن قتال القادسية كان يوم الخميس والجمعة وليلة السبت وهي ليلة الهرير . وبالرجوع إلى تقويم شهر شعبان ١٥ هـ استطعنا أن نطابق ذلك في الليالي المقمرة مع أيام الخميس ١٣ شعبان والجمعة ١٤ شعبان — ٢٠ سبتمبر (ايلول) ٦٣٦ م وهي ليلة رؤية أبي محجن ، والسبت ١٥ شعبان .

أما الرواية التي تذهب إلى أنه كان بين قدوم خـــالد العراق ونزول سعد القادسية سنتان وشيء وأن مقامه بها كان شهرين وشيئاً حتى ظفر ، فإنها تنضبط إذا قسنا ذلك على خروج خالد من العراق في صفر ١٣ هـ وليس على قدومه اليه في محرم ١٢ هـ . ولعل الراوي أن يكون قد التبس عليه .

على ذلك نكون قـــد أخذنا بكافة الروايات السبعة عشر وأعملناها فيما عدا أرقام ١ و ٣ و ٥ منها فقد نقضناها .

نفرغ ما سبق في النتائج الآتية :

١ محرم	١٤ هـ	٢٤ فبراير	٦٣٥م	بدأ تجمع الجيش بصرار .
حوالي ١٣ شعبان	»	١ أكتوبر	»	خرج سعد من صرار .
» ٢٧ »	»	١٥ »	»	بلغ زرود مع أول الشتاء وأقام بها ثلاثة أشهر .
» ٣٠ ذي القعدة	»	١٤ يناير	٦٣٦	خرج من زرود بعـد أن لحق به سائر جيشه .
» ٨ ذي الحجة	»	٢٢ »	»	نزل بشراف ونظّم جيشه وتزوج سلمى .
» ١٣ صفر	١٥	٢٦ مارس	»	خرج من شراف بعـد انحسار الشتاء الى القادسية .
» ١٦ »	»	٢٩ »	»	بلغ القادسية وأقام بهـا شهراً قبل تولية رستم .
» ٢٣ ربيع الأول	»	٤ مايو	»	تولى رستم حرب سعد .
الاثنين ١٠ شعبان	»	١٦ سبتمبر	»	بلغ رستم القادسية بعد تحرك بطيء .
الخميس ١٣ »	»	١٩ »	»	أرماث – وليلة الهدأة .
الجمعة ١٤ »	»	٢٠ »	»	أغواث – وليلة السواد .

السبت ١٥ شعبان ١٥ هـ ٢١ سبتمبر ٦٣٦م عماس – وليلة الهرير .

الأحد ١٦ « « ٢٢ « « يوم القادسية .

حوالي ٢١ شوال « ٢٥ نوفمبر « خرج من القادسية الى اللسان ثم برس ثم بابل .

« ٤ ذي الحجة « ١٨ يناير ٦٣٧ نزل على بهرسير وبدأ حصارها.

« ٧ صفر ١٦ ٢٠ مارس « فتح بهرسير بعد حصار دام حوالي شهرين .

« ١٤ « « ٢٧ « « فتح المدائن .

القادسية معركة

بعد هـذا الاستطراد الطويل لعلنا لاحظنا أن القادسية قد أخذت شكلاً خلاف معارك الحملات السابقة . في تلك الحملات كانت المعارك سريعة متلاحقة في لقطات سريعة وحركات خاطفة نلهث وراء خالد بن الوليد أو المثنى بن حارثة لمتابعتها واللحاق بها . أما في القادسية فقد اتخذت وضعاً مستقراً في أرض تمّ اختيارها قبل ذلك بفترة طويلة عن دراسة سبقت وإصرار وترصد حتى لكأننا كنا نستحثهم على إنجاز المعركة من طول ما انتظرنا ، فهي مثال للتدبير الرزين الذي لا يتعجل الأمور ولا يستعجل النتائج . فإذا ذهبنا نتأمل مزايا معركة القادسية وصفاتها تبين لنا الآتي .

دراسة الموارد المتاحة للمعركة

١ ـــ ان أمير المؤمنين عمر لم يبادر إلى الدخول في المعركة قبل أن يتم بالفعل حشد كل القوى المستطاعة ، وان تقدُّم سعد نحو القادسية كان بطيئاً أبطأ من أي تقـدُّم سبق ، فقد نزل المسلمون زرود في أواخر شعبان ١٤ هـ . بينما لم يصلوا القادسية إلا حوالي منتصف صفر ١٥ هـ . أي بعد خمسة أشهر ونصف . انقضت هذه الشهور في عملية حشد وتوجيه وتنظيم للموارد . بعبارة أخرى أن عمر بدأ حربه مع فارس بدراسة واقعيــة للموارد المتاحة للمعركة المطلوبة ، وعرف جيداً كم من الجند تحت يده ، كما كان يدرك نوع هؤلاء الجند مشاتهم وفرسانهم

وإمكانياتهم المادية والمعنوية . وقـد اهتم اهتماماً خاصاً بحشد الخطباء والشعراء ورؤساء القبائل لما لهؤلاء من أثر معنوي في الحرب عند العرب .

جندية ممتازة

٢ – لقد كانت هـذه المعنوية من أكثر العوامل ظهوراً في المعركة ، معنوية لا تعرف الخوف والوجل قامت على إيمان حق لا يتزعزع أفرغ في أصحابه أعلى درجات الشجاعة .. أي جرأة تلك التي تدفع صاحبها إلى مهـاجمة فيل مدرع ومدرب ، عليه طاقم مسلح بالقسي والرماح والطبرزينات .. هـــذه الجسارة النادرة استطاعت أن تخرج من المعركة ثلاثين فيـلاً مرتين ، مرة في يوم أرماث ومرة أخرى يوم عماس ، فأحدث ذلك أثراً مزدوجاً إذ ارتاح المسلمون منها وبما كانت تفعل كسلاح له فاعليته ، كما فجع خروجها الفرس وقـد كانوا يعتمدون عليها ويعتبرونها سلاحهم الرهيب الذي يحتكرونه دون أعدائهم .

هـــذه الجندية الممتازة لم تواجه الأفيال فحسب وإنمـا واجهت أيضاً تلك الأعداد المهولة من المشاة الفرس المقترنين في السلاسل وغير المقترنين ، وفرسانهم الدارعين الذين يفوقونهم عدداً وعدة . ولكن المسلمين كانوا يمتازون بلياقة بدنية ولياقة سلوكية أكبر ، تجلى هذا وذاك في ذلك الصبر الجميل على القتـال ساعات طوال دون خور ، فإذا شعروا بالتعب شعروا معه أن عدوهم أيضاً قد تعب وأن النصر لمن صبر ، ويتمثلون قوله تعالى :

﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ .

كذلك ساهمت النساء والصبيان في تمريض الجرحى وحفر القبور لثمانية آلاف وخمسمائة شهيد وفي سقي المصابين وأعمال التشطيب بعد الفراغ من صلب المعركة .

لقد هدفنا من وراء ترداد المواقف الفردية لأبطال المسلمين إلى تبيان نوع تلك الجندية التي كان الواحد منهم ينتقي أشد مواطن الخطر ليجود فيهـا بنفسه عن إخوانه ويكون له مندوحة لو لم يفعل . فهـــذا يسأل أي الموت أشد ، وذاك

يموت ليبلغ مكان رستم وثالث يتلقى ضربة الطبرزين في وجهه ليضرب خرطوم الفيل .. وهكذا .

وفي أثنـــاء ذلك يجري الشعر على ألسنتهم عذباً يشيد ببطولاتهم ويسجل مواقفهم في فخر صادق لا زيف فيه هم له أهل . هي نمـــاذج فوق دلالتها على شجاعتهم وإيمانهم واحتسابهم أنفسهم لله كانت تدل على مهارة في القتال و كفاءة تدريبية ، بكل تأكيد لم يكن للمجوس مثيل لها .

دراسة واعية للعملية

٣ — وكما درس عمر موارده لقــد درس أيضاً العملية المطلوبة ، وكانت رسائله الكثيرة إلى سعد ورسائل سعد اليه دراسة لاحتياجات المعركة ودراسة المنطقة وطبيعتها وطبوغرافيتها ومداها ومسافاتها . وبناءً على ذلك كان يرسم خطة المعركة في مواقعها وخطة إمدادها بما يلزمها من إمدادات وتموين سواء من القاعدة الأصلية في شبه الجزيرة أو من الميدان نفسه .

من تلك الرسائل يتبين أن عمر كان يعرف الكثير عن جغرافية الميـدان ثم كان يطلب المزيد من سعد فيصفه وصفاً طبوغرافياً استطعنا منه أن نرسم نحن اليوم خريطة القادسية ! ذلك الموقع المختـار وما اتصف به من صفات كان هو محور خطة القادسية وعليه اعتمادها .

مزايا أرض القادسية

٤ — كانت أرض القادسية كما سبق أن ذكرنا عند التقاء الصحراء بالسواد ، وراءها صحراء العرب وأمامها أنهار السواد وبطائحه المغمورة بالمياه وزروعه ونخيله ، فإذا دارت الدائرة لصالح المسلمين انحصر الفرس بين الأنهار ولم يكن انسحاب قواتهم كبيرة العدد سهلاً ويكون اصطيادهم في المطاردة هيناً . أمـا إذا دارت لغير صالح المسلمين فخط رجعتهم مفتوح وراءهم إلى صحرائهم التي يتوه فيها خصمهم .

ضيق وسعة

٥ — سبق المسلمون الفرس إلى أرض المعركة واتخذوا مواقفهم فيها قبل أن يعبر الفرس . ثم لم يتركوا لهم اتساعاً مناسباً يستوعبهم استيعاباً مريحاً . كانت الجبهة بطول ميل [والميل ١٨٤٨ متراً] وكان عرض ما يشغله المجوس في حدود مائتي متر . وإذاً فقد كانت مساحة ما يقف عليه جيش فارس حوالي ٣٧٠٠٠٠ متراً مربعاً، فإذا أخذنا في اعتبارنا أن جيش الفرس والتبع بلغ ٢٤٠٠٠٠ لكان نصيب الفرد منهم من مساحة أرض المعركة متراً ونصف متر مربع ليقف ويتحرك فيها ، فإذا أدخلنا في اعتبارنا وجود خيل وأفيال وأثقال ومتاع لكان نصيب الفرد منهم أقل من ذلك . وقد يقال على سبيل الحدس والتخمين الذي لم يقل به أحد من الرواة أن التبع ربما كانوا من وراء العتيق وحينئذ يرتفع حيز الفرد إلى أقل من ثلاثة أمتار مربعة . فأي ضيق ذلك الذي وضع فيه جيش فارس نفسه ، أو الذي وضعه فيه سعد ؟ وكيف يتسنى لجيش هذا وضعه أن يتحرك وأن يقاتل وأن يناور ؟

هذا بينما لنا أن نفترض ـ محقين في افتراضنا ـ أن المسلمين أخذوا من مساحة أرض الميدان حاجتهم على الأقل لأنها كانت في أيديهم ابتداء، وإذاً فقد كان لهم أن يتحركوا وأن يروحوا ويجيئوا بينما حركة المجوس مقيدة . وهكذا تنقلب الكثرة العددية نقمة في غير صالح أصحابها . وربما ساعد هذا على أن يفسر لنا كيف عجز اثنان وخمسون ألفاً من المجوس معهم ثلاثة عشر فيلاً أن يطحنوا ألفين من بجيلة حين شنوا هجومهم عليهم يوم أرماث .

اتجاه الشمس

٦ — نظرة الى خريطة القادسية تبين لنا أن صفوف المجوس كانت الى الشمال والشمال الشرقي وأن صفوف المسلمين كانت الى الجنوب والجنوب الغربي . ومعنى هـذا بعبارة أخرى أن وجوه المجوس كانت تتجه الى الجنوب والجنوب الغربي بينما وجوه المسلمين كانت تتجه نحو الشمال والشمال الشرقي . وإذا فقـد كانت

الشمس من شروقها الى غروبها تقابل وجوه المجوس بينما هي في ظهور المسلمين . بطبيعة الحال لم يكن هـذا عن اختيار من المسلمين وتعمد له حين اختاروا موقع القادسية ولكنه الصدفة التي تحدث أحياناً أو ما يطلقون عليه في الحرب «عنصر الحظ» ، وهو ضرب من القضاء والقدر كان من نصيب المسلمين .

واتجاه الريح

٧ - حظ آخر أو قضاء آخر حالف المسلمين في مواقعهم تلك بالقادسية ، ذلك هو اتجاه الريح. والرياح السائدة على العراق شمالية غربية تتجه من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي معظم أيام السنة [١] . ولكن يتعرض الجو شتاء للأعاصير فينقلب اتجاه الريح . وقـــد حدث ذلك في أيام القادسية فنشطت الريح الدبور في اتجاه من الغرب الى الشرق ، ولا بد أنها كانت أكثر ميلاً عن تسامت « غرب شرق » فكانت أقرب الى أن تهب من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي حتى اقتلعت طيارة رستم وألقت بها في نهر العتيق . فكل غبار المعركة كانت تسفيه الريح في وجوه المجوس وتفعل فعلها لا سيما وأنها قادمة من منطقة صحراوية ،في حين كانت الرؤية في أوضح حالاتها للمسلمين وبصفة خاصة لسعد الجاثم فوق قديس قصر القادسية يشرف منه على ميدان المعركة ويصدر أوامره وتوجيهاته ويحرك وفق ما يرى قواته .

كان قديس برجاً للمراقبة ممتازاً ، والشمس والريح والغبار كانت من جنود الله في هذه المعركة شاركت فيها لصالح المسلمين . وقبلهـا بسنوات عشر حين تنبأ الرسول ﷺ بسقوط قصور الحيرة والمدائن وصنعاء والشام فيأيدي المسلمين أنزل الله في مثل ذلك من غزوة الخندق قوله تعالى [٢] :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ .

---

(١) جغرافيا العراق الطبيعية ١٠٥ - د. جاسم محمد الخلف .
(٢) الأحزاب : ٩ .

وفي القادسية كان كثير ممن شهد غزوة الخندق تلك في العـام الخامس من الهجرة وتلقوا نبوءة النبي وشهدوا نزول تلك الآية الكريمة، شهدها سعد وسلمان الفارسي وغيرهم من المهاجرين والأنصار ، وليس هذا فقط بل شهدها أيضاً من المسلمين الأبرار الذين يقاتلون اليوم في القادسية من كان لا زال كافراً مع قريش وأسد وغطفان يريدون اقتحام المدينة على رسول الله ومن معه من المؤمنين ، شهدها ضرار بن الخطاب القرشي وطليحة بن خويلد الأسدي وغيرهما ، شهدوا غزوة الأحزاب كافرين وشهدوا القادسية مؤمنين .

اختيار الموقع بصفاته السالفة إذاً كان هو أساس الخطة لمعركة القادسية فاعتمدت على مزاياه كلها واستفادت منها ، ولأنه كان محصوراً فلم يكن يتسع خط المواجهة لأكثر من عدد معين تفقد الكثرة معها ميزتهـا ، إذ ماذا يصنع أولئك الذين هم خلف الصف الأول ؟ فضلاً عن ذلك فإن وجود العتيق خلف ظهور الفرس حرمهم بالفعل من فرصة انسحاب منتظم فكانت كارثتهم محققة. ولولا موقع العتيق ذاك لاستطاع رستم أن ينجو بنفسه وقد كان لرستم وزنه في دولته وكان يمكن أن يعول عليه في استمرار الحرب بشكل أكثر فاعلية. ولولا موقع العتيق لما غرق فيه ثلاثون ألفاً من المقترنين بالسلاسل . ولولا موقع العتيق لاستطاع عدد أكبر ممن تناولتهم رماح المسلمين وسيوفهم أن يجدوا طريقاً لانسحاب أفضل .

قيادة ممتازة

٨ — وكما توفرت الجندية الممتازة والأركانات التي رأينا جهودها ، كذلك توفرت للمسلمين كفاءة القيادة .

لقد كان سعد مثالاً للحزم الذي ينبغي لقـائد في الميدان ونموذجاً للهدوء والرزانة والأناة بالرغم مما أصابه من مرض وعلل وضعته في موضع حرج للغاية، ولكن ماذا كان يستطيـع أي قائد مثالي أن يصنع أفضل مما صنع سعد؟ إن كافة القـادة اليوم والمشهود لهم منهم يفعلون أكثر من ذلك دون مرض فيقودون

معاركهم من مناطق هي خارج ميادينها . لقد كشفت لنا هذه المعركة عن أهم ميزات القائد الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص ومعدنه النفيس، وهي الأعصاب الهادئة ، فلم يصدر قراراً واحداً يتسم بالرعونة أو النزق ، بل وجدناه والمعركة على قيد أمتار منه حين اقتنع بأنه ليس مطلوباً منه شيء وجدناه يذهب فينام ! لقد كان سعد رضي الله عنه في هـذا صورة للحديث الذي رواه هو نفسه عن رسول الله ﷺ حيث قال :

« التؤدة في كل شيء خير .. إلا في عمل الآخرة » .

ومن هنا كان تباطؤه في التكبيرات التي كانت أوامره بالتحرك والالتحام ، فكان يؤثر الروية للنظر والرؤية ، وحتى يجهد عدوه وينظر ما عنده .

وبعد دراستنا لحروب خالد والمثنى في عهد أبي بكر لعل منا الآن من يتوقع من سعد أن ينادي في جيشه للزحف نحو المدائن والاشتباك السريع بأي قوات مجوسية تكون على الطريق . إن كان كذلك فقد نسينا إذاً الفارق بين ثنائي « أبي بكر – خالد » وبين ثنائي « عمر – سعد » . لقد كان لأبي بكر طبيعته فاختار لها القائد الذي يناسبها ، وكان لعمر طبيعة أخرى فاختار لهـا أيضاً القائد الذي يناسبها. فماذا حدث ؟ لقد أقام سعد بالمسلمين في القادسية في انتظار بلوغ سعد بن عميلة إلى المدينة ثم ما يأمر به عمر .

وليس هدوء الأعصاب هو الذي تحلى به سعد فحسب ، فلا شك أن شجاعته كانت تدعو إلى إعجاب أكبر وما إقامته بالقصر مع مـا به من علة تمنعه من مباشرة القتال إلا إفراط في الشجاعة. فكما ذكر الراوية عثمان بن رجاء السعدي « .. ولو عرّاه الصف فواق ناقة لأخذ برمته ، فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه »

ولقد كان سعد بالتعبير الحربي الحديث – محافظاً على غرضه – لقد كانت لديه خطة يعمل على إنفاذها أساسها أن تدور المعركة هنا على هذه الرقعة من الأرض بالذات ، ولقد ظل رستم يطاوله شهوراً عسى أن يزحزحه عن غرضه

وسعد صبور مُصِرّ على ما عزم عليه حتى زجر من كلمه من المسلمين في اقتحام العراق ما دام الفرس لا يحضرون . وبدلاً من ذلك راح سعد يضغط على الفرس حتى يجبرهم على الخروج اليـــه حيث هو وذلك بالغارات التي كان يشنها على أنحاء العراق .

قيادات جديدة

٩ — وأخيراً لنا ملاحظة تلفت نظر المتأمل لحملة سعد ابن أبي وقاص وهي التغيير الشامل للقيادات والأركانات السابقة التي حملت مسؤوليات،سواء في حملة خالد بن الوليد لفتح العراق أو في عمليات المثنى بن حارثة . أين الأقرع بن حابس وأعبد بن فدكي وأخوه أبو ليلى والزبرقان بن بدر وبشير بن الخصاصية وشجرة بن الأعز وعروة بن الجعد وعتيبة بن النهاس وفرات بن حيان ومطر ابن فضة والمنذر بن حسان وحرملة بن مريطة وسلمى بن القين ونسير بن ديسم وغيرهم؟ هذه الأسماء التي لمعت في الحملات السابقة لعل أصحابها كانوا موجودين في القادسية أيضاً ولكن دون ذكر أو ضجيج ،وبعضهم سوف يظهر مرة أخرى في قيادات مع استطراد الفتوح . ولكنهم في القادسية ظهرت بدلاً عنهم قيادات شابة أخذت الأضواء مثل زهرة بن الحوية وشرحبيل بن السمط وحمال بن مالك والربيل بن عمرو ، فلماذا كان هذا التغيير ؟

لعل بعضاً منه كان راجعاً إلى عمر بن الخطاب شخصياً ، فقد رأيناه يتدخل في كل شيء ولا يترك للقائد العام في الميدان إلا أقل بكثير مما كان يمنح أبو بكر قواده من سلطات . وإننا نلمس ذلك من خطاب عمر إلى سعد عن زهرة وقوله : « أنا أعلم بزهرة منك » بحيث نرجح أن اختيار مثل زهرة إنما كان اختياراً من عمر ولم يكن اختياراً من سعد . وسوف يكون ذلك أكثر وضوحاً فيما بعد حين استطردت الفتوح إذ كان عمر هو الذي يعين كافة تعبئة الحملات ويوجهها وجهتها.

من أرض الله. لا ندري على وجه القطع واليقين تعليلاً لتلك الظاهرة ولكنها ربما رجعت لأسباب مثل تلك التي عزل عمر خالداً من أجلها والتي عرضناها في الجزء الثاني من « الطريق إلى المدائن » .

وهناك من الشواهد أيضاً ما يجعلنا نرجح أن آخرين كانوا اختياراً من سعد بحكم صلته السابقة بهم ومعرفته الشخصية لهم . فلا نحسب أنه كان من قبيل المصادفة البحتة أن يكون اختيار خالد بن عرفطة رديفاً لسعد إذا علمنا أن خالداً كان قبل الهجرة في مكة حليفاً لبني زهرة عشيرة سعد بن أبي وقاص ، ولربما كان شغب من شغب في اختيار خالد بن عرفطة أن كان ذلك ظناً منهم أنه اختيار راجع إلى تفضيل شخصي مع وجود من هو أولى وأكثر ظهوراً من ابن عرفطة .

أدوات الفرس للمعركة

١١ — ولا يفوتنا في معرض هذا التعليق أن نضع أمام الأنظار أنه كانت لدى الفرس مزايا وأدوات :

أ — كان في جانبهم الكثرة العددية الساحقة .

ب — أفضلية العدة والسلاح ونوعيته .

جـ — سلاح الأفيال الرهيب الذي لم يكن لدى المسلمين مثله .

د — ستون ألفاً من الفرسان .

هـ — أعلى درجات الكفاءة القيادية والحربية والسياسية في الدولة التي تمثلت في رستم وأركانه هرمزان وجالنوس وبهمنجاذويه وبيرزان ومهران وغيرهم .

و — تمتع الدولة الساسانية باستقرار داخلي توقفت فيه المنازعات الداخلية واجتمع الجميع على يزدجرد مَلِكاً لا ينازع ، مع توقف حروب الدولة في أي ميادين أخرى مع الروم أو غيرهم .

ز – كان الفرس يقاتلون قريباً من ديارهم وعلى بُعـد نحو مائتي كيلومتر من عاصمتهم .

ومع ذلك كله فقـد انتصرت القلة المؤمنة المسلمة على كل تلك الإمكانيات ، وصدق الله العظيم : « **... قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين** » (١) .

---

(١) البقرة : ٢٤٩ .

خـاتمة

ذكرنا في أول هذا الكتاب أن معركة القادسية تقع على قمة المعارك الحاسمة في تاريخ العالم باعتبار أنها المعركة التي انفتحت على آثارها أبواب العراق وفارس، وهي التي من عندهـا استطرد النصر الساحق للمسلمين فاستطرد معه السقوط الساساني سياسياً وحربياً والسقوط المجوسي دينياً وعقائدياً .

ثم درسنا المعركة بكافة تفاصيلها ابتداء من الإعداد لها إلى متابعة أحداثها يوماً بيوم وساعة بساعة حتى تمّ انتزاع النصر من المجوس ليتوج به هام المسلمين.

والآن صار واضحاً أن معركة القادسية لم تكن تستهدف احتلال موقع أو اكتساب أي أرض كانت ، وإنما كان هدفها الجليّ الذي حافظ عليه سعد هو تحطيم الجيش الضخم لامبراطورية فارس ، فإذا ما تحطم فقد انفتحت بعد ذلك الأرض ودالت الدولة .

ولقد رأينا في « الطريق إلى المدائن » نمطاً معيناً من العمل الحربي نستطيع أن نصفه بأنه نمط أبي بكر – خالد ، ثم رأينا في القادسية نمطاً آخر يمكن أن نصفه بأنه نمط عمر – سعد . ثم كانت القادسية منطلقاً لما بعدها من فتوح حتى تمام سقوط دولة الفرس واستيلاء المسلمين على آخر شبر من ترابها على نفس النمط والأسلوب الأخير .

هـذا بكامل تفاصيله، طبقاً لمنهجنا في البحث الذي التزمناه في « الطريق إلى

المدائن » وفي « القادسية » ، هو موضوع بحثنا الذي ضمّنّاه كتابنا التـــالي (تحت الطبع) الذي سيتناول سقوط المدائن وما بعد المدائن .

موضوعنا التالي سوف يبدأ بتحرك جيش سعد بعد القادسية واشتباكاته مع فلول المجوس في بُرْس ثم في بابل مع فتح جبهـــة جديدة في قطاع الأبلة .. ثم معركة مُظْلِم ساباط وحصار بهرسير إحدى المدائن السبع غربي دجـلة حتى سقوطها ... أعجب عملية عبور في التـــاريخ الحزبي لفتح المدائن ، مركبات المسلمين البرمائية .. كتيبة الأهوال .. معركة العبور .. إيوان كسرى يسقط في أيدي المسلمين مع وصف كامل للإيوان .. غنـــائم المدائن .. سمو المسلمين وأمانتهم .. حلوان عاصمة مؤقتـة ليزدجرد .. معركة جلولاء في الطريق إلى حلوان .. عمر يبكي على غنـائم جلولاء !.. معاملة المجوس كأهل الكتاب .. الجبهـــات الأخرى .. تكريت ثم الموصل ونينوى .. هيت وقرقيسياء .. ماسبذان .. الأبلة .. الأهواز .. ثورة أبرقباذ .. إنشاء قاعدة الكوفة .. فتح الجزيرة .. ورطة المسلمين في طاوس .. هرمزان الأسير عند عمر .. عمر يحاكم هرمزان .. فتح السوس ، جندي سابور .. فتح الفتوح بنهاوند .. النعمان بن مقرّن تلميذ سعد .. لله جنود من عسل .. سقوط همذان .. انسياح المسلمين من البصرة ومن الكوفة حتى حدود السند [باكستان اليوم] .. البائس يزدجرد الثالث ابن شهريار .

ثم أعقبنـــا ذلك بفصول ثلاثة لا بد منها عن الباعث على حركة الفتح الإسلامي ، وعن مشروعية القتال في الإسلام ، وعن عوامل نجاح الفتوح .

ترجمة مشاهير قادة الفتح (١)

(ص ١٥٩)

أبو محجن الثقفي

أبو محجن بن حبيب الثقفي ، اختلف في اسمه فقيل مالك وقيل عبد الله وقيل اسمه كنيته وعلى أي حال فقد اشتهر بأبي محجن ، بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن قصي وهو ثقيف . كان من الأبطال الشجعان في الجاهلية والإسلام ومن أولي البأس والنجدة من الفرسان البهم وله مواقف . في حصار ثقيف بالطائف كان مشركاً ورمى عبدالله بن أبي بكر بسهم ودمل الجرح حتى عاد وانتقض عليه في شوال ١١ هـ فمات [الطبري ٣/ ٢٢١] . ثم أسلم أبو محجن حين أسلمت ثقيف وسمع من النبي وروى عنه . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي ثلاث : إيمان بالنجوم وتكذيب بالقدر وحيف الأئمة » .

وكان شاعراً مطبوعاً كريماً ، غير أنه كان منهمكاً في الشراب لا يكاد يقلع عنه ولا يردعه حد ولا لوم لائم . كان أبو بكر يستعين به وجلده عمر في الخمر

---

(١) نورد هنا تراجم مشاهير القادة الذين لم ترد أسماؤهم وتراجمهم في كتاب « الطريق إلى المدائن » .

مراراً ، عن ابن جريج قال : بلغني أن عمر بن الخطاب حدّ أبا محجن بن حبيب في الخمر سبع مرات. وقال قبيصة بن ذؤيب : ضرب عمر بن الخطاب أبا محجن الثقفي في الخمر ثماني مرات. وقال ابن سيرين: فلما أكثر عليهم سجنوه وأوثقوه.

شهد حرب العراق مع أبي عبيد بن مسعود الثقفي وكان ممن هاجم الفيل معه فضربه على عرقوبه ، ثم كان مع المثنى يوم أليس الصغرى وانصرف منها .

وكانت ثقيف تسكن الطائف وقد كان ذا بساتين ونخل وكرم ، فنفاه عمر بسبب إدمانه الخمر إلى جزيرة في الخليج الفارسي حيث لا كرم ، وبعث معه حارساً يدعى أبو جهراء البصري كان أبو بكر يستعين به ورجلاً آخر ليحملاه في البحر إلى تلك الجزيرة ، فرأى الرجل سيفاً مع أبي محجن فخافه ، وقيل بل همّ أبو محجن بقتله فهرب أبو جهراء وهرب منه أبو محجن ولحق بسعد بن أبي وقاص بالقادسية .

وتختلف الروايات حول سبب حبس أبي محجن في قصر القادسية ، فرواية تذهب إلى أنه كان ممن شغب على سعد حين استخلف خالد بن عرفطة . وتذهب رواية أخرى إلى أن أبا جهراء لحق بعمر حين هرب منه أبو محجن فكتب عمر إلى سعد بسجنه . ورواية ثالثة تقول إن أبا محجن هوى امرأة من الأنصار يقال لها شموس فحاول النظر اليها فلم يقدر فآجر نفسه من بنّاء كان يبني بيتاً بجانب منزلها فأشرف عليها من كوة وأنشد :

ولقد نظرت إلى الشموس ودونها حرج من الرحمن غير قليـــل

فاستعدى زوجها عمر فنفاه وكان ذلك سبب قصة أبي جهراء .وتقول رواية رابعة أن سلمى سألت أبا محجن بعد أن عاد ليلة السواد « في أي شيء حبسك هذا الرجل ؟ » قال : أمَ والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني يبعثه على شفتي أحياناً فيُساء لذلك ثنائي ولذلك حبسني ، قلت :

إذا مِتُّ فادفِنّي إلى أصل كرْمَةٍ ... تُرَوّي عظامي بعد موتي عُرُوقُها
ولا تَدْفِنَنّي بالفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقُها
وتُروي بخمر الحُصِّ لحدي فإنني ... أسير لها من بعد ما قد أسوقُها

[الحص مكان مشهور بخمره] – الطبري ٤ / ١٢٤ .

وفي هذه القصة أن سعداً قال له بعد بلائه ليلة السواد :

« لا أجلدك في الخمر أبداً » .

فقال أبو محجن : « وأنا والله لا أشربها أبداً . قد كنت آنف ان أدعها من أجل جلدكم » .

فلم يشربها بعد . وحكاية أخرى أن سعداً دعا به فأطلقه وقال :

« اذهب فما أنا بمؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله » .

قال : « لا جرم والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً » .

ونستطيع من بين هذه الروايات الأربع ان نستبعد الروايتين الثانية والثالثة اللتين ذهبتا إلى ان حبس أبي محجن كان بأمر من عمر بسبب الخمر او بسبب الشموس ، فلو كان الأمر كذلك ما كان من سلطة سعد او سلوكه ان يفرج عن أبي محجن قبل ان يراجع عمر . كذلك نستبعد الرواية الرابعة الأخيرة التي تذهب إلى أن سعداً حبسه في الخمر او في شعره فيها وأنه قال لا أجلدك في الخمر أبداً ، أو ما أنا بمؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله . هذا وذاك غير مقبول في شرع الله ومحال أن يسمح له سعد بهذا أو ذاك وليس في سلطته شرعاً أن يفعل . لذلك أخذنا بالرواية الأولى ، رواية الشعب على خالد بن عرفطة .

وفي الأخبار أن ابناً لأبي محجن دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال له معاوية : « أبوك الذي يقول : إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... ؟ » الخ .

فقال ابن أبي محجن : « لو شئت ذكرت أحسن من هذا من شعره » .

قال : « وما ذاك ؟ »

قال : « قوله » :

لا تسأل الناس عن مالي وكثرته ... وسائل الناس عن حزمي وعن خلقي
اليوم أعلم أني من سراتهم ... إذا تطيشُ يدُ الرعديدةِ الفرِقِ
قد أركب الهول مسدولاً عساكره ... وأكتم السر فيه ضربة العنق
أعطي السنان عداة الروع حصته ... وعاملُ الرمح أرويه من العلق
عف المطالب عما لست نائله ... وإن ظُلمت شديد الحقد والحنق
وقد أجود وما مالي بذي قنع ... وقد أكرُّ وراء المحجر الفَرِق
قد يعسر المرء حيناً وهو ذو كرم ... وقد تثوب سوام العاجز الحمق
سيكثر المال يوماً بعد قلته ... ويكتسي العود بعد اليبس بالورق

[مسدولاً عساكره : كثيرة لا تخترق ، أكتم سر من أمامي بضربي عنقه فلا ينطق بسره ، عامل الرمح : نصل سنه ، العلق : العروق ، الفرق: الخائف].

قال معاوية : « لئن كنا أسأنا القول فلنحسن لك الفعل » .

وأجزل جائزته وقال : « إذا ولدت النساء فلتلدن مثلك » .

ويذهب بعضهم الى أنه كان عبيد بن أبي محجن وأن ذلك كان مع عبد الملك ابن مروان .

قال هيثم بن عدي إنه أخبره من رأى قبر أبي محجن الثقفي بأذربيجان أو قال في نواحي جرجان وقد نبتت عليه ثلاثة أصول كرم وقد طالت وأثمرت وهي معرّشة على قبره ومكتوب على القبر « هذا قبر أبي محجن الثقفي » . قال: فجعلت أتعجب وأذكر قوله إذا مت فادفني الى جنب كرمة (البيت) [الطبري الاستيعاب ١٨١/٤ كنى – الإصابة ١٠١٧ كنى – فتوح البلدان ٦٢٥ – ٦٢٦ ٦٤١ – ٦٤٧] .

الأسود بن يزيد النخعي

(ص ٩٤)

الأسود بن يزيد بن قيس النخعي من كبار التابعين من الكوفيين وهو صاحب عبد الله بن مسعود . روى عن أبي بكر وعمر وكان فاضلاً عابداً . كان يصوم

الدهر وكان يصوم في اليوم الشديد الحر الذي إن الجمل الجلد الأحمر ليرنح فيه ، وحتى كان يسودّ لسانه من الحر وكان يصوم في السفر حتى يتغير لونه، وقد ذهبت إحدى عينيه من كثرة الصيام . وكان علقمة يقول له : ما تعذب هـذا الجسد ، فيقول : إنمـا أريد له الراحة . وقـد طاف الأسود بالبيت ثمانين ما بين حجة وعمرة . وكان يقرأ القرآن في ست وروي أنه كان يقرأه في رمضان في ليلتين . وعن عائشة انهـا قالت : ما بالعراق رجل أكرم عليّ من الأسود . وكانت أمه مقعدة . وكان أصفر الرأس واللحية وعمامته سوداء يرسلها من خلفه . وحين حضرته الوفاة عام خمس وسبعين قال لرجل كان عنده: إن استطعت أن تُلقّنني حتى يكون آخر ما أقول لا إله إلا الله فافعل ولا تجعلوا في قبري آجراً ولا تتبعوني بصوت . [الطبقات الكبرى ٦ / ٤٦ ـ الاستيعاب ١ / ٧٥] .

زيد بن صوحان (ص ٢٠٥)

أسلم في عهد النبي وصحبه ، وفي الاستيعاب أنه لا يعلم له صحبة . وكان فاضلاً ديّناً خيّراً سيداً في قومه هو وإخوته . شهد يوم الجمل وكان معه راية عبد القيس وحُمل يومها من المعركة وقد أثخنته الجراح فقال له أصحابه هنيئاً لك الجنة يا أبا سلمان . فقال: وما يدريكم ؟ غزونا القوم في ديارهم وقتلنا إمامهم فيا ليتنا إذ ظُلمنا صبرنا ولقد مضى عثمان على الطريق . ثم مات، وسمعت عائشة أم المؤمنين صوت خالد فقالت : خالد بن الواشمة ؟ قال : نعم . قالت : أنشدك الله أصادقي أنت إن سألتك ؟ قال : نعم وما يمنعني ، قالت : ما فعل طلحة ؟ قال : قتل . قالت : إنا لله وإنا اليه راجعون . ما فعل الزبير ؟ قال : قتل . قالت : إنا لله وإنا اليه راجعون . قال : بل نحن لله ونحن اليه راجعون على زيد وأصحاب زيد . قالت : زيد بن صوحان ؟ قال : نعم . فقالت : خيراً . فقال والله لا يجمع الله بيننا في الجنة أبداً . فقالت : لا تقل فإن رحمة الله واسعة وهو على كل شيء قدير .

سعد بن عبيد الانصاري

(ص ٢٠٢)

سعد بن عبيد الأنصاري حليف بني فزارة . شهد بدراً ، وقيل هو أبو زيد الذي جمع القرآن على عهـــد رسول الله ﷺ ، وقيل أبو زيد غيره فكان أحد أربعة من الأنصار جمعوا القرآن في حياة النبي وكان يسمى القارىء ولم يكن أحد يسمى القارىء غيره وكان يؤمّ في مسجد قباء في زمن النبي. كان ثاني من تطوع لحرب الفرس بعد أبي عبيد الثقفي وذلك بعد وفاة أبي بكر حين قدم المثنى إلى المدينة يطلب المدد [ارجع إلى الجزء الثالث من كتاب « الطريق إلى المدائن »]. هرب يوم الجسر فكانت الوجوه تعرض عليه بعد ذلك فيأبى إلا العراق ويقول: « إن الله جلّ وعز اعتـــد عليّ فيها بفرّة فلعله أن يرد علي فيها كرة ». روى البخاري في تاريخه عن طارق بن شهاب قال: شهد سعد بن عبيد القادسية فقال: « إنا مستشهدون غداً فلا تكفنونا إلا في ثيابنا التي أصبنا فيها » . فاستشهد وهو ابن أربع وستين سنة . وهو سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد ابن أمية بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف الأوسي . وكان ابنه عمير والي عمر بن الخطاب على الشام . [الإصابه ٣١٧٦ — الاستيعاب ٢ / ٣٨] .

طليحة بن خويلد

(ص ٩٣)

طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس . بعـــد شهرين من غزوة أُحـــد بلغ النبي أن طليحة وأخاه سلمة على رأس بني أسد يحرضانهم ومن أطاعهما لمهاجمة المدينة ، فأرسل النبي اليهم أبا سلمة بن عبد الأسد في سرية من مائة وخمسين فيهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وأسيد ابن حضير وأمرهم بالسير ليلاً والاستخفاء نهاراً وسلوك طريق غير مطروق حتى فاجأوهم ففروا وطاردوهم ثم رجعوا ومعهم غنائم . وكان طليحة زعيم بني أسد مع الأحزاب يوم قدموا يريدون غزو المدينـــة فلما عصفت الريح وهطل المطر وقصف الرعد خيّل له أن المسلمين انتهزوا الفرصة ليعبروا اليهم الخندق فقـــام ونادى : «إن محمداً بدأكم بشر فالنجاة النجاة». وقام أبو سفيان يؤيد الانصراف

فانصرفوا . ثم وفد طليحة على النبي ﷺ في وفد بني أسد وكان معه ضرار بن الأزور وآخرون فأسلموا . وقبل وفاة رسول الله ارتدّ طليحة وادّعى النبوّة حتى أوقع به خالد بن الوليد في بزاخة من منازل بني أسد عام ١١ هـ وهرب طليحة الى الشام ثم عاد الى الاسلام وأحرم بالحج ورآه عمر فقال له : « إني لا أحبك بعد قتل الرجلين الصالحين عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم » وكانا طليعين لخالد في حرب الردة فلقيهما طليحة وسلمة فقتلاهما . قال طليحة لعمر : « هما رجلان أكرمهما الله بيدي ولم يهني بأيديهما » . وحسن إسلام طليحة وكان من الفرسان الأبطال ، شهد القادسية ونهاوند ويقال استشهد بها .

مراجع البحث المهمة

الإصابة في تميز الصحابة (١٩٣٩)	ابن حجر العسقلاني — التجارية
أحسن التقاسيم	المقدسي
أسد الغابة في معرفة الصحابة	ابن الأثير — دار الشعب بالقاهرة
أنساب الاشراف	البلاذري
الاستيعاب في معرفة أسماء الأصحاب	يوسف بن عبد الله القرطبي — التجارية
البداية والنهاية في التاريخ	أبو الفداء ابن كثير
البيان والتبيين	الجاحظ
بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب	محمود شكري الآلوسي
البخـــلاء	الجاحظ
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي
تاريخ الأمم والملوك	الطبري — دار المعارف بمصر
تاريخ العرب العسكري	محمود الدرة
تهذيب التهذيب	ابن حجر
الجامع لأحكام القرآن	القرطبي — دار الكتب المصرية
جغرافيا العراق الطبيعية	د . جاسم محمد الخلف
جغرافية العراق الحديث	هاشم السعدي
الجغرافية العسكرية	طه الهاشمي
خريطة العراق الأثرية	مديرية الآثار العراقية ببغداد

حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول	د . شكري فيصل
الخراج وصنعة الكتابة	قدامة بن جعفر – Brill 1889
ديوان الشماخ بن ضرار	دار المعارف
الدرر في اختصار المغازي والسير	ابن عبد البر
شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام	النعمان عبد المتعال القاضي – القومية
صحيح البخاري	شرح الكرماني – المطبعة المصرية
الطبقات الكبرى	ابن سعد
عيون الأخبار	ابن قتيبة – دار الكتب المصرية
فتوح البلدان	البلاذري – نشر صلاح الدين المنجد
الفاروق القائد	لواء محمود شيت خطاب – دار الشعب
الفتح العربي للعراق وفارس	محمد فرج – دار الفكر العربي
الفروسية العربية في العصر الجاهلي	سيد حنفي – سلسلة إقرأ رقم ٢١١
قادة الفتح العربي للعراق وفارس	لواء محمود شيت خطاب – دار القلم
لسان الميزان	ابن حجر
الكامل في التاريخ	ابن الأثير
معجم القبائل العربية القديمة والحديثة	محمد رضا كحالة
مفصل جغرافية العراق	طه الهاشمي
مسند الإمام أحمد	أحمد بن حنبل
معجم البلدان	ياقوت الحموي
المسالك والممالك	ابن خرداذية
نابليون	اميل لود فيج
وفيات الأعيان	ابن خلكان

The Memoirs Field Marshal Viscount Montgomery .

فهرس الخرائط والاشكال

أ – الخرائط

(١) ورد رقمها (٥) ص ٤٨ خطأ يرجى تصحيحه .

ب – الأشكال

ج – اللوحات

فهرس الاعلام

د – ر

ز

س

ش

غ

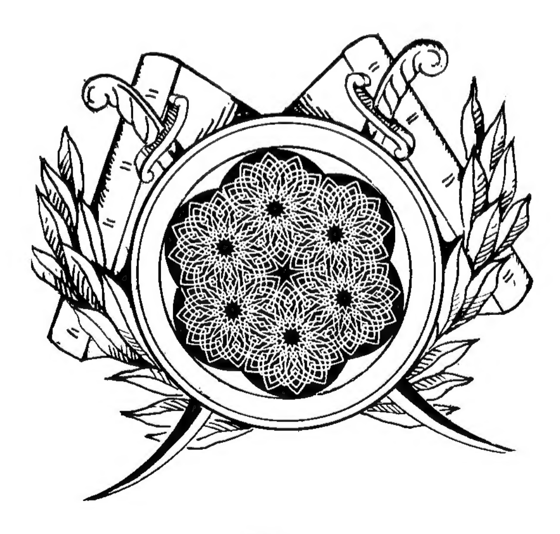
ف

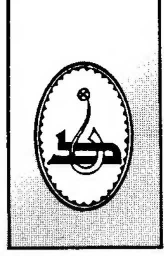
ق

ك

فهرس المواقع والبلدان

محتوى الكتاب





من منشورات "دار النفائس"

- موطأ الإمام مالك (رواية يحيى بن يحيى الليثي) ، تحقيق أحمد راتب عرموش .
- مسند عبد اللّٰه بن عمر (تخريج أبي أمية الطرسوسي) ، تحقيق أحمد راتب عرموش .
- الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين (في علوم الحديث) للقاسمي . تحقيق عاصم البيطار .
- الفوائد ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق أحمد راتب عرموش .
- الانصاف في بيان أسباب الاختلاف (للدهلوي) تحقيق أحمد راتب عرموش .
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، للدكتور محمد حميد اللّٰه .
- التبيان في آداب حملة القرآن (للنووي) تحقيق الشيخ عبد العزيز السيروان .
- مختصر سيرة ابن هشام . تحقيق عفيف الزعبي وعبد الحميد الأحدب .
- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ، ظافر القاسمي .
- عبقرية الاسلام في أصول الحكم ، الدكتور منير العجلاني .
- تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد، تحقيق د. احسان حقي .
- معجم لغة الفقهاء ، الدكتورين محمد رواس قلعه جي وحامد صادق قنيبي .
- الفتنة ووقعة الجمل ، رواية سيف بن عمر ، إعداد أحمد راتب عرموش .
- دلائل النبوة ، للأصبهاني . تحقيق الدكتور محمد رواس قلعه جي والاستاذ عبد البر عباس .
- سلسلة فقه السلف ، الدكتور محمد رواس قلعه جي .
- سلسلة استراتيجية الفتوحات الإسلامية ، أحمد عادل كمال .
- سلسلة مشاهير قادة الإسلام ، بسام العسلي .
- سلسلة مشاهير الخلفاء والأمراء ، بسام العسلي .

صدر عن دار النفائس للمؤلف

رقم : ٧٣١٢